كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

المتحوّرون

وقصص أخرى

40



د. نبيل فاروق

• مع بدء العد التنازلى ، نحو القرن الحادى والعشرين ..

• مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..

• مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..

• مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..

• إلى الحضارة ..

• إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق

جبروت

(قصة قصيرة)

انتفخت أوداج (ميروك) بيك فى زهو متغطرس ، كعادته وهو يهبط من سيارته الفاخرة الكبيرة ، التى يحمل ثمنها ستة أصفار دفعة واحدة ، أمام ذلك المصنع الضخم ، الذى يحمل اسمه الثلاثى ، على لافتة هائلة مضيئة ، يمكن رؤيتها من مسافة كيلومترات ، لتعلن للعالم أجمع أنه صاحبه ، وأنه واحد من سلسلة مصانع ، انتشرت فى البلاد ، من أقصاها إلى أقصاها ، لتعلى من شأنه ، وتعظِّم من قدره ، لدى البلاد والعباد .

وكما يحدث فى كل مرة ، تدافع مدراء مصنعه لاستقباله ، ومصاحبته فى موكب فخم أنيق ، من باب المصنع ، وحتى باب مكتبه ، الذى يحتل وحده نصف طابق بأكمله .

ووفقًا لأوامر المدراء والرؤساء ، تراص عمال المصنع وموظفيه على الجانبين ، يهللون ويصفقون ، احتفالاً بمقدم الكبير ، الذى سار وسطهم فى خيلاء طاووس يتقدَّمه كرشه الضخم ، دون أن يلقى عليهم حتى نظرة ازدراء ، وكأنما لا يشعر بوجودهم أو أهميتهم ، ولم يشعر بها ولو لحظة واحدة فى حياته ..

وفى سباق مضحك ، أسرع الكل يفتحون أمامه باب مكتبه ، الذى دخله بنفس الزهو والتعالى ؛ ليجلس على ذلك المقعد الكبير ، الشبيه بعروش الملوك ، والذى استورده خصيصًا من الخارج ، لينعم بالجلوس عليه ، وعلى أشباهه ، فى كل مصنع من مصانعه العديدة ..

وبعد أن استقر به المقام فى عرشه ، وتناول مشروبه الساخن ، الذى يحمل اسم شركة أغذية عالمية شهيرة ، دخلت إليه سكرتيراته

الحسناوات ، يحملن المراسـلات والخطابات ، والقرارات التى أصدرها من قبل ، والتى تحتاج إلى توقيعه الكريم ؛ لتصبح واجبة التنفيذ ..

وكعادته ، راح (مبروك) بك يراجع كل ورقة وكل كلمة ، ويفحص ويمحص كل طلب تقدم به عامل بسيط ، لقرض أو علاوة ، تساعده على مواجهة شظف العيش والحياة ..

وفى صرامة غاضبة ، جمع كل الطلبات والأوراق ، واستدعى إليـه كل مديريه ورؤساء أقسامه ، وراح يلقى على مسامعهم تلك المحاضرة المعتادة الصارمة الغاضبة ، حول بدايته ، وكفاحه ، وعصاميته ، وكيف أنه قد تعب ، وجاهد ، وقاتل ، حتى وصل إلى ما هو عليه ، دون أن يطلب مساعدة ، أو معاونة ، أو يهدأ أو يستريح لحظة واحدة ..

وفى النهاية ، ختم محاضرته التقليدية بإعلان رفضه لكل طلبات المساعدة ، مع سماحه بأن يعمل العمال والموظفين ضعف ساعات العمل ، مقابل أجر إضافى ، يساعدهم على العيش ، ومواجهـة صعوبات الحياة .

وكالمعتاد أيضًا ، أثنى المدراء والرؤساء على سماحته ، وعطفه ، وطيبة قلبه ، التى ساعدت الفقراء والمساكين فى مصانعه ، على إيجاد سبيل للعيش ، ثم وعدوه بالضغط عليهم ؛ ليعملوا بثلاثة أضعاف طاقتهم ، لو أنهم يرغبون فى الاستمرار فى العمل ..

وإلا فالطرد هو نصيبهم منه ، وبأسرع وسيلة ممكنة ..

ومرة أخرى ، انتفخت أوداج (مبروك) بك ، وامتلأت نفسه بالزهو والخيلاء ، وتصوَّر أنه بالفعل المحسن الكبير ، صاحب القلب النقى

والعطاء اللامتناهى ، وبدأ يعد أوراقه للذهاب إلى الحج ، للمرة السابعة عشرة ؛ حتى يرى الكل إيمانه وتقواه ، ويدركون طهارته وسماحته ..

وبينما تأخذ أوراقه طريقها ، راح هو ينتقل ، من مصنع إلى مصنع ، ومن شركة إلى أخرى ، فى إمبراطوريته الضخمة ، حتى انتهى النهار ، والمواكب الضخمة تصاحبه أينما ذهب ، فعاد إلى منزله ، وجلس يتحدث بعض الوقت مع زوجته ، عن طمع عماله وموظفيه ، الذين لا يملأ عيونهم إلا التراب ، على الرغم من تعامله الرقيق الرحيم معهم ، استمعت إليه المسكينة مستسلمة ، وهى تتمنى أن يرهقه الحديث ، فيتوقف عن ملء نفسها بالضجر والملل ..

ومن حسن حظها ، أن الخدم أعدوا مائدة عشاء حافلة ، أقبل عليها (مبروك) بك بنهم وشراهة ، لا مثيل لهما ، والتهم محتوياتها بلا رحمة أو شفقة ، حتى بمعدته المسكينة ، مما أخرسه تمامًا من الحديث ، ودفع زوجته إلى التطلع إليه بدهشة قلقة ، وقد بدا لها أن حجم كرشه قد تضاعف مرتين على الأقل ، خلال تلك الليلة وحدها ..

وانتهى العشاء ، بزجاجة مياه غازية مثلجة ، من الحجم العائلى ، شربها (مبروك) بك وحده حتى الثمالة ، وألقى جسده بعدها على أريكة فاخرة ضخمة ، يشاهد محطات الأقمار الصناعية ، على شاشة هائلة ، ملتصقة بالجدار ، حتى لتبدو أشبه بإطار أنيق لصورة متحركة ..

وبقيت زوجته بعض الوقت ، حتى صارت عاجزة عن إبقاء جفنيها فى موضعهما ، فأوت إلى فراشها ، ونامت ملء جفنيها حتى الصباح ..

أما (مبروك) بك نفسه ، فقد واصل المشاهدة ، حتى شعر فجأة باختناق عجيب ، وهو يدخن سيجاره الهافانى الفاخر ، وبتميل شديد

فى كفه اليسرى ، ثم زاغت عيناه ، وأطبق ثقل هائل على صدره ، منعه حتى من أى يصرخ مستنجدًا ، وانتفض جسده مـع كرشـه الضخـم انتفاضة واحدة ..

ثم هدأ كل شىء ..

وفى الصباح التالى ، عثرت عليه زوجته ميتًا بأزمـة قلبيـة حـادة ، أمام التلفاز الكبير ، والسيجار الهافانى ما زال مشتعلا بين شفتيه ..

أما هو نفسه ، فالعجيب أنه لم يدرك أنه قد مات ..

كل ما حدث هو أن الدنيا من حوله أصبحت أكثر حرارة ، كمـا أن أجهزة التكييف قد توقفت عن العمل دفعة واحدة ..

ثم وجد نفسه فجأة ، أمام بوابة ضخمة ، تصوَّر أنها بوابة أحد مصانعه ، فنفخ صدره ، ونفش ريشـه ، وانتظر الموكـب الـذى سيصحبه إلى الداخل ..

وانفتحت البوابة ، وخرجت منها مواكب عديدة ..

مواكب يطالبه أصحابها بكل ما حوله منهم ، خلال حياته الحافلة ..

وعندئذ فقط ، أدرك (مبروك) بك الموقف .

وأدرك أنه مات ..

وعرف طبيعة تلك البوابة الضخمة ، التى ينبعث منها لفح اللهب ، والتى سيعبرها مفلسًا ، بعد أن يأخذ منه كل ذى حق حقه ..

والأدهى أن كل هذا سيحدث ..

بلا موكب ..

* * *

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

الفراعنة.. ولعنتهم

(دراسة)

١ ـ أول الغيث ..

● امتدت الصحراء المصرية على مدى البصر ، أمام عينى عالم الآثار البريطانى (هوارد كارتى) ، وهو يجفف ذلك العرق الغزير ، الذى انهمر على جبهته ووجهه ، وهو يقف تحت أشعة الشمس الحارقة ، فى تلك البقعة التى قادته إليها أبحاثه ودراساته ، للبحث عن مقبرة أحد ملوك الفراعنة القدامى ..

كان هذا فى العقد الثانى من القرن العشرين ، عندما بلغت حمى البحث عن الآثار ذروتها ، وخاصة بعد الكشوف الأثرية المدهشة ، التى قام بها الألمانى (هنريش شليمان) ، عندما عثر على بقايا (طروادة) ، فى عام ١٨٧١ م ، فى منطقة (هيسارليك) ، شمال غرب (تركيا) ، فى نفس الموقع الذى حدده (هوميروس) ، فى ملحمته الشهيرة (الإلياذة) ، وسير (آرثر إيفانز) ، الذى كشف قصر التيه فى (كريت) عام ١٩٠٠م ، ليثبت أن أسطورة المينوتوروس لم تكن مجرَّد خيال محض ..

وكان (هوارد كارتر) يحلم باتضمام اسمه يومًا إلى قائمة أولئك الأثريين العباقرة ، الذين حفروا أسماءهم فى تاريخ الكشوف ، بحروف من ذهب ، مما جعله يحتمل الحرارة والرمال الساخنة ، والعرق الذى يلهب عينيه ، طوال عدة أشهر طويلة ، زاره خلالها ممول حملته اللورد (كارنرفون) مرة واحدة ، تركه بعدها للعذاب ، وعاد هو إلى قصره البريطانى العريق ؛ ليتباهى بتمويل أكبر حملة للبحث عن الآثار المصرية ..

حتى جاء شهر فبراير ١٩٢٣م ..

فى ذلك التوقيت ، عثر (هوارد كارتر) على ما كان يبحث عنه طوال الوقت ..

مقبرة الملك الصغير (توت عنخ آمون) ..

لم يكن (كارتر) أثريًا بسيطًا أو مغمورًا ، إذ كان يحيا فى (مصر) ، منذ عام ١٨٩٠م ، للتنقيب عن الآثار ، ورسم المناطق الأثرية المعروفة ..

ولم يكن هذا أيضًا أوَّل كشوفه ؛ إذ كانت له عدة حفائر فى وادى الملوك ، موَّلها بعض المغامرين الأمريكيين ، وأهلته لإصدار كتابه الشهير (خمس سنوات للكشوف الأثرية فى طيبة) ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد انبهر (كارتر) ..

انبهر بما عثر عليه ، وبالكنوز التى رآها فى مقبرة (توت عنخ آمون) ، وببريق الذهب الذى يلتمع فى كل مكان ، حتى إنه أبرق إلى اللورد (كارنرفون) ؛ ليحضر على الفور ، فى حين انشغل هو برسم كل ما يراه داخل المقبرة ..

حتى تلك العبارة ، التى جذبت انتباهه واهتمامه طويلاً ..

عبارة هيروغليفية غير تقليدية ، وجدها محفورة على أحد أبواب المقبرة ، تقول : « سيطوى الموت بجناحيه ، كل من يقلق الملك » ..

أيامها اهتم (كارتر) بالعبارة ، وترجمها ، وسجّلها ..

إلا أنه لم يشعر بالخوف منها أبدًا ..

وبسرعة ، انتشر الخبر ، وقفزت شهرة (هوارد كارتر) إلى الذروة ، فى عالم الباحثين عن الآثار ..

وقفز معه بالتالى اسم اللورد (كارنرفون) .

ومع وصول اللورد المغامر ، الذى اشتهر باهتماماته المتعددة والمثيرة ، راح الصحفيون يتدفقون على المكان كالنمل .

ومع عدسات كاميراتهم ، ظهرت صور الجدران ، والتوابيت ، والتماثيل .. والذهب ، الذى زغلل عيون الجميع ، حتى الحكومة المصرية نفسها ، التى فوجئت ، أو بدا وكأنها فوجئت ، بأن القانون يمنح المكتشف دومًا نصف ما يعثر عليه من آثار مهما بلغت قيمتها ..

وفى حالة (كارتر) ، كانت (مصر) ستفقد كنوزًا لا حصر لها ، وتحفًا أثرية تتجاوز كل ما عرفه العقل ، لو تم تطبيق القانون ..

لذا ، فقد رفضت الحكومة المصرية تطبيق القانون ، ورفضت منح (كارتر) أو (كارنرفون) ولو حلية واحدة ، مما تم العثور عليه فى المقبرة .. بل لقد أحاطتها بحراسة قوية ، واعتبرتها أرضًا مصرية ، لها عليها كل السطوة والسيادة ..

وبالطبع لم يستسلم (كارتر) لهذا ، وقام بتهريب بضع من آثار مقبرة (توت عنخ آمون) إلى (لندن) ، ولكن كل الآثار الثقيلة بقيت ..

ومعها تلك العبارة الرهيبة ..

« سيطوى الموت بجناحيه كل من يقلق الملك » ..

وكان من الممكن أن تبقى العبارة إلى الأبد ، مجرد جملة سجلها كاهن مصرى قديم ، من باب المجاملة ، أو حتى القناعة الشخصية ، على أحد جدران مقبرة أصغر ملوك الفراعنة ..

لولا ما حدث بعد هذا بقليل ..

فبعد شهرين من هذه الضجة تقريبًا ، وقبل أن يفقد اللورد (كارنرفون) زهوة انتصاره ، أو يبتلع مرارة حرمانه من كل هذا الذهب ، جرح الرجل ذقنه جرحًا صغيرًا أثناء الحلاقة ..

وبسرعة لم يستوعبها أحد ، أصيب اللورد البريطانى بحمى غامضة رهيبة ، رفعت درجة حرارته إلى حد الهذيان ، ودفعته إلى الصراخ والعويل طوال الوقت ، وهو يصرخ بأنه فى قلب الجحيم ، وبأن ملوك الفراعنة يحيطون به ، بعد أن جاءوا للانتقام منه ، لأنه فتح مقبرة أصغرهم ، ودنسها بتواجده البشرى غير الطاهر ..

ولفترة قصيرة جدًّا ، واصل اللورد هذيانه وصراخه ، ثم لم يلبث أن أسلم الروح فى الخامس من أبريل ، عام ١٩٢٣م ..

ومع موت اللورد ، فى ريعان قوته ، استعاد بعض الصحفيين تلك العبارة ، المنقوشة على مقبرة الفرعون الصغير ، وانطلقوا ينشرون مقالاتهم عنها وحولها ، ويربطون بينها وبين موت (كارنرفون) ..

وهنا فقط ، ظهر ذلك المصطلح الشهير ، الذى لم يفارق أسماعنا وأذهاننا ، وعقولنا بعدها قط ..

مصطلح (لعنة الفراعنة) ..

وكما يحدث دومًا ، فى كل مرة تنشأ فيها بدعة جديدة ، انتشر المصطلح بسرعة مدهشة ، وراح الكل يرددونه ، ويناقشونه ، ويفحصونه ، ويمحصونه ..

وكما يحدث أيضًا ، انقسم المتابعون ، بين مؤيد ومعارض للفكرة ..

المؤيدون أكدو أن الفراعنة عاشوا عالمًا عجيبًا غريبًا ، ترك لنا الكثير من الغوامض والأسرار ، التى لم يمكننا كشفها بعد ، فليس من المستبعد إذن أن يخلفوا وراءهم لعنة ما ، تصيب كل من يدنس قبورهم ، حتى ولو كان هذا بحجة تحقيق كشوف أثرية جديدة ..

والمعارضون أصروا على أنه لاتوجد ركيزة علمية واحدة ، يمكن أن تؤيد الفكرة ، وأنه من السخافة أن يتردّد أمر كهذا ، لمجرَّد أن ممول حملة (هوارد كارتر) قد لقى مصرعه بحمى غير معروفة ..

وبين هؤلاء وهؤلاء ، وقف (هوارد كارتر) نفسه ، يعلن فى كل المجتمعات ، وكل المحافل العلمية ، أنه لم ولن يؤمن أبدًا بما يسمونه لعنة الفراعنة ؛ لأنه مستكشف قديم ، واجه الأمر عشرات المرات ، دون أن يصيبه مكروه واحد .. والمدهش أن هذا لم يقنع أحدًا ،

خاصة وأن حالات الوفايات ، والموت بأسباب غير معروفة ، راحت تنتشر على نحو ملفت للأنظار ، بين كل من كانت له علاقة مباشرة ، أو غير مباشرة ، بكشف مقبرة (توت عنخ آمون) ..

وعندما هل عام ١٩٢٩م ، كان عدد من وافتهم المنية منهم ، لأسباب غير واضحة ، اثنين وعشرين رجلاً ..

وفى العام نفسه ، وفى جلسة خاصة ، أعلنت زوجة (كارنرفون) أنها أيضًا لاتؤمن بلعنة الفراعنة ، ولاتصدق أن الموتى يمكنهم قتل الأحياء ، بأية وسيلة كانت ..

وكان من الممكن أن ينهى تصريحها هذا القضية ويحسمها ، لولا تطوّر مفاجئ ، لم يكن فى الحسبان أبدًا ..

فقبل أن يكتمل الأسبوع ، أصيبت زوجة (كارنرفون) بالحمى الغامضة نفسها ، التى أصيب بها زوجها ؛ وراحت تهذى وتصرخ ليومين تقريبًا ، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على فراشها ، تاركة خلفها أكبر موجة من الرعب ، عرفها التاريخ الحديث ، حتى تلك الفترة ..

رعب لعنة الفراعنة ..

ولفترة طويلة ، لم يعد هناك حديث للصحافة ووسائل الإعلام ، سوى الفراعنة .. ولعنة الفراعنة ..

وظهرت فى الأسواق كتب ، ودراسات ، وروايات ، وحتى أفلام سينمائية صامتة ، تدور كلها حول لعنة الفراعنة ..

ومن بين تلك الكتب ، ظهر كتاب يحمل للمهتمين بالأمر مفاجأة مثيرة للغاية ..

مفاجأة تقول : إن لعنة الفراعنة لم تبدأ مع فتح مقبرة (توت عنخ آمون) ، بل كانت هناك قبل هذا بقرن من الزمان على الأقل ..

ولقد ارتبطت فعليًا باثنين من مشاهير العلم ..

أو ربما أشهرهم ..

على الإطلاق .

* * *

٢ ـ لعنة المشاهير ..

● ذات صباح دافئ ، من شتاء عام ١٧٩٩م ، وبمصادفة رتبها القدر حتمًا ، أثناء الحملة الفرنسية على (مصر) ، عثر جندى فرنسى على حجر فى مدينة (رشيد) المصرية ، يعتبره علماء الآثار ، حتى يومنا هذا ، أعظم كشوف القرن على الإطلاق ..

فذلك الحجر ، الذى أطلقوا عليه اسم (حجر رشيد) ، والذى هو من مادة البازلت ، كان يحوى كتابات بثلاث لغات .. اليونانية القديمة ، والقبطية أو الديموطيقية ، والهيرغليفية ..

وتعود الأهمية الأثرية البالغة لهذا الحجر ، إلى أنه حتى كشفه ، كانت الهيروغليفية ، بالنسبة للعالم كله ، مجرد نقوش منظمة ، يسعى العلماء لاستنتاج أو استنباط ما تعنيه ، دون أن يتمكنوا من حل رموزها ، أو تحديد منطوقها ، بأى حال من الأحوال .. وعندما تم كشف (حجر رشيد) ، وجد الأثريون أن الكتابة اليونانية ، هى ترجمة أمينة ودقيقة للكتابة الديموطيقية ، الموجودة على وجه آخر منه ..

وكان هذا يعنى ، من باب المنطق ، أن الكتابة الهيروغليفية ، هى أيضًا ترجمة أمينة ودقيقة للنص نفسه ..

وعلى الرغم من أن وسائل الاتصال كانت ضعيفة للغاية ، فى

نلك الزمن ، مقارنة لما أصبحت عليه ، بعد قرن واحد من الزمان ، وليس فى عصرنا الحالى بالطبع ، والذى حدث فيه تطور مدهش ، فى نظم ووسائل الاتصال فى الفترة بين مقدمة المقال ، وهذه السطور ، فقد طار الخبر إلى (أوروبا) كلها ، فانتعش علماؤها ، والتهب حماسهم ، والتهبت عقولهم ، وهم يجدون أمامهم فرصة نادرة ، لكشف أسرار وغوامض اللغة الهيروغليفية ، مع كل ما قد يحمله هذا من كشف لتاريخ (مصر) القديمة ، وفراعنتها ، وعلومها ، وأسرارها الخفية ، التى لم يصل العلم الحديث ، إلى بعضها ، حتى لحظتنا هذه ..

ولأن (نابليون بونابرت) ، الذى كانت حملته تحتل (مصر) ، فى ذلك الحين ، كان مغرمًا بالعلم والعلوم ، ويرغب دومًا فى أن يرتبط عصره بالكشوف العظيمة ، فى كل المجالات ، فقد سارع بنقل الحجر إلى (باريس) ، حتى تتم دراسته ، على أيدى الخبراء هناك ..

وبكل شغف ولهفة الدنيا ، أقبل العلماء على فحص الحجر ، وتدوين ما عليه من كتابات ونقوش ، ثم راحوا يدرسون ، ويفحصون ، ويمحصون ، و ....

وييئسون أيضًا ..

فالأمر لم يكن أبدًا بالسهولة ، التى أوحى بها الأمر منذ البداية ..

فلا أحد منهم كان يعلم من أين يبدأ الترجمة !!

أمن اليمين ، أم من أعلى ، أو أسفل ..

ولسنوات وسنوات ، وعلى الرغم من كل ما بذله العلماء من جهد ، فقد فشلت كل محاولاتهم لترجمة اللغة الهيروغليفية ، وكشف أسرارها ..

حتى جاء (شامبليون) ..

كان (جان فرانسوا شامبليون) من العلماء الشبان ، الذين عشقوا الحضارة الفرعونية ، منذ نعومة أظافرهم ، والذين جذبهم بشدة (حجر راشيد) ، وكل ما يمكن أن يمنحه من كشوف هائلة ، لذا فقد اتخذ قرارًا جريئًا ، بأن يتفرغ تمامًا لمهمة فحصه ، وترجمته ، وكشف أسرار اللغة الهيروغليفية ، التى ستساعد العالم كله على الإطلال من نافذة هائلة ، على حضارة تعد الأعظم ، بين كل الحضارات ، التى شهدت العالم القديم ..

ولقد بدأ (شامبليون) مهمته ، وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وتفرغ لها تمامًا ، وراح يوصل الليل بالنهار ، بحثًا عن طرف خيط ، يمكن أن يقوده إلى حل اللغز ..

ثم ، وعلى خلاف الآخرين ، لاحظ (شامبليون) أن عدد أسماء الملوك ، فى النصين اليونانى والديموطيقى ، يتطابق تمامًا مع عدد الخراطيش ، فى النص الهيروغليفى ، لذا فقد استنتج من هذا أن الخراطيش تحوى داخلها أسماء الملوك ..

ومن هنا ، انطلق (شامبليون) ..

وبحسبة بسيطة ، حدَّد أسماء الملوك ، فى النص الهيروغليفى ، وترجمها ، وسجل حروفها ، وانطلق منها إلى باقى النص ..

وبعد أحد عشر عامًا ، وفى عام ١٨١٦م ، توصل (شامبليون) إلى أعظم كشوف الزمان ، فى علم الآثار والتاريخ القديم ، وحل رموز اللغة الهيروغليفية ..

وفتح أنظار العالم كله على الفراعنة ..

وعلى دنيا الفراعنة ..

وفى ليلة وضحاها ، أصبح (شامبليون) أعظم علماء عصره ، وهو بعد فى الثانية والثلاثين من عمره ، وأحاطت به الشهرة من كل جانب ، وتحوَّل إلى خبير فى لغة الفراعنة ، و .....

وفجأة ، تفجرت فى وجهه اللعنة ..

فعلى حين غرة ، ودون أسباب واضحة ، أصيب (شامبليون) بشلل رباعى ، وحمى غامضة ، وراح يهذى ويرتجف ، ثم لم يلبث أن قضى نحبه ، تاركًا خلفه من يروى هلاوسه الأخيرة ..

وبالمصادفة ، كانت كلها عن الفراعنة ..

وانتقام الفراعنة ..

كان هذا عام ١٩٣٢م ، كما يروى لنا ذلك الكتاب ، الذى تحدَّث عن تاريخ لعنة الفراعنة ، السابق لاكتشاف مقبرة (توت عنخ آمون) ..

ولا يكتفى الكتاب بربط أشهر عالم آثار بتلك اللعنة الوهمية ، وإنما يسبح معنا إلى أبعد من هذا ..

إلى (تيودور بلهارز) ، أستاذ علم التشريح المرضى ، مكتشف أشهر مرض يصيب المصريين ، منذ أيام الفراعنة ..

البلهارزيا ..

ويقول الكتاب أن (تيودور بلهارز) قد قضى شطرًا طويلاً ، فى حياته القصيرة ، يطارد تلك الدودة القاتلة ، التى تخترق أجساد المصريين ، وتستقر فى أكبادهم ، وتدمرهم تدميرًا بطيئًا منتظمًا ، وتسلبهم نشاطهم وحيويتهم ..

ثم حياتهم فيما بعد ..

وبعد تلك السنوات ، خطرت فى ذهن (بلهارز) فكرة عجيبة ..

ترى متى بدأت (البلهارزيا) حربها مع المصريين ؟!

وفى سبيل إجابة السؤال ، لجأ (بلهارز) إلى أمر لم يخطر ببال أحدٍ سواه قط ، إذ انتقل بأبحاثه من الموتى المصابين بالمرض ، إلى مومياوات الفراعنة القدامى ، وبالذات تلك الخاصة بالعمال والمزارعين ، الذين تدفعهم ظروف عملهم للخوض فى مياه النيل طوال الوقت ..

أيامها ، لم يكن للآثار قيمتها الحالية ، ولم تكن هناك تشريعات قوية ، لحمايتها والحفاظ عليها ، لذا كان من الممكن أن يبتاع (بلهارز) بعض المومياوات ، التى يتم العثور عليها فى الجنوب ، أثناء أعمال الحفر والبناء ، وأن يجرى عليها ، تجاربه ..

وكان هذا يعنى بالطبع نبش قبور القدامى ، واستخرج مومياواتهم ، بل وتشريحها والتمثيل بها أيضًا ..

ولقد نجحت تجارب (تيودور بلهارز) إلى حد كبير ، إذ أثبت بالفعل أن المصريين القدامى أصابتهم (البلهارزيا) ، منذ آلاف السنين ، بل وعثر على بعض الديدان المحنطة داخلهم بالفعل ..

ولكن فجأة ، وقبل أن يسجل (بلهارز) تجاربه رسميًا وعلميًا ، أصابته حمى مجهولة ..

حمى لاتشبه التيفوئيد ، أو أية حمى معروفة أخرى ..

ومع الحمى ، التى لم يتم تشخيصها أو علاجها بالطبع ، راح (بلهارز) يهذى ، ويصرخ ، وتراوده هلاوس عجيبة ، حول المومياوات ، التى قام بتشريحها ، والتى بدت له وكأنها قد عادت إلى الحياة ، لتنتقم من ذلك الذى أقلق راحتها ، ومثّل بها ، و...

ومات (تيودور بلهارز) ، عام ١٨٦٢م ، وهو بعد فى السابعة والثلاثين من عمره ، بتلك الحمى المجهولة ، التى لم يتم تشخيص أعراضها ، حتى يومنا هذا ..

وفى هذه المرحلة ، لايحاول الكتاب وضع تفسيرات عملية أو منطقية ، لما أصاب (شامبليون) أو (بلهارز) ، ربما لأنه شغف بمحاولة تأكيد فكرة لعنة الفراعنة ، بأكثر مما اهتم بتفسيرها ..

ولكن هذا كان دأب الجميع ، فى تلك المرحلة الزمنية ، خاصة وأن الفكرة نفسها بدت جذابة ومثيرة ، إذ أنها ترتبط بعالم الأسرار والأساطير ، وحمى السحر والتنجيم والغموض ..

ودون أية دلائل علمية أو تاريخية ، أعقبت ذلك الكتاب عدة كتب أخرى ، تنسب موت عشرات المشاهير إلى لعنة الفراعنة ، التى صارت صرعة النصف الأول من القرن العشرين ..

حتى (يوليوس قيصر) نفسه ، ادعوا أن لعنة الفراعنة قد طاردته ، وأصابت عقله بحمى جنونية ، دفعته إلى تلك الأفعال الديكتاتورية ، التى انتهت بمقتله واغتياله ، على يد مجموعة من المقربين له ، وعلى رأسهم ربيبه (بروتس) ..

وأصيب الناس بالضجر والملل ، من هذه الكتب السخيفة ، وقرّروا تجاهلها فجأة ، فانخفضت مبيعاتها إلى حد كبير ، وبدا وكأن لعبة لعنة الفراعنة هذه قد بلغت نهايتها ، و ....

وفجأة ، ظهر كتاب جديد فى الأسواق ..

كتاب قلب كل الموازين ، رأسًا على عقب ..

وبمنتهى العنف .

* * *

٣ـ تايتانيك ..

● فى صيف ١٩٨٥م، وبعد أشهر من البحث، استقل البروفيسير (روبرت بولارد)، المتخصص فى تصوير الأعماق الغوّاصة العيلة (ألفن)، والمجهزة للغوص حتى مسافة ١٣ ألف قدم، تحت سطح المحيط، لاستكمال مشروع البحث عن حطام سفينة، غرقت منذ ثلاثة وسبعين عامًا تقريبًا ..

كانت الغوّاصة (ألفن) مزوّدة بإنسان آلى صغير، يكمن فى تجويف خاص فى مقدمتها، ويمكن إطلاقه بوساطة قائدها، إلى مسافات تعجز الغوّاصة عن بلوغها، فى أعمق الأعماق ..

وعبر كاميرا صغيرة، فى مقدمة الآلى (أرجو)، راح البروفيسير (بولارد) يتلقى عشرات الصور، لأعماق المحيط الأطلنطى، فيفحصها ويراجعها بمنتهى الدقة، دون أن يعثر فيها على أدنى أثر لما يبحث عنه ..

ثم فجأة، بدأ (أرجو) يرسل مجموعة من الصور الإيجابية ..

صور لم تكن واضحة فى البداية، إلا أنها لم تلبث أن اتضحت رويدًا رويدًا، وأصبحت جلية نقية، على نحو انتفض به قلب (بولارد) بين ضلوعه، وتفجّر معه الحماس فى قلوب كل رجل من رجال بعثته الصغيرة ..

هذا لأن (أرجو) قد عثر أخيرًا على السفينة موضع البحث ..

والأهم، أنها لم تكن سفينة عادية ..

بل كانت أشهر سفينة غارقة، فى التاريخ الحديث كله ..

كانت (تايتانيك) ..

و(تايتانيك) هذه كانت سفينة عظيمة هائلة، تعتبر طفرة تاريخية فى تاريخ صناعة وبناء السفن، إذا أنها أضخم سفينة ركاب شهدها العالم، حتى تاريخها، فقد بلغ وزنها ٥٢٣١٠ طنًا، وبلغ طولها ٨٨٢ قدمًا، وعرضها ٩٤ قدمًا فى المتوسط، كما أن ارتفاعها كان يبلغ ارتفاع مبنى من أحد عشر طابقًا ..

حتى اسمها، كان يعنى المارد ..

ولم تكتف (تايتانيك) بالضخامة وإنما أضافت إليها الفخامة المفرطة أيضًا، والتى لم تعرفها سفينة ركاب من قبل، وبالذات فى درجتها الأولى، ذات حجرات النوم الهولندية، وقاعات الطعام الكبيرة، والصالونات الفاخرة، والشرفات الضخمة ..

وعندما تم الإعلان عن تدشين (تايتانيك)، تسابق كبار الأثرياء والتجار لحجز أماكنهم عليها؛ للفوز بأولى رحلاتها، التى ستعبر خلالها المحيط، حتى تصل إلى الشاطئ الأمريكى ..

وفى العاشر من أبريل ١٩١٢م، ترقب العالم بمنتهى اللهفة، رحلة (تايتانيك) الأولى عبر المحيط، وأحيطت تلك الرحلة بدعاية هائلة،

حتى لقد اصطف آلاف الناس ، على رصيف ميناء (كوينستون) فى (إنجلترا) ، بين مودعين ومشاهدين ، لمراقبة السفينة العملاقة ، والانبهار بها ، ومشاهدة انطلاقتها الأولى ، وعلى متنها صفوة الأثرياء ورجال المجتمع ، وفى قاعها مئات من مسافرى الدرجتين ، الثانية والثالثة ..

وانطلقت (تايتانيك) ..

انطلقت تمخر عباب المحيط ، فى زهو وخيلاء ، وصاحبها يُعلن ، فى تعال مغرور ، أن سفينتة من القوة والضخامة ، حتى إن الخالق نفسه ، لا يمكنه أن يغرقها ، والعياذ بالله (عزّ وجلّ) ..

ويا لها من عبارة جاحدة ، متجنية ، مغرورة ، حمقاء .. ففى الرابع عشر من أبريل ، وبعد أربعة أيام فحسب من بدء رحلتها ، وبخطأ ملاحى صغير ، ارتطمت العملاقة (تايتانيك) بجبل جليدى ضخم ، لم يدر أحد ـ حتى هذه اللحظة ـ كيف لم يره قبطانها ومهندسوها وبحارتها ..

وسبحان الله العلى القدير ..

فعلى الرغم من أن السفينة الماردة ، كانت مصممة بحيث يمكن عزل أى قسم يصاب منها ، عن باقى أجزائها ، إلا أن المياه قد غمرتها بسرعة مدهشة ، لم تسمح لمن فيها باتخاذ أية إجراءات وقائية ..

وابتسم القدر فى سخرية ، عندما بدأت (تايتانيك) تواجه ما تصوّر صانعوها أنه مستحيل !!

الغرق ..

وطوال اثنتى عشرة ساعة كاملة ، وبكمٍّ هائل من الرعب ، واضطراب ماله حدود ، راحت (تايتانيك) تغرق .. وتغرق .. وتغرق ..

وفى يوم ١٥ أبريل ١٩١٢م ، اختفت (تايتانيك) تمامًا ، فى قاع المحيط الأطلنطى ..

وكان يمكن ألا نربط بين غرقها ولعنة الفراعنة ، بأى حال من الأحوال ، لولا ما نشره أحد الناجين منها فيما بعد ، مع روايته كشاهد على عملية غرق أشهر سفينة فى التاريخ ..

ففى شهادته ، أشار الرجل بشكل عابر ، إلى أن مخزن بضائع السفينة كان يضم تابوتًا لكاهنة فرعونية ، ارتبط وجوده بأحداث مخيفة رهيبة ، قبل أن يغرق مع كل ما غرق ومن غرق مع (تايتانيك) ..

فمنذ تم وضع التابوت فى مخزن البضائع ، فى قاع (تايتانيك) ، كان عمال المخزن يرون ويسمعون ما أصابهم بالرعب ، وجعلهم يطالبون بإعفائهم من العمل ، أو نقلهم إلى وظيفة أخرى ، حتى ولو تم تخفيض رواتبهم ، أو مضاعفة جهدهم ..

فما أن يحل الليل ، حتى يسمعوا تأوُّهات الكاهنة ، ويرون شبحها ، و....

والواقع أننى شخصيًا لا أصدق حرفًا واحدًا من كل هذا ، بل وأشعر معه بالكثير من الخيال والتدليس ، خاصة وأنه ليس من السهل أن تتواجد امرأةٌ فى عالم الكهنة ، فى (مصر) الفرعونية ..

ثم إن أحدًا لم يعثر على ذلك التابوت المزعوم قط ، بعد العثور على حطام (تايتانيك) ، وكل ما كان على سطحها تقريبًا ..

إلا أن القصة تجد صدى كبيرًا ، لدى كل المتابعين لأسطورة لعنة الفراعنة ، وكل من يسعى لإثبات صحتها أو عدمها ، حتى إنك ستجدها فى عشرات الكتب والمراجع ، الخاصة بهذا الأمر ..

وعندما تم سؤال البروفيسير (روبرت بولارد) عن قصة تابوت الكاهنة هذه ، جاءت إجابته غامضة للغاية ، إذ أنه لم يؤكد وجوده ، كما لم يؤكد فى الوقت ذاته العثور على عشرات الأشياء الأخرى ، ولكنه لم ينف فكرة تواجده تمامًا ، وإنما أشار إلى أن عشرات السنين ، التى قضتها (تايتانيك) ، فى قاع المحيط الأطلنطى ، كانت كافية تمامًا لتحلل وفساد واختفاء الأشياء ، من سطحها ، وقاعها ، ومخزن بضائعها بالطبع ..

وجواب البروفيسير (بولارد) منطقى تمامًا ، فالتابوت كان مصنوعًا من الخشب ، وليس من الحجر ، والمومياء ستتلف حتمًا ، وسط المياه المالحة ، وربما تلتهمها الأسماك أيضًا ..

أو أن هناك تفسيرًا آخر ..

ففور الإعلان عن العثور على حطام السفينة العملاقة ، تسابق مئات من هواة التحف والأثريات ، لحجز وشراء أى شىء ، تم العثور عليه داخلها ..

وهناك شائعة قوية ، تقول : إن أحد كبار الأثرياء الأمريكيين قد ابتاع التابوت سرًا ، وبداخله مومياء الكاهنة بالطبع ، خشية أن يطالب به متحف (نيويورك) رسميًا ، نظرًا لأنه كان مشحونًا لحسابه ، بالفعل ، عندما غرقت (تايتانيك) ..

ولكنها تبقى مجرد شائعة ..

تمامًا ككل ما يرتبط بتلك اللعنة الوهمية المزعومة ..

فمن المدهش أنه ، وعلى الرغم من انتشار المصطلح ، ومن آلاف القصص والروايات ، وأفلام السينما ، والكتب التى دارت حوله ، إلا أنه لا توجد قصة دقيقة واحدة ، أو حتى رسالة علمية منطقية ، حاولت بحث الأمر ..

كل ما حدث هو عملية رصد دقيقة لحالات الوفيات ، بين معظم من عملوا فى مجال البحث عن الآثار الفرعونية ..

والعجيب أن أحدًا لم يتحدث عن أية لعنة ، تصيب الباحثين عن الآثار الرومانية ، أو اليونانية ، أو الآشورية ، أو حتى حضارات الأنكا ، فى (أمريكا) الجنوبية .. فقد ارتبطت اللعنة بالآثار الفرعونية ..

وبالذين سعوا خلف الآثار الفرعونية ..

الرحالة الشهير (بلزونى) مثلاً ، جاب العالم ، بحثًا عن الآثار ، فى مختلف البلدان ، وحقق انتصارات مدهشة ومثيرة ، دون أن يصيبه مكروه ..

ثم جاء إلى (مصر) ، وبدأ ينبش قبور الفراعنة ، ونقل قاعدة تمثال (آمون) من (الأقصر) ، وانتشل مسلة من قاع النيل ، وأجرى أبحاثًا طويلة عن هرم (خوفو) ، بحثًا عن مدخله ، واقتحم المقابر ، والمعابد ، واستخرج الجثث ، والمومياوات ، والعظام ..

ثم فجأة ، أصابه ذلك المرض الغامض ، الذى أصاب معظم علماء الآثار ، فسيطرت عليه حمى لاهبة ، وأصابه الهذيان ، وطاردته الهلاوس ، حتى لقى حتفه ، فى مساء الثالث من ديسمبر ، عام ١٨٢٣م ، وهو بعد فى الخامسة والأربعين من عمره ..

نفس الحمى .. ونفس النهاية ..

ولأن حالات الموت متشابهة دومًا ، فى كل من أصابته لعنة الفراعنة المزعومة ، فقد جذب هذا انتباه واهتمام البروفيسير الألمانى (فيليب فاندنبرج) ، والذى خرج إلينا بتفسير جديد للعنة الفراعنة ..

تفسير علمى .. ولأول مرة .

* * *

٤ـ وتحدث العلم ..

● عبر السنوات الطويلة ، التى تردَّد خلالها مصطلح (لعنة الفراعنة) ، كانت معظم الكتب والدراسات ، الخاصة بها ، تقتصر على تسجيل ورصد الحالات ، التى ارتبطت بالتنقيب عن آثار فرعونية ، والتى لاقت مصيرًا غامضًا ، وعانت من حمى غامضة مجهوله ، تنتهى عادة بالوفاة ..

ثم جاء كتاب البروفيسير الألمانى (فيليب فاندنبرج) ..

وكتاب (فاندنبرج) يعد موسوعة علمية متكاملة ، عن (لعنة الفراعنة) ، ومحاولة شديدة الجرأة ؛ للبحث عن تفسير علمى لها ، من خلال مختلف اتجاهات العلم ، بدءًا من الكيمياء ، ووصولاً إلى الإشعاعات النووية ..

ولقد اهتم (فاندنبرج) كثيرًا بتسجيل معظم الحالات ، التى أصابتها (لعنة الفراعنة) ، من وجهة نظره ، ثم توقف طويلاً عند تلك الحمى ، التى أصيب بها معظم الحالات ، والتى أدت إلى الهذيان والهلوسة ، ثم الموت فيما بعد ..

ومن هنا ، وضع العالم الألمانى نظريته ..

ونظرية (فاندنبرج) تربط لعنة الفراعنة بثلاثة احتمالات علمية ، تبدو فى جانب منها منطقية ومعقولة ، إلى حد كبير ..

الاحتمال الأوَّل هو أن تحوى مقابر الفراعنة ، وملوكهم على وجه الخصوص ، غازات سامة ، أو عقاقير وأتربة بطيئة المفعول ، من ابتكار الكهنة ، الذين أخفوا دومًا علومهم عن العامة ، وإن تركوا لنا دلائلها ، من خلال سر التحنيط ، الذى حار فيه علماء الكيمياء ، حتى يومنا هذا ..

ومن وجهة نظر العالم الألمانى ، أن الكهنة قد ابتكروا نوعًا من السموم شديدة البطء ، أشبه بعقاقير الهلوسة ، ومزجوها بأتربة المقابر الخاصة بالملوك ، كوسيلة لعقاب كل من تسول له نفسه نبشها أو سرقتها ..

وربما كانت تلك العقاقير أكثر تأثيرًا فى الماضى ، وأسرع مفعولاً ، إلا أن خواصها قد تغيرت تمامًا ، عبر آلاف السنين من التخزين ، ولكنها ، وفى كل الأحوال ، تترك أثرها فى دماء كل من يقتحم المقابر الفرعونية ، ويستنشق ترابها ، ثم يبدأ تأثيرها بعد عدة سنوات ، على شكل حمى ، وهذيان وهلوسة ..

والاحتمال قد يبدو منطقيًا للوهلة الأولى ، إلا أن قليلاً من التفكير فيه ، يجعلنا ندرك عقمه تمامًا ، إذ أن العلم قد قطع شوطًا ضخمًا ، فى السنوات العشر الأخيرة ، وأصبح من السهل تحليل أتربة المقابر ، ومعرفة كل ما تحويه ، بل إنه هناك مراكز متخصصة لأبحاث التربة ، يمكنها تحديد مكونات أية عينة من الأتربة بمنتهى الدقة ..

وبمنتهى السرعة أيضًا ..

والكشوف الأثرية مازالت مستمرة ، ولم تتوقَّف حتى الآن ، ولو أن احتمال السموم بطيئة المفعول هذا وارد ، لتوصل إليه العلم الحديث فورًا ..

ولكن (فاندنبرج) نشر كتابه فى سبعينات القرن العشرين ، وقبل أن يبلغ العلم هذا الحد ، أو تظهر أجهزة وبرامج الكمبيوتر ، التى قلبت كل الموازين ، رأسًا على عقب ..

ولكن دعونا لا نتوقف طويلاً عند الاحتمال الأوّل ، ولننتقل منه إلى الاحتمال الثانى ، والأقرب إلى المنطق ..

الفيروسات ..

فالبروفيسير الألمانى يفترض أنه كان هناك فيروس قديم ، كامن فى أتربة مقابر ملوك الفراعنة ..

فيروس ساد فى القرون القديمة ، أو استخدمه الكهنة أيضًا ، فى فترة ما ، أو أنهم قد ورثوه من حضارة سابقة !!

وذلك الفيروس ينتقل إلى أجساد من يقتحم المقابر ، ويسرى فى دمه وأنسجته ، ليقضى فيها فترة حضانته ، التى تبلغ سنوات وسنوات ، وترتبط بالقابلية الشخصية للإصابة ، وبقوة مناعة الجسم ، التى تختلف من شخص إلى آخر وعندما يبدا ذلك الفيروس المفترض نشاطه ، يصاب الإنسان بالحمى ، التى تهاجم المخ على الأرجح ، مسببة الهذيان والهلوسة ..

والاحتمال هذه المرة منطقى وعلمى تمامًا ، ويمكننا هضمه واستيعابه ، إلى حد كبير ، وخاصة بعد ظهور فيروس (الإيدز) ، الذى يكمن فى الأجساد لسنوات طويلة بالفعل ، قبل أن تبدأ أعراضه فى الظهور ..

ثم إن فكرة الفيروس هذه تتناسب مع الحمى المخية ، والهذيان ، والهلوسة ، والوفاة أيضًا ..

وكذلك تتفق مع عجز الأطباء عن تشخيص المرض ، فى عصر لم تكن الأبحاث الطبية قد تطوَّرت إلى الحد الكافى ، لكشف مثل هذه الكائنات الدقيقة ، واستيعاب طبيعتها وأعراضها ..

ولكن تعود بنا الخيوط إلى السؤال الأوّل ..

لماذا لم يعد ذلك الفيروس يظهر ، فى الكشوف العلمية والأتربة الحديثة ؟! هذا السؤال نتركه للبروفيسير الألمانى ، ونتركه لعقولنا ، تدرسه ، وتناقشه ، وتحلله ..

ثم تتوصل إلى نتائجه ..

أما نحن ، فسننتقل إلى الاحتمال الثالث ، فى نظرية (فاندنبرج) ..

والاحتمال الثالث مدهش ، ومثير للحيرة ، ولست أدرى حتى كيف وضعه العالم الجليل ، ولكن يبدو أن إيمانه بالفراعنة كان يتجاوز كل الحدود ..

فذلك الاحتمال ، هو أن ترتبط (لعنة الفراعنة) بنشاط إشعاعى ذرى ، ظل مختزنًا داخل مقابر الملوك لآلاف السنين ، لينطلق فى وجه كل من ينبشها وربما يتفق هذا الاحتمال مع بُعد التأثير ، ومع أعراض الحمى والهلوسة والهذيان ، والموت فى نهاية المطاف ، كما يتفق أيضًا مع عجز الأطباء القدامى عن تشخيص الحالات ، وحيرتهم فى مواجهتها ، إلا أنها تضعنا أمام احتمال جديد ، يبدو أكثر خيالاً من كل ما سبقه ..

احتمال أن الفراعنة كانت لديهم معرفة دقيقة بالنشاطات الإشعاعية .. وهذا أمر غير مقبول على الإطلاق ..

حتى لو افترضنا أنهم قد توصلوا إلى تراب اليورانيوم مثلاً ، وأن الكهنة قد أدركوا أنه يختلف عن التراب العادى ، وأن له تأثيرات فتاكه على كل من يلمسه أو يستنشقه ، فسنتساءل بدورها ، كيف أمكنهم اتقاء تأثيره عليهم ، دون أن تكون عندهم أبحاث ، ودراسات ، ووسائل مقاومة ؟!

ولو افترضنا أن هذا قد حدث بالمصادفة ، ودون وعى منهم ، وأن بعض المواد ، الداخلة فى مساحيق التحنيط ، كانت مواد مشعة فتاكة ، فأين ذهبت هذه المواد ، ولماذا غاب تأثيرها ، واختفت من المقابر ، على الرغم من أنها قد بقيت لآلاف السنين ؟!

ثم لماذا تواجدت فى الكشوف القديمة ، ولم تتواجد فى الكشوف الحديثة ؟! كل هذا ينبغى أن يقودنا إلى نتيجة واحدة لا غير ، مع جزيل احترامنا للبروفسير (فاتدنبرج) ، وشهرته ، وعلمه الغزير ..

يقودنا إلى إنه لا وجود لما يسمى بـ (لعنة الفراعنة) !

ربما كانت هناك حوادث عديدة ، ترتبط بكل من نقب عن الآثار ، فى أزمنه انخفضت فيها درجة الوعى الصحى ، إلا أن هذا لا يعنى وجود لعنة أسطورية ، صالحة لخيال الكتاب والسينمائيين ، ولكنها غير قادرة على إقناع أى صاحب عقلية علمية أو منطقية ..

وهنا ينبغى أن أضم صوتى لكل الأصوات ، التى ترفض ، وبشدة ، فكرة (لعنة الفراعنة) هذه ، والتى تستنكر حتى ترديد المصطلح ، أو حتى مناقشة احتمالات صحته ..

وأهم ما ينبغى معرفته ، فى هذا الشأن ، هو أن أكثر من هاجم الفكرة ، وحارب لإثبات زيفها وحمقها هو الشخص الذى ارتبط اسمه بمنشئها ، منذ أول مرة ظهر فيها المصطلح ..

(هوارد كارتر) شخصيًا ..

فمع شغف الناس بالحديث عن الأمر وترديده ، كتب (كارتر) عددًا كبيرًا من المقالات ، وألقى مئات المحاضرات ، واشترك فى عشرات الندوات ، ليهاجم الفكرة ، ويؤكد أنها مجموعة من المصادفات السخيفة ، بدليل أنه أول من دخل مقبرة (توت عنخ آمون) ، أو أول من رصد ما بداخلها ، لو شئنا الدقة ، ولم تصبه أية أعراض ، يمكن أن ترتبط بالمصطلح ..

لا ألم ، أو حمى ، أو هذيان ، أو هلوسة ..

ولقد عاش (كارتر) حتى عام ١٩٣٩م ، فى صحة جيِّدة ، ودون أن يعانى سوى من الأعراض الطبيعية للتقدم فى العمر ، حتى مات ميتة عادية فى فراشه ، وهو يواصل إنكاره واستنكاره لفكرة (لعنة الفراعنة) ..

ولكن العجيب والمدهش أن أحدًا لم يستمع إليه ..

هذا لأن الفكرة ، بما تحويه من أسطورة وغيبيات ، قد استهوت الناس ، فى كل أنحاء العالم ، وأصبحت مادة تجارية رابحة ، ووسيلة لترويج مئات الكتب ، والروايات ، والدراسات ، وأفلام السينما ..

وهكذا أغلقنا جميعًا باب العقل والمنطق ، وغرقنا حتى النخاع فى هلاوس وخزعبلات وخرافات ، وروايات لادليل أو أساس لها ..

أو ربما نفعل هذا كجزء من لعنة ، تلازمنا جميعًا بلا هوادة .. لعنة الفراعنة .

* * *

(تمت بحمد الله)

روايات .. للجيب

(خواطر)

« أريد إصدار سلاسل قصصية للشباب .. »

بهذه العبارة ، بدأ الأستاذ (حمدى مصطفى) حديثه معى ، منذ أكثر من عشرين عامًا ، وأنا أجلس لأوّل مرة فى مكتبه فى المطبعة العربية الحديثة ..

كنا نناقش أمورًا خاصة بالرواية الأولى ، التى قدمتها ، بعنوان (أشعة ضاد) .. كان هذا هو الاسم ، الذى اخترته للرواية ، عندما تقدّمت بها للمسابقة ، التى أعلنت عنها المؤسسة ، والاسم الذى عرفها به الأستاذ (حمدى) ، والذى بدأ حواره معى منه ..

كان الاسم يثير انتباهه ، حتى بعد أن أوضحت له أن اختيارى يعود إلى محاولة ربط المستقبل بالعرب ، باعتبار أن لغتهم هى لغة الضاد ..

ولأنه أديب ومفكّر ولماح ، استوعب أستاذى الأمر منذ اللحظة الأولى ، ولكنه أخبرنى أن الاسم ليس تجاريًا ، ولن يجذب القارئ العادى إلى سلسلة جديدة ..

ومن هنا تحوّل الاسم إلى (أشعة الموت) ، وتحوّلت تلك السلسلة الجديدة إلى (ملف المستقبل) ..

وتحوّلت حياتى كلها ، من الطب إلى الأدب ..

وإلى الأبد ..

وطوال صيف كامل ، بدأت عملية ميلاد السلسلة الجديدة ..

وكذلك السلاسل الأخرى ..

فلأننى آخر من تقدَّم إلى المسابقة ، فقد سبقنى الزميل والصديق (شريف شوقى) ، بسلسلة (المكتب رقم ١٩) ، والتى كانت قد قطعت شوطًا أطول ، عندما بدأ العمل فى سلسلتى ..

والواقع أننى فوجئت ، عند لقائى الأوَّل بالأستاذ ، بأن روايتى ستكون الأولى ، من سلسلة روايات ، فكل ما جال بخاطرى ، وأنا أذهب لمقابلته ، هو أنها قصة فائزة فى المسابقة ، وأننى سأحصل على جائزة ، وأعود إلى منزلى ، فى بلدتى (طنطا) ؛ لأواصل حياتى وعملى كطبيب ..

ثم تحدَّث معى الأستاذ عن سلسلة ..

وأدركت الحقيقة ..

وعشقتها من اللحظة الأولى ..

وعشقت العالم كله ..

عالم الأدب ، والطباعة ، والنشر ..

والفكر ..

وبعد شهر تقريبًا ، من لقائنا هذا ، وقبل أن تظهر سلسلة (ملف المستقبل) إلى النور ، برزت فى ذهنى فكرة سلسلة جديدة ، تمثل حلمًا ، طالما راودنى منذ حداثتى ..

حلم استبدال كل ما يقرؤه الشباب ، من روايات أجنبية المنشأ ، عن أبطال فوق العادة ، يحملون قيمًا لا تتناسب مع طبيعتنا ومجتمعاتنا العربية ، ببطل آخر ، يعبِّر عنا ، ويلتزم بقيمنا ، ويقاتل على صفحات رواياته من أجلنا ..

وفى شىء من الحذر ، عرضت الفكرة على أستاذى (حمدى مصطفى) .

وقرأ الأستاذ روايتى الأولى ، التى أعطيت سلسلتها اسم (رجل المستحيل) ..

وبسرعته المعهودة ، اتخذ قراره ..

وأضيفت السلسلة الثالثة إلى المشروع ..

سلسلة (رجل المستحيل) ..

وهنا ، انتبه الأستاذ إلى ضرورة أن تحمل هذه السلاسل كلها اسمًا واحدًا ، يرتبط بها ، ويصنع شخصيتها ، ويعبِّر عن طبيعتها ..

ولم يكن هذا بالأمر السهل ، على الرغم من أننا قد اتفقنا على نقطتين أساسيتين ..

أن يحمل العنوان إيقاعًا جذابًا ..

مع اسم (مصر) ..

وهكذا نشأت (روايات مصرية للجيب) ..

وهكذا انطلقت ..

وانتشرت ..

ونجحت ..

وكلنا نؤمن بأن السبب الأول والرئيسى للنجاح هو توفيق الله (سبحانه وتعالى) ، وبعد هذا العمل المتصل الدءوب ، والاهتمام الشديد بأدق التفاصيل ، والإصرار على مجموعة من القواعد والقيم والمبادئ ، وعلى حتمية الالتزام بها ، وعدم تجاوزها قط ، مهما كانت الأسباب ، ومهما كانت .

فلابد وأن ترتبط (روايات مصرية للجيب) بالأخلاقيات الحميدة ..

واللغة العربية السليمة ..

والموضوعات الجديدة المصرية والعربية ..

دون نقل ..

أو اقتباس ..

أو تجاوز ..

حتى عندما أصدرنا سلسلة روايات رومانسية (زهور) ، حرصنا على أن تكون الروايات الرومانسية الوحيدة ، التى لا يخجل أى أب أو أم ، من وجودها فى منزلهم ..

الرائع أن كل كُتاب (روايات مصرية للجيب) التزموا بهذه القواعد ..

وكذلك قراؤها ..

لهذا ، أشعر بالفخر والاعتزاز دومًا ، لانتمائى إلى (روايات مصرية للجيب) ..

وفى لقاء تليفزيونى أخير ، حول أعمال تليفزيونية وسينمائية قادمة ، فوجئت المنيعة ، عندما أخبرتها أنه مهما كتبت أو أصدرت ، فلن يسجل لى التاريخ فخرًا ، بقدر ما سيسجله ، عبر ما كتبته فى (روايات مصرية للجيب) ..

فالروايات ، التى بدأت بها حياتى كمحترف ، والتى قضيت معها ما يزيد عن عشرين عامًا ، والتى أحمل لها كل هذا الحب ، هى فى الواقع عشقى الأوّل والأخير ..

وفخرى الأوّل والأخير ..

هـذا لأنهـا تحـوى كـل مـا أحببـت وعشـقت ، فـى عمـرى كلـه .

فهى روايات ..

مصرية ..

وللجيب ..

★ ★ ★

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

فوبيا

(دراسة)

١ ـ الـدم ..

● من منا يمكن أن يدّعى ويصدق أنه شخص بلا مخاوف ؟!

علماء النفس يؤكدون أنه ، حتى أشجع وأقوى الرجال ، لا يمكنه أن يدّعى هذا ، ولو فعلها فهو كاذب حتمًا ، وهم يتحدونه أن يجتاز بقوله هذا اختبار جهاز كشف الكذب بنجاح !!

هذا لأنه ما من مخلوق حى بلا مخاوف ..

ففى أعمق أعماق كل منا ، هناك حتمًا خوف ما ، من شىء ما ، من عقولنا ، أو قلوبنا ، أو أى مكان آخر من أجسادنا ..

خوف سجلته عقولنا الباطنة ، فى لحظة ما ، لا تبتعد كثيرًا عن لحظة مولدنا ، واختزنته ، وأخفته فى بقعة مظلمة ، لا تضاء إلا بعامل مساعد ، أو فعل شرطى منعكس ، وعندئذ فقط تسترجع العقول الخفية ذلك الموقف القديم ، وتستعيده ، وتطلقه فى العقل الواعى ، و .....

ونخاف ..

ومخاوف البشر لا حصر لها ، إذ إنها ترتبط بأى شىء وكل شىء ، ويمكن فى بعض الأحيان أن تكمن فى لحظات أو أشياء لا يمكن أن تثير ذرة واحدة من الخوف ، فى نفس أى مخلوق طبيعى ، كملعقة فضية مثلاً ، أو نوع بعينه من السجائر ، أو دقات الساعة ، أو أى أمر آخر ..

وهذا هو العامل المساعد ، الذى يضىء تلك البقعة المظلمة فى أعمق أعماقنا ، ليفجّر خوفنا ، ورعبنا ، وفزعنا ، وهلعنا ، وكل تلك المشاعر ، والذى تطلق عليه القواميس الطبية والعلمية اسم (الفوبيا) ..

و (فوبيا) هو مصطلح لاتينى ، يعنى الخوف من شىء ما ، ويمكن ربطه بكل أنواع المخاوف المعتادة ، وغير المعتادة أيضًا ، وعندما يحدث هذا ، فنحن نشير إلى نوع خاص من الخوف ..

النوع المرضى .. جدًا ..

فالخوف من الأماكن المظلمة أو المغلقة ، هو أمر طبيعى ، عند الكثير من الناس ، ولكنه عند البعض الآخر يتحوّل إلى (فوبيا) ، أو خوف مرضى ، عندما يواجه هؤلاء البعض الموقف بارتعاشات عنيفة ، وعرق غزير ، وأعراض قد تبلغ حد التخشّب ، أو الغيبوبة التامة ، أو حتى الموت ، فى حالات نادرة ومحدودة ..

ومن أشهر تلك المخاوف ، التى يعرفها ملايين البشر ، الخوف من رؤية الدم ، ذلك السائل الحيوى ، الذى يجرى فى عروقنا ، وتخفق به قلوبنا ، وينقّى الهواء فى رئتينا ، مع عشرات الوظائف الأخرى ..

وارتباط الإنسان بالدم ارتباط عجيب للغاية ، فهو يعشقه عندما يجرى فى عروقه ، ويورد وجنتيه ، ويملأ قلبه ويعلن حيويته وقوته ونشاطه ، بل ويسعى دومًا إلى أية أطعمة أو مشروبات ، يقال عنها إنها قادرة على تقويته ، وتنشيطه ، ودفعه أكثر وأكثر فى أوعيته الدموية ، وخلاياه الحية ، وحتى نصف الحية ..

أما لو تدفَّق هذا الدم خارج جسده ، أو حتى خارج أجساد الآخرين ، فهى الطامة الكبرى ، والكارثة ، والمصيبة ، ومصدر الرعب والهلع ، و .....

و (الفوبيا) أيضًا فى بعض الأحيان ..

فالعديد من البشر لا يمكنهم رؤية الدم البشرى ، أو حتى الحيوانى ، دون أن ترتجف أجسادهم ، وترتعد خلاياهم ، وتسرى فى كيانهم قشعريرة باردة كالثلج ، وتتسع عيونهم فى هلع ..

وبعض البشر قد يصرخ لمرأى الدم ، أو يفقد الوعى ، أو تنتابه الكوابيس لأسابيع طويلة ، وكأنما رأى وحشًا كاسرًا ..

هذا لأن الدم يرتبط فى أذهاننا جميعًا بالحياة ، وفقدانه يعنى دومًا الموت والفناء ، وعندما يرى المصابون بهذه (الفوبيا) الدماء ، تقفز أذهانهم فورًا إلى تصوّر الموت ..

موتهم هم بالطبع ..

ولأن كل المخلوقات الحية تخشى الموت ، فإن عقولهم الباطنة تدفع فى عقولهم الواعية كل المخاوف المختزنة فيها ، فيبلغ رعبهم ذلك الحد المرضى العنيف للغاية ..

ولا بد أن نستثنى هنا الجراحين ، والجزارين ، وعمال وموظفى بنوك الدم ، وكل من يحتم عليه عمله رؤية الدم طوال الوقت ..

ولكن حتى هؤلاء ، تبقى فى أعماقهم لمحة من خوف الدم ..

وهذا ما أدركه كتاب الرعب ، ومخرجو السينما الغربية ، عندما أغرقونا بسلسلة من الأفلام حول مصاصى الدماء ، الذين ينشطون ليلاً ، ويرقدون فى أعمق أعماق توابيتهم نهارًا ، وينقضّون دومًا على الأوردة العنقية لضحاياهم ، ليغرزوا فيها أنيابهم ، باعتبارها من أكبر وأغزر موارد الدم ، ويمتصون الدماء فى شراهة ونهم ، وحتى تموت الضحية ، التى لا تلبث أن تعود إلى الحياة بعدها ، فى هيئة مصاص دماء جديد ، وهكذا ..

والطريف أن كل هذه الأفلام السينمائية قد بنيت على أحداث تلك الرواية الشهيرة (دراكيولا) للروائى البريطانى (برام ستوكر) ، والتى استوحاها بدوره من سيرة الأمير الرومانى (فلاد يتبيس) ، والذى سفك دماء آلاف من المحتلين ، وعرف باسم (مصاص الدماء) ، وذلك خلال فترة حكمه ، ما بين عامى ١٤٥٦ ، و١٤٦٢م ..

وعندما كتب (ستوكر) روايته ، عام ١٨٩٧م ، لم يكن علم النفس قد تطوّر ، إلى الحد الذى يكفى لتحديد مخاوف الناس بشكل علمى ، إلا أنه كان يدرك ، على نحو فطرى تمامًا ، أن ذكر الدم يثير الرعب فى النفوس ..

كل النفوس ..

ولكن الذى ينبغى أن يثير مخاوفنا أكثر ، هو أن الحالة التى تحدّث عنها (ستوكر) ، والتى أصبحت شهيرة ومعروفة ، فى الأدب والسينما ، لم تعد مُجَرّد خيال محض ، وإنما كشف العلم أن مصاصى الدماء حقيقة ..

حقيقة طبية معروفة ، ومسجَّلة فى عدد كبير من المراجع والكتب !!

فمن بين عناصر الدم ، توجد مادة اسمها (البروفيرين) ، وهى ضرورية لتكوين وتثبيت مادة (الهيموجلوبين) ، اللازمـة لصلاحية الدم ، كمادة لنقل الغذاء والأكسجين إلى خلايا الجسم ، وفى بعض الحالات النادرة ، يحدث نقص شديد فى هذه المادة ، مما يؤدى إلى الإصابة بمرض غاية فى الندرة ، من أمراض الدم ، يسمى (البروفيريا) ..

والمدهش أن المصابين بهذا المرض لهم وجوه شاحبة ، أشبه بوجوه الموتى ، وتطول أنيابهم على نحو واضح ، كما تكون لديهم حساسية مفرطة لضوء الشمس ، ولديهم احتياج دائم للدم ، لتعويض النقص الشديد فى (الهيموجلوبين) فى أجسادهم ..

وفى علم ١٩٨٥م ، كشف طبيب أمريكى ثلاث حالات مصابة بمرض (البروفيريا) فى عائلة واحـدة ، فأعلن عن المـرض ، وعن أن مصاصى الدماء قد يكونون حقيقة وليس خيالاً ..

ومن الطبيعى أن يثير هذا رعب النـاس أكثر وأكثر ، وخوفهم الغريزى من رؤية الدماء ، وبالذات دماؤهم هم ، إذا ما نزفـت من أجسادهم ، لسبب أو لآخر ..

وحالات (الفوبيا) المرضية من الدم لا تعتبر الأعلى ، بيـن حالات (الفوبيا) الأخرى ، ولكنها أوسع انتشارًا وتواجدًا ، فـى معظم الشعوب والجنسيات ، والديانات ..

هذا لأننا جميعًا بشر ، تجرى الدماء فى عروقنا ..

أو خارجها ..

و(فوبيا) الدم هذه ليست كلها من طراز واحد ، فبعضها يرتبط بالدماء البشرية وحدها ، عندما تسيل بغزارة أكثر من المعتاد ، والبعض الآخر يرتبط بأية دماء نازفة ، من أى مخلـوق حى ، لذا فأصحابها لا يتحملون رؤية حيوان يذبح أو طائر ينحر ..

وفى حالات أخرى ، لا يتحمل المريض رؤية قطرة واحدة من الدم ، سواء من بشر ، أو حيوان ، أو طير ، أو حتى حشرة ..

ومع حالات أكثر ندرة ، يصاب المرضى بهلع عنيف ، إذا ما وقعت أبصارهم على أى شىء بلون الدم ، حتى ولـو كان قطعة مـن القماش ، أو بقعة فوق لوحة تجريدية ...

ورد الفعل ، إزاء تلك (الفوبيا) يختلف فى كل حالة عن الأخرى ، ومع كل مريض عن آخر ، ففى واحدة من الحالات النادرة ، أصيب المريض بصدمة عصبية عنيفة ، مع رؤية بركة من الدم ، سالت من مصاب فى حادثة سير ، وانتهى به الأمر إلى أن عقلـه قد استبعد اللون القرمزى الدموى تمامًا ، من كل شىء فى الوجود ..

حتى الألوان ، التى يدخل فى تركيبها اللون القرمـزى ، أصبح ذلك المريض يراها خالية منـه ، فاللون البرتقـالى تحـوّل إلى الأصفر ، والبنفسجى إلى الأزرق ، أما الوردى والقرمزى ، فقد تحولا إلى اللون الأبيض أو الرمادى ..

ولقد احتاج ذلك المريض إلى علاج نفسى طويـل ، قبل أن يتجاوز هذه (الفوبيا) ، ويعود لرؤية لون الدم مرة أخرى ، ولكنـه لم يتخلص من (فوبيا) الدم أبدًا ، على الرغم من المحاولات المتصلة ..

ولقد أجريت دراسات عديدة حول (فوبيا) الدم ، إلا أنها لم تلق اهتمامًا على المستوى العام ، فقد حجبتها تمامًا (فوبيا) أخرى ، يشترك فيها تسعون فى المائة من البشر على الأقل ..

(فوبيا) أكثر انتشارًا ..

بكثير .

* * *

٢ـ قلب الظلام ..

• تخيَّل نفسك فى مكان ما ، لا تألفه جيدًا ، ثم انقطعت الأضواء كلها فجأة ، ووجدت نفسك فى قلب الظلام ..

ظلام دامس رهيب ، يحيط بك من كل جانب ، ويرسم فى خيالك عشرات الصور ، والأوهام ، والمخاوف ، ويرهف حواسك حتّى لتبدو أية حركة بسيطة أشبه بزحف ثعبان سام ، أو انقضاضة خفاش قاتل ، أو فحيح عفريت من الجن ، أو .. أو ..

كل هذا سيصنعه عقلك فى قلب الظلام ، الذى سيجعلك ترتجف ، وترتجف ، وربما إلى درجة الرعب ..

وهنا تكمن (الفوبيا) ..

(فوبيا) الظلام ..

و(فوبيا) الظلام هذه هى أكثر أنواع المخاوف المرضية انتشارًا ، وتعود أسبابها ، فى نظر معظم علماء النفس الأمريكيين ، إلى خوف الإنسان الغريزى من المجهول ..

أى مجهول ..

فمنذ عصور ما قبل التاريخ ، كان الإنسان يدرك أنه محاط بمخاوف لا حصر لها ..

مخـاوف من الأعداء ، والوحوش ، والحيوانـات ، والحشـرات السامة ، وحتى من الطبيعة نفسها ..

ولأنه لم يدر أبدًا من أين تأتيه الضربة ، أصبح يخشى كل من حوله ..

وكل ما حوله ..

ولأن الظلام غـامض ومجهول ، ووسـائله لا تسمح لـه بكشف مـا يحدث داخلـه ، فقد اعتـاد الإنسان القديم أن يخشى الظـلام ، ويخافه ، ويتحاشاه بكل الوسائل الممكنة ..

وربما لهذا ، اخترع الإنسان النار ، لكى يبدّد بوهجها ما يحيط بـه من ظلام ، ويخيف أعداءه ، ويرى طريقه طوال الوقت ..

وعلى الرغم من تطوّر العلم ووسـائل الإنـارة ، احتفظ الإنسـان بخوفه المرضى الموروث من الظلام ، والمجهول ، وكل ما يستغلق عليه معرفته أو فهمه ..

بل ويقول البعض إن تطوّر وسائل الإنارة قد ضاعف من خـوف الإنسان الحديث من الظلام ، فقد اعتاد مع الوقت أن يحيا فى أضواء مبهرة ، تحيط به فى كل لحظـة ، وأن يطوّعهـا ويطوّرهـا بضغطـة زر واحدة ، فيغيّر من شدتها ، وتوهّجها ، وانتشارها ..

ولأنه قد اعتاد هذا ، فما أن يحيط به الظلام ، حتى ينتابه خوف مرضى عنيف ، فيضطرب ويتخبّط ، ويدور حول نفسـه ، وربمـا يبلـغ مرحلة الرعب العنيف أيضًا ..

والواقع أن الحداثة قد أضافت إلى البشر عشرات المخاوف ، التى ترتبط كلها بالظلام ، وخاصة مع موجة أفلام الرعب ، والأشباح ، والعفاريت ، التى ساعدت خياله على أن يتصوّر عشرات الأعداء الوهميين ، الذين يتحفزون للانقضاض عليه ، من كل ركن مظلم ..

ونحن نساهم كثيرًا فى زرع (فوبيا) الظلام ، فى نفوس أبنائنـا وبناتنا ، عندما نروى لهم قصص الجن والعفاريت وغيرها ..

الأمر الطريف ، أن بعض أنواع الحيوانات أيضًا تخشى الظلام ، وتسعى دومًا للتواجد فى أية بقعة من الضوء ، ممـا يوحى بأن هذا الخوف بالذات له أصول فى خلايانا وأدمغتنا ، ونفوسنا كذلك ..

والخوف المرضى من الظلام يتشارك مع خوف آخر ، على نحو متلازم فى كثير من الأحياء ، ومنفصل فـى أحيان أخرى ، وهو الخوف من الأماكن المغلقة ..

وتلازم الخوف من الظلام مع (فوبيا) الأماكن المغلقة يعود أيضًـا إلى خشية الإنسان الشديدة من الموت ، إذ تبدو له الأماكن المغلقة أشبه بالقبر ، فإذا ما أضيف إليها الظلام ، تضاعفت الصور ، وتضخمت ، وبلغت حد الانهيار ..

وفى حالات عديدة ، أصيب أمثال هؤلاء المرضى بجنون مطبق ، بعد بقائهم لخمس ساعات فقط ، فى أماكن مظلمة مغلقـة ، و٩٧٪ منهم أصابهم هذا داخل مصاعد معطلة ، أثناء حالات انقطاع التيار العرضية ..

وهلع المصاعد هو الصورة المثلى ، والأكثر انتشارًا ، لمرضى (فوبيا) الأماكن المغلقة ، فبالنسبة لهذه الفئة ، يعتبر المصعد مجرَّد قبر متحرك ، حتى إنه هناك حالة مسجَّلة لمواطن أمريكى ، ظل طيلة عمره يقيم فى أدوار منخفضة ، أو فى منازل مستقلة ، من طابق أو طابقين على الأكثر ، وكان يرفض العديد من الوظائف الممتازة ، على الرغم من كفاءته الشديدة ؛ لمجرَّد أن الشركات التى تلقى عروضها ، تحتل بعض الطوابق العليا ، فى ناطحات سحاب شاهقة ، وعندما قبل أخيرًا عرضًا لشركة (ميكروسوفت) ، فى فرع لها ، فى الطابق الخامس من بناية كبيرة ، ظل طوال فترة عمله فيها يصعد إلى مكتبه عبر درجات السلم ، ولم يستقل المصعد مرة واحدة ..

وهناك حالة مسجلة أخرى لمريضة شابة ، لم تصعد منفردة فى أى مصعد قط ، حتى إنها كانت تقف إلى جوار أى مصعد لساعات ، حتى يظهر راكب آخر ، لتشعر أنها ليست وحدها داخل مصعد مغلق ..

وحتى فى وجود ركاب آخرين ، كانت تصاب بحالة عجيبة من التخشُّب طوال الوقت ، أثناء صعود أو هبوط المصعد ، وتتسع عيناها فى رعب هائل ، على نحو يوحى بأنها تخوض أشد لحظاتها صعوبة ..

وعلى عكس تلك الحالة تمامًا ، كانت هناك حالة أخرى لامرأة فى منتصف العمر ، ترفض تمامًا أن تستقل المصعد فى وجود آخرين ، على الرغم من خوفها الشديد من الأماكن المغلقة ، ولكنها كانت مصابة بخوف أكثر مرضية ، من الغرباء ..

أى غرباء ..

والخوف من الظلام والأماكن المغلقة ، يقود إلى خوف آخر ، مشابه أو متلازم ، أو ينتمى إلى المجموعة نفسها .. الخوف من البحر ..

أو من أعماق البحر ..

والخوف من البحر ، وأعماق البحر ، ينتمى إلى (فوبيا) ذات مجموعة ضخمة للغاية ، ألا وهى (فوبيا) المجهول ..

أى مجهول ..

فالبحر يمثل لأصحاب هذا المرض مساحة ممتدة إلى مدى البصر ، وأعماق غامضة مريبة ، لا يمكنهم رؤيتها ، أو معرفتها ، أو استنباط ما يدور فيها ، أو ينتشر عبرها ..

وككل مجهول ، يعطى البحر للمرضى بهذه (الفوبيا) شعورًا غامضًا بالخوف وعدم الأمان ، خاصة وأن خيالهم يضخم دومًا كل ما يتلقونه من معلومات عن أعماق البحر ، ويمزج كل هذه المعلومات بمخاوفهم ، بحيث يتصورون طوال الوقت أن وحشًا سينقض عليهم ، أو كائنًا مفترسًا سيلتهمهم ، أو حتى دوَّامة مفاجئة ستبتلعهم ، أو تيارًا قويًا سيسحبهم إلى أعمق الأعماق ، حيث يموتون مختنقين ، على نحو يثير رعبهم ، حتى فى أحلامهم وكوابيسهم ..

والمصابون بهذه (الفوبيا) لا يمارسون رياضة السباحة أو الغوص أبدًا ، بل إن بعضهم قد يتحاشى رؤية أية أفلام سينمائية ، تتحدث عن البحر وأعماقه ، أو قراءة أية رواية من روايات البحر ..

وبعض الحالات الخفيفة ، من (فوبيا) الأعماق ، يتمكن أصحابها من السباحة والغوص ، ولكن فى أحواض السباحة فقط حيث يمكنهم رؤية القاع فى وضوح ، وتحديد كل تفاصيله أو تضاريسه ، قبل المجازفة بالغوص فى أعماقه ..

وفى واحدة من الحالات المسجّلة ، كانت المريضة ترفض وضع قدميها فى أى مسلحة من المياه ، حتى فى حوض الاستحمام المنزلى ، بل إنها كانت ترتجف ارتجافة عنيفة ، لرؤية أى حوض استحمام ، ولو كان فارغًا تمامًا ..

وفى حالة أكثر عنفًا ، كان المريض يرفض تناول ماء الشرب نفسه ، ما لم يكن داخل وعاء شفاف ، يمكنه من رؤية قاعه فى وضوح ..

وهناك حالة نادرة للغاية ، لشاب ولد فى أسرة من الصيادين ، وظل طيلة عمره يخشى مجردّ لمس مياه البحر لقدميه ، وعندما حاول أفراد أسرته تخليصه من هذا الخوف المرضى ، بأسلوبهم البسيط المباشر ، حملوه عنوة ، وألقوه وسط الماء ، على مسافة متر واحد من الشاطئ ، وعلى الرغم من أن عمق المياه هناك ، لم يكن يتجاوز السنتيمترات العشرة ، إلا أن الشاب أصيب بفزع شديد ، وراح يضرب الماء بذراعيه بكل رعب الدنيا ، فى نفس الوقت الذى دفن فيه رأسه فى شبر من الماء ، دون سبب معروف ، على الرغم من محاولة الكل انتشاله ، حتى لقى مصرعه غرقًا ، أمام عيون الجميع !!

ولقد أصيب الكل بالذهول ، وهم يخرجون جثته ، ويضعونها على الشاطئ ، دون أدنى تفسير لما فعله بنفسه ، والذى يتجاوز حدود كل عقل أو منطق ..

ولكن أى عقل ، وأى منطق ، مع (فوبيا) مرضية ؟!

لقد فعلها الشاب ، أيًا كانت الأسباب ، وقتل نفسه فى شبر من المياه ، بسبب رعب هائل بلا حدود ، ملك جوارحه ، وألغى عقله تمامًا ، مع كل حواسه الأخرى ..

رعب (فوبيا) الأعماق ..

وهذا الرعب يرتبط بنوع آخر من (الفوبيا) ..

نوع حيوانى ..

جدًا .

* * *

٣ ـ أنيـاب الخـوف ..

● (الفوبيا) هذه المرة من نوع متميِّز ، ومختلف ، وخاص ..

خاص جدًّا ..

(فوبيا) لها أنياب .. ومخالب ..

(فوبيا)

(فوبيا) الحيوانات ..

وربما يتبادر إلى ذهنك ، مع الوهلة الأولى ، أن هذا النوع من (الفوبيا) ، أو الخوف المرضى ، من الحيوانات ، يقتصر على الحيوانات المفترسة وحدها دون سواها ، حيث ترتبط فى أذهان الناس دومًا بالوحشية ، والعنف ، والدم ، والألم ، والموت أيضًا ..

ولكن الحقيقة تختلف كثيرًا ..

فالمصابون بهذا النوع من (الفوبيا) يصابون بالخوف المرضى ، والفزع ، والرعب ، والهلع ، وكل المشاعر المشابهة الأخرى ، من كل أنواع الحيوانات : المفترسة ، والأليفة ، وحتى الوديعة منها ..

ومن المؤكَّد أنك قد التقيت فى حياتك حتمًا بأحد المصابين بهذه الحالة العجيبة ، وأنك قد رأيت من يصاب برعب بلا حدود ، عند رؤية قط ، أو كلب منزلى ، أو أرنب ، أو حتى حمار ..

وربما ترتبط بعض الحالات بذكرى مؤلمة ، فى فترات الطفولة أو الصبا ، كأن يداعب طفل هرته مثلاً ، فتخدشه بعنف ، مما يولد لديه خوفًا مرضيًّا من القطط طوال العمر ، أو حتى يشاهد كلبًا يعقر شخصًا آخر ، ويرى الآلام الرهيبة التى يعانيها هذا الآخر ، فيخشى الكلاب حتى آخر لحظة فى عمره ..

ولكن هناك حالات أخرى ، لم يجد الأطباء النفسيون فى تاريخها كله ، وحتى تحت تأثير التنويم المغناطيسى ، أى موقف أو حادث يمكن أن يكون السبب فى إصابتها بهذا الخوف المرضى من الحيوانات ..

كل الحيوانات ..

وحالات الخوف من الحيوانات تختلف من مريض إلى آخر ، ككل أنواع (الفوبيا) ، فهناك مريض يصيبه الفزع ، عند رؤية حيوان يجرى هنا أو هناك ، أيًّا كانت نوعيته ، أو كان حجمه ..

وفى حالات أخرى ، لا يرتبط الخوف المرضى إلا بالحيوانات الحية ، ويتلاشى تمامًا أمام أى حيوان ميت ، باعتبار أن موته يعنى انتهاء شروره ، أو ما يمكن أن يسببه من أذى للآخرين ..

وهناك حالة مسجلة عن مريض ، لم يكن باستطاعته أبدًا التطلُّع إلى عينى أى حيوان ، ويتصوَّر دومًا أنه إذا ما التقت عيناه بحيوان ما ، فإن هذا الحيوان سيتحداه ، ويستفزه ، وسينتهز أية فرصة سانحة للانقضاض عليه ، وافتراسه بلا رحمة ..

وهناك حالة أخرى لمريضة ، كان يمكنها أن تتعامل مـع الحيوانـات بكل أنواعها ، لو أنها حبيسة الأقفاص ، أو بعيدة عن متناول يدها ، أما لو لمسها أى حيوان ، فهـى تصرخ ، وتولول ، وتبكـى ، وتنهـار ، وتقضى ساعات وساعات فى غسل ذلك الموضع ، الذى لامسه الحيوان ، حتى إنها ذات مرة أزالت جلد ساعدها وألهبته ، من فرط محاولتها تنظيفه ..

والخوف المرضى من الحيوانات لا يرتبط بقوة المرء أو شجاعته العامة ، فى مواجهة أية مواقف أخرى ، بل هو نوع منفصل تمامًا من المخاوف ، ينمو فى ظروف خاصة ، تختلف دومًا عن الظروف الطبيعية ..

وأكبر مثال لهذا هو حالة (دى لوكا) ..

و(دى لوكا) هذا كان رجلاً ضخم الجثة ، عريض المنكبين ، طويل القامة ، له ملامح غليظة صارمة ، وأطراف كبيرة على نحو مفرط ، بحيث يبدو فى معطفه الداكن أشبه بصورة حية لمسخ (فرانكنشتاين) الشهيرة ..

أما وظيفته ، فكانت القتل !!

نعم .. كان (دى لوكا) قاتلاً محترفًا ، يعمل لحساب (المافيا) الإيطالية فى الثلاثينات ، ويلازم زعماءها ملازمة الظل ، وينفذ أوامرهم بلا مناقشة ، وبلا تردُّد أيضًا ، فيكفى أن يشير أحدهم إلى شخص ما ، حتى يعتبر (دى لوكا) هذا أمرًا بالقتل ، لا بد أن يعمل على تنفيذه بأى ثمن ..

وعلى الرغم من أن ذكاء (دى لوكا) كان محدودًا للغاية ، فـى النواحى الحسابية والاجتماعية ، والعلمية بالطبع ، إلا أنه كان يمتلك ذكاءً وحشيًّا عجيبًا ، فيما يختص بعمليات القتل ، إذ كان يدبرها ، ويخطِّط لها ، وينفذها فى براعة مدهشة ، حتى إن كل وسيلة لحماية الضحية ، لم تكن لتحول بينه وبينها قط ..

ومن الناحية العملية ، كان (دى لوكا) قاتلاً بلا قلب أو مشاعر ، يمكنه أن يكمل مذبحة بشعة ، تسيل لها دماء الأطفال والنساء والشيوخ قبل الرجال ، دون أن يطرف له جفن ، أو تهتز فى جسده شعرة ..

باختصار ، كان كتلة من الغلظة ، والقسوة ، والوحشية ، والقوة إلا لو وقع بصره على ثعبان !

أى ثعبان !

فما إن ير (دى لوكـا) ثعبانًا يزحف أمامه ، حتى ولو داخل قفص من زجاج سميك ، ومضاد للرصاص ، حتى تتسع عيناه عن آخرهما ، ويرتجف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، ويغرقه العرق وكأنما خرج من بحر ، وتتخشَّب أطرافه كالموتى ، ويخفق قلبه بمنتهى العنف ، حتى يكاد يثب من قفصه الصدرى بكل قوته ..

ولقد تم كشف نقطة ضعف (دى لوكا) هذه بالمصادفة البحتة ، عندما خرج لتنفيذ واحدة من عمليات القتل الاحترافية ، ففوجئ بأن الهدف يهوى تربية بعض الثعابين ، فى أقفاص زجاجية ، فى حجرة مكتبه ..

يومها فشل (دى لوكا) تمامًا من المضى ولو خطوة واحدة، داخل المكتب، وتراجع بكل رعب الدنيا، بل وانطلق يعدو عبر شوارع (شيكاغو)، حتى بلغ منزله، فوثب تحت أغطية فراشه، وراح يرتجف حتى صباح اليوم التالى، وذهنه عاجز عن محو صورة الثعابين، وهى تزحف فى نعومة داخل أقفاصها الكبيرة ..

وانتبه الضحية إلى ما حدث ..

انتبه إلى أنه الهدف التالى للمحترف (دى لوكا)، وإلى أن شيطان (المافيا)، كما كانوا يطلقون عليه، مصاب بهلع مرضى من الثعابين؛ بكل أنواعها ..

وفى اليوم التالى مباشرة، تسلَّل بعضهم إلى حجرة (دى لوكا)، وأودعوا فى فراشه وعاءً يحوى عددًا من الأفاعى الصغيرة ..

وعاد (دى لوكا) إلى منزله، وأوى إلى فراشه، ورقد بين الثعابين، ثم انتبه إلى وجودها، و .....

وفى الصباح التالى، عثروا على قاتل (المافيا) القاسى المحترف، ميتًا فى فراشه، وعلى وجهه نظرة رعب هائل، قضى عليه تمامًا، على الرغم من أن الثعابين كلها كانت من النوع البسيط غير السام ..

(دى لوكا) المرعب لم يمت بسم الثعابين إذن، وإنما بسبب خوفه المرضى الرهيب منها فحسب !!

وهناك حالة أخرى لامرأة وحيدة، تعيش فى مزرعة صغيرة، فى جنوب (فرنسا)، مصابة بهلع مرضى من الفئران، حتى إنها كانت تنفق نصف دخلها السنوى على الشركات المتخصصة، فى إبادتهم وطردهم، ومنعهم من التسلُّل إلى منزلها الصغير ..

وعلى الرغم من أن المنزل كان يخلو من أجهزة الإنذار، ونظم الأمن والتأمين المعتادة، فإنه كان يحوى عشرات من أجهزة الموجات فوق الصوتية، التى تدَّعى بعض الشركات قدرتها على طرد الفئران وإبعادها ..

فى كل حجرة، وضعت المرأة جهازين على الأقل من هذه الأجهزة؛ حتى تشعر بالأمان، وتبعد عنها الفئران تمامًا ..

ولكن من عجائب القدر، أن هناك مثلاً قديمًا يقول: «إن من يخشى العفريت يراه»، ولقد تحقَّق هذا المثل بحذافيره، فى حالة هذه المرأة بالذات ..

فذات يوم، أصابتها أزمة قلبية مفاجئة، أعقبتها حالة شلل رباعى، كما أكَّد تقرير الطب الشرعى فيما بعد، ومع سقوطها أرضًا، وعجزها عن الاتصال بأى شخص لمعاونتها، نفد وقود المولدات التى تمد منزلها بالطاقة، فحل الظلام، وتوقَّفت أجهزة طرد الفئران عن العمل، فانطلقت بالعشرات نحو المزرعة، وكأنما تنتقم من فترة الإبعاد الطويلة، وهاجمت العجوز العاجزة فى حجرة نومها، والتهمتها حية، وصراخها يملأ الجو، دون أن يسمعها أحد !!

الصورة تبدو مفزعة للغاية ، وستزعج خيالك طويلاً ، إلا أنها لن تصيبك بالخوف المرضى من الفئران ..

أو ربما تفعل !!

ولكنها فى كل الأحوال واقعة حقيقية ، على الرغم من بشاعتها ..

واقعة ارتبطت بالخوف المرضى من أنواع بعينها من الحيوانات ، مثل الخوف من أسماك القرش ، أو الأخطبوط أو السحالى ، أو الثعابين ..

والخوف من الحيوانات شديد وواسع الانتشار ، وتصاب به النساء بأكثر مما يصاب به الرجال ، وهو يشترك فى مواصفاته وطبيعته مع نوع آخر من (الفوبيا) المرضية ..

نوع أقل شيوعًا ، ولكنه أكثر إثارة للاهتمام والحيرة .

والدهشة أيضًا ..

والدهشة الكبيرة ..

* * *

٤ـ الزحـــف ..

● فى دقة وحسم ، وتنسيق وتنظيم ما لهم من مثيل ، وفى اتجاه واضح معروف ، يزحف دومًا ذلك الجيش الصغير ..

جيش الحشرات ..

وأيًا كانت نوعية تلك الحشرات ، فهى لا تتواجد منفردة أبدًا ، حتى ولو بدا كل منها وحيدًا ، يسعى إلى رزقه فى اتجاه يخصه ..

فالحشرات تتواجد فى مجموعات ، وبأعداد غزيرة ، فى مجتمعات بعينها ، أو فى بيئات تناسب نموها تمامًا ..

وعلى الرغم من أنه لاتوجد إلا أنواع نادرة للغاية فى الحشرات المفترسة للإنسان ، ومن أن حجم أضخم حشرة ، لايمكن أن يقارن بحجم أصغر إنسان ، إلا أن هناك حالات عديدة للخوف المرضى من الحشرات ..

صحيح أنها ليست الأكثر شيوعًا ، بين حالات (الفوبيا) الأخرى ، إلا أنها ليست نادرة أو منعدمة ..

وقبل أن نتحدث عن هذه (الفوبيا) ، لابد وأن نفرق بين أمرين مختلفين تمامًا ، وهما الاشمئزاز أو (القرف) من الحشرات بأنواعها ، والخوف منها ..

فالعديدون منا قد يصيبهم الاشمئزاز من رؤية حشرات بعينها ! ربما لأنها ترتبط فى الأذهان بالقاذورات ، أو الموت والجيفة وغيرها ، بدليل أننا لا نشعر بالاشمئزاز نفسه تجاه الفراشات مثلاً ، نظرًا لألوانها الزاهية الجميلة ..

أما الخوف المرضى ، فهو أمر مختلف تمامًا ..

فكما أوضحنا ، فى حالات (الفوبيا) السابقة ، يصاب المريض بالهلع والرعب والفزع ، إذا ما وقع بصره على سرب من الحشرات ، وبخاصة إذا ما كانت هذه الحشرات بأعداد كبيرة !!

وربما يعود هذا إلى ثقة الإنسان فى أن الحشرات ، على الرغم من صغر وضآلة أحجامها ، يمكنها أن تصبح قوة ضاربة ، إذا ما اتحدت ، وتآزرت ، وانقضت على نحو مثابر ومنظم ..

وهذا صحيح تمامًا ، فالنمل مثلاً يمكن أن يهاجم حشرات أخرى ، تفوقه حجمًا بمائة ضعف فى بعض الأحيان ، ويتآزر للدغها فى مواضع شتى ، حتى تنهار ، وتموت ، ويجعل منها مخزونًا غذائيًا له ..

وهناك عشرات التنبؤات العلمية ، وروايات الخيال العلمى ، التى حاولت تخيل ما يمكن أن يحدث ، إذا ما انقلبت الحشرات على البشر ، وجعلت منه خصمًا ، تقاتله ، وتحاربه ، وتسعى لدحره وهزيمته ..

وفى كل الخيالات والتنبؤات العلمية ، كانت الغلبة دومًا للحشرات ، بأعدادها الهائلة ، وانتشارها فى كل أرجاء الأرض ، وتنوعاتها التى تبلغ مئات الفصائل ، وآلاف الأنواع ..

ومعظمنا لم يقرأ هذه الدراسات العلمية أبدًا ، إلا أن بعضنا يحمل مرضيًا من الحشرات ..

ومن حسن الحظ ، أن (فوبيا) كل أنواع الحشرات حالة شديدة الندرة ، حتى تكاد تكون منعدمة ، إذ إن صاحبها لن يمكنه تفادى كافة أنواعها ، حتى ولو حبس نفسه فى وعاء معقَّم كما يقولون ..

ولكن هناك (فوبيا) تجاه أنواع بعينها من الحشرات ، وعلى رأسها (فوبيا) العناكب ..

فلسبب ما ، ترتبط العناكب فى أذهان البعض بالرعب والموت والفزع ، فهى تصنع شبكاتها ، وتترقب الفريسة ، التى تلتصق بالشبكة ، لتنقض عليها بلا رحمة ، وتمتص حياتها بلا هوادة ..

وربما يتصور المرضى بهذا النوع من (فوبيا) العناكب ، أنهم مجرد حشرات صغيرة ، قد تقع يومًا فى شباك العناكب التى تنقض عليها أيضًا ، بلا رحمة أو هوادة ..

أو أنهم ضحايا بعض الأفلام القديمة ، التى تحدثت عن عناكب عملاقة ، تهاجم البشر ، وتوقعهم فى شبكاتها ، ثم تلتهمها فى مشاهد مرعبة ، تفنن فى تقديمها وتصويرها مبدعو (هوليود) ومخرجوها ..

أو أنه خوف غريزى ، يرتبط بالموت ، وكل ما يمكن أن يسببه للبشر ، أو حتى للحشرات الأخرى ..

و (فوبيا) العناكب هذه لا ترتبط بأنواع بعينها منها ، أو حتى بالأحجام الكبيرة دون الصغيرة ، بل هى (فوبيا) شاملة ، تتعلّق بكل أنواع وأصناف وأحجام العناكب .. الكبير منها والصغير ، والوديع والمفترس ، وكل ما يجرى على أقدام ثمان ..

والعناكب فى حد ذاتها فصيلة خاصة جدًا من الحشرات ، لها ثمانية أرجل ، وليس ستة كسائر الحشرات ، وهى ضرورية تمامًا لإتمام دورة الحياة الطبيعية ، شأنها شأن باقى الفصائل ، إذ إنها تفتك بعدد من الأنواع الضارة ، وسمها كاف لتخدير الفريسة ، وقليل منها يفرز أنواعًا من السموم ، يمكنها قتل البشر !

ومن أسفل مؤخرة الكتلة الخلفية للعناكب ، تبرز المغازل ، وهى مراكز تكوين مادة حريرية ، تصنع منها العناكب شباكها ، ومنازلها ، وشراكها ، وأكياس بيضها أيضًا ، كما تستعمل خيوط العناكب هذه ، فى صناعة بعض الآلات البصرية الدقيقة ..

وفى بعض الدراسات ، يقول فريق من العلماء أن العناكب تتميّز بحاسة سادسة عجيبة ، وقدرة مدهشة على التنبؤ المستقبلى ، تتمثّل فى فرارها المبكّر ، من أية محاولة لاقتناصها أو السيطرة عليها ..

ويقول الهنود أن عقل الإنسان يرتبط أحيانًا بعقول العناكب ، عبر هذه الحاسة السادسة الخاصة ، وأن هذا قد يكون السبب الرئيسى لما يعرف باسم (فوبيا) العناكب ..

ولكن هذه مجرّد أقوال بدائية ، لا توجد أية دراسات علمية يمكن أن تؤيدها ؛ لأن الحاسة السادسة فى حد ذاتها ، سواء لدى الإنسان أو العناكب ، لم تجد من يمكنه إثباتها أو تأييدها بعد فى مراجع علمية أو طبية ..

ولقد بحث العديد من العلماء عن تاريخ واضح ، يمنحنا سببًا باطنيًا مقبولاً ومعقولاً لهذا النوع من (الفوبيا) ، إلا أن معظم المصابين بها ليست لديهم أية اسباب فى طفولتهم أو حداثتهم ، تدفعهم إلى خوف مرضى من العناكب ، بل إن بعضهم يصاب بهذا الخوف أو الهلع الفائق فى فترات الطفولة والصبا ، وبعضهم يمتد به الخوف إلى كل ما يتحرّك بأسلوب مشابه للعناكب ، حتى لو كان ينتمى لفصائل أخرى متباعدة ، كسرطان البحر مثلاً ، بل وحتى لو كان فى صورة آلية أو هيكلية ..

وهذا يعنى أن السبب ما زال مجهولاً تمامًا ، تحت أية مقاييس ، وإنه ينشأ من أعمق أعماق المخ البشرى ، أو أغوار عقلنا الباطن ، أو يكمن فى مكان غامض مجهول من جيناتنا الوراثية ..

وعدد المصابين بالخوف المرضى من العناكب عديدون وكثيرون ، ومنتشرون فى أركان الأرض الأربعة ، وفى كل قارات الدنيا ، حتى فى أدغال (إفريقيا) ، التى تحوى عشرات الأنواع من العناكب ، التى تتراوح بين الميكروسكوبيات والشعريات ، وذات الأحجام الضخمة الرهيبة ..

وبالنسبة لأنواع (فوبيا) الحشرات ، تحتل (فوبيا) العناكب المركز الأوّل بلا منازع ، ولا تنافسها سوى (فوبيا) النحل والدبابير ..

وهذه (الفوبيا) الأخيرة تبدو منطقية ومفهومة إلى حد كبير ، فعلى الرغم من احترامنا وتقديرنا الشديدين للنحل ، باعتباره مصدرًا للعسل ، الذى يحوى شفاءً ، إلا أننا نعلم جيدًا كم تؤلم لدغة النحل ، وكم تؤلم أكثر لدغة الدبابير ، مما يفسِّر الخوف المرضى لبعض الناس منهما ..

وعلى عكس (فوبيا) العناكب ، يرى العلماء أن (فوبيا) النحل والدبابير مكتسبة وليست أساسية ، فالطفل قد يخاف النحلة أو الدبور ، عندما يحومان حوله ، بأزيزهما المتصل ، وقد يبكى على نفسه ، ولكنه إذا ما رآهما ساكنين ، فقد تمتد يده للعب بأيهما ، مما يعرِّضه للدغة مؤلمة ، تتكون بعدها هذه (الفوبيا) ..

وإلى الأبد ..

و(فوبيا) النحل والدبابير قد تكون غريزية أيضًا ، لدى بعض الناس ، الذين يعانون من حساسية مفرطة ، تجاه لدغات النوعين ، والذين تكفى لدغة واحدة ، لتنتفخ أجسادهم وتتورَّم ، ويقضون نحبهم أيضًا ، ولو لم يتم علاجهم فى الوقت المناسب ، وبالسرعة الكافية ..

والسؤال الحائر هنا هو كيف يدرك هؤلاء أنهم مصابون بالحساسية المفرطة بسم النحل والدبابير ، وبحيث يصيبهم هذا النوع من (الفوبيا) ؟!

أهى غريزة ، أم نوع من الاتصال العقلى الفائق ، أم هو استبصار خارق للمستقبل ؟!

والجملة الأخيرة قد تدهشك ، إلا أنها تحمل لمحة من الحقيقة ، على نحو فجَّر حيرة العلماء ، على نحو كبير ، وهم يدرسون بعض الأنواع الأخرى من هذه (الفوبيا) العجيبة ..

أنواع مدهشة ..

للغاية .

* * *

٥ ـ قمم وأعمـــاق ..

● من أشهر أنواع (الفوبيا) ، التى يعرفها العامة ، من كثرة الحديث عنها ، فى الروايات وأفلام السينما ، (فوبيا) المرتفعات ..

ومن الطبيعى للغاية أن يخشى الإنسان المرتفعات ، وأن يشعر بالقلق وعدم الأمان ، إذا ما وقف فى منطقة مرتفعة ، بحيث تبدو الأشياء ويبدو الأشخاص تحته فى أحجام صغيرة دقيقة ..

ومن الطبيعى أيضًا أن ينتابه الخوف إذا ما وقف على حافة مرتفعة ، أو طرف بناية شاهقة ..

ولكن ماذا لو أنه يصاب بهلع رهيب ، إذا أطل من شرفة مرتفعة مؤمّنة ، أو حتى عبر زجاج سميك قوى ومصفّح ؟!

هنا يصبح الخوف من المرتفعات مرضيًا ، ومتجاوزًا لكل الحدود الطبيعية والمألوفة ، والمعروفة ..

والمصابون بمرض (فوبيا) المرتفعات ، يشعرون بدوار عنيف ، وفقدان تام للاتزان ، وترتجف أطرافهم ، وتتيبّس ، وقد تعجز سيقانهم عن حملهم أيضًا ، إذا ما تواجدوا فى مكان مرتفع ، أو حتى شاهدوا صورة تم التقاطها من مكان مرتفع ..

وفى واحدة من الاختبارات النفسية ، تم وضع المريض فى حجرة خاصة ، فى الطابق الأرضى ، وتم عرض صورة كبيرة ، على أرضية الحجرة ، تم التقاطها من أعلى ناطحة سحاب ، وعلى الرغم من أن المريض يدرك جيدًا موقعه ، وأن ما يراه مجردّ صورة ، فقد

انتابته المشاعر نفسها ، التى تنتابه فى البنايات المرتفعة ، وارتجف إلى حد الهلع ، وانهار تمامًا ، وهو يصرخ صرخات رهيبة ، انخلعت لها قلوب من حوله ..

المسألة ليست مرتفعات ومنخفضات إذن ، وإنما هى مشكلة نفسية عويصة ، ترتبط بالشعور ، أو بالعلاقة البصرية ، بين المخ والجسد ..

ولقد أجرى العلماء تجاربهم على حالات من المصابين بهذا الخوف الرهيب من كل المرتفعات ، بأن عصبوا أعينهم ، وجعلهم يسيرون فوق سطح شديد الارتفاع ، فلم يعان سبع وثمانون فى المائة منهم أية مشكلات ، إلا بعد رفع العصابة ، وإدراكهم أنهم فوق قمة مرتفعة ..

ولقد دعت هذه التجربة إلى دراسة العصب البصرى ، والأذن الداخلية للمصابون بمرض (الفوبيا) المرتفعات ، لبحث ما إذا كانت له علاقة بأيهما ، وجاءت النتيجة تشير إلى هذا الاحتمال ، بنسبة سبعة وخمسين فى المائة ، مما جعل من العسير الجزم بصحته من عدمها !!

وهنا حالة خاصة جدًا ، توقف عندها الباحثون طويلاً ، من حالات (فوبيا) المرتفعات الفائقة ، وهى حالة ظل صاحبها يصاب بذلك الهلع الفائق طوال الوقت ، دون أن يفلح أى علاج فى تخليصه منه ، وهو يصر دومًا على أنه سيلقى حتفه سقوطًا من ارتفاع عال يومًا ما ..

وطوال حياته حرص ذلك المريض دومًا على تجنب المرتفعات ، فلم يسافر يومًا بطائرة ، ولم يقم أو يعمل فى أى مكان مرتفع إطلاقًا ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد سقط هذا المريض فجأة ، فى حفرة أرضية ، بلغ عمقها ثمانية عشر مترًا ، فلقى مصرعه فى الحال !

لقد سقط إذن من ارتفاع كبير ، لكن فى أعماق الأرض !

ويا لها من مفارقة !!

والمفارقة هنا تقودنا إلى نوع آخر من أنواع (الفوبيا) ، يعتبر عكس (فوبيا) المرتفعات تمامًا ، وإن كان بعض العلماء يعتبرونه مجرَّد اشتقاق من هذه (الفوبيا) نفسها ، على نحو آخر ..

إنه (فوبيا) الأعماق ..

وفى هذه (الفوبيا) ، يرتجف المريض ويرتعد ، عند مواجهة حفرة عميقة ، أو بئر سحيقة ، ولا يجرؤ حتى على النظر إليها ، وينتابه شعور دائم بأنه لو تطلَّع إليها ، فسيسقط فيها حتمًا ..

والفريق الذى يتصوَّر أن هذا مجرَّد اشتقاق من (فوبيا) المرتفعات يرى أن المريض هنا يخشى المسافات البعيدة سواء أكانت من مكان مرتفع أو منخفض ، أو أنه لا يستطيع التطلُّع إلى أية مسافات راسية طويلة ، بأى حال من الأحوال ..

ولكن التجارب العملية ترفض هذا المنطق ، فى كثير من الأحيان ، إذ إن معظم الحالات المصابة بالخوف المرضى من الأعماق ، لم تعان من الأمر نفسه مع المرتفعات ، وفى حالات أخرى ، تلازم هذا مع ذلك ، ولكن الأعراض اختلفت فى الحالتين ، فكانت أكثر عنفًا فى الأعماق ، منها فى المرتفعات ..

والفريق المؤمن بانفرادية (فوبيا) الأعماق ، يرى أن سببها يعود إلى ربطها دومًا بالموت والقبور ، ورؤيتها تسبِّب الهلع للمريض ، لأنه يتصور أنه يرى قبره بعينه ، وأن جثمانه سيرقد يومًا ما فى حفرة كهذه ، ويهال عليه التراب !!

ولأن البشر يخشون الموت بطبيعتهم ، ويكرهون فقدان كل متع الحياة ، فإن عقولهم الباطنة تبغض القبور ، وتعكس هذا البغض على العقل الواعى ، فى شكل (فوبيا) الأعماق !

و(فوبيا) الأعماق مثلها مثل (فوبيا) المرتفعات ، ذات منشأ نفسى بحت لا يشترط تواجد الشخص فى حفرة عميقة بالفعل ، وإنما يكفى الإيحاء له بهذا ، أو حتى إخباره بضرورة أن يفترض هذا ، حتى يصاب بكل الأعراض ، دون أى اختلاف ..

وككل أنواع (الفوبيا) ، يختلف الأمر من مريض إلى آخر ، فبعض المرضى يصاب بالهلع من الأماكن شديدة العمق ، والبعض الآخر لا يمكنه حتى التواجد فى قبو منزل ، أو فى أى طابق تحت مستوى الأرض ..

وبعض المرضى يمكنه أن ينتبه ، حتى وهو مغمض العينين ، إلى أنه قد تجاوز مستوى الأرض ، والبعض الآخر لا يمكن أن يدرك هذا ، إلا لو تم إبلاغه به ، والنوع الأوّل هو الذى يثير انتباه واهتمام العلماء أكثر ، لأنه يمتلك حاسة نادرة ، لا بد من دراستها ، والبحث عن أسبابها ، ونتائجها ، ووسائل توجيهها والاستفادة منها ..

تمامًا كحاسة تحديد الاتجاهات ، والتى يملكها بعض البشر ، دون البعض الآخر ، وتتفاوت قوتها بين من يملكونها ، على نحو يستحق الاهتمام والدراسة بالفعل ، فبعض الناس يمكنهم تحديد الاتجاهات بدقة ، حتى لو أغمضت عينيه ، وسرت به عبر غابة شاسعة فى مسار شديد التعرُّج والتعقيد ، بل ويمنكهم الإشارة بأصابعهم نحو نقاط بعينها ، فى دقة مدهشة ، لو طلب منهم هذا .. والبعض الآخر يمكنه الاتجاه نحو الشمال المغناطيسى بدقة مدهشة ، تفوق دقة البوصلة نفسها ، دون أية معرفة سابقة بمكان تواجدهم !!

ولكن هذه قصة أخرى ..

دعنا نركز أبحاثنا حول (الفوبيا) بأنواعها المختلفة ، وتفرعاتها العجيبة ، وتعقيدتها وأعراضها اللا نهائية .. وما تحدثنا عنه يعتبر الأنواع الشهيرة فقط من (الفوبيا) ، والتى يمكن أن تتواجد فى البشر ، على نحو غريزى أو مكتسب ، والتى تتشارك فيها أعداد كبيرة من الناس ، ولكن هناك أنواع أخرى من (الفوبيا) لا حصر لها ، وكلها أنواع مكتسبة ، نشأت بسبب واقعة بعينها ، أو موقف أثار

رعب الإنسان وفزعه ، فى مرحلة أوّلية من حياته ، وتبدو غامضة ومحيرة ، بالنسبة لعلماء النفس والدارسين ، وخاصة عندما ترتبط بأشياء عادية أو مألوفة ، أو يمكن تواجدها فى كل مكان ، كالسجائر مثلاً ، أو القدّاحات ، أو الأقداح الزجاجية ، أو أنواع سيارات بعينها ، أو حتى الملاعق والأشواك الفضية ..

وهناك امرأة ظلت طيلة عمرها تصاب بهلع مرضى من عبور أى طريق تعبره السيارات ، وعندما تم تحليلها نفسيًا ، ودفعها إلى العودة بذاكرتها إلى سنوات طفولتها الأولى ، تبيَّن أنها قد شاهدت ، وهى فى الثالثة من عمرها حادثة سير ، لسيارة مسرعة ، أصابت طفلاً فى العاشرة من عمره ، وقذفت به إلى حديقة منزل بعيد ، لينزف حتى الموت ..

وعندما تقدَّمت فى العمر ، طرح عقلها الواعى الموقف كله فى بقعة مظلمة من مخها ، ولكنه لم ينجح فى محوه من عقلها الباطن ، الذى يستعيد المشهد سرًا ، كلما حاولت عبور الطريق ، فتصاب بالفزع والهلع ، وتتصوَّر أن سيارة ما ستصدمها ، كما فعلت بذلك الطفل من قبل ، وستلقى مصرعها مثله ..

وعندما تم التوصُّل إلى السبب الحقيقى لمشكلتها ، والتعامل معه بالحرفية اللازمة ، انتهت القضية ، وتصالح عقلها الواعى مع عقلها الباطن ، ولم تعد تخشى عبور الطرقات ..

وهذا الحديث يقودنا إلى الجولة الأخيرة والفصل الختامى ، من هذه الدراسة ، الخاصة بمختلف أنواع (الفوبيا) ..

الفصل الذى لا يتحدّث عن المشكلة ، وإنما عن الحل ..

عن مواجهة (الفوبيا) ، ووسائل التعامل معها ، وعلاجها ، و ...

ولهذا حديث آخر .

* * *

٦ ـ المواجهـــــة ..

● تؤكّد كل النظريات الجديدة ، فى العالم الحديث ، أن إصابة المرء بأى مرض فى الوجود يحتاج إلى عاملين أساسيين ، وهما عامل الوراثة ، وعامل البيئة ..

وبمعنى أدق ، لا بد وأن تحوى الضفيرة الجينية للمرء العامل الوراثى الخاص بالمرض ، وأن تحيط به ظروف بيئية ، مناسبة لظهور المرض وصعوده إلى الجسم ..

ولقد أكّدت الأبحاث صحة هذه النظريات ، وحتمية تشارك العاملين معًا ، بحيث لا يكفى أحدهما وحده لظهور المرض ، أيًا كانت نوعيته ، عضوية أو حتى نفسية ..

النظريات والأبحاث الجديدة إذن تؤكّد أنه حتى (الفوبيا) بأنواعها تحتاج إلى عامل وراثى ، فى جينات الجسم ، وإلى ظروف بيئية مناسبة ، تضغط على هذا العامل الوراثى ، وتظهره ، ليصاب الإنسان بحالة من حالات (الفوبيا) ، أيًا كان نوعها ..

ولتوضيح الأمر أكثر ، دعونا نفترض وجود طفلين ، تعرّضا لواقعة واحدة ، ولتكن لدغة النحل مثلاً ، فى عامهما الأوّل والأوّل يحمل الجينات المناسبة ، والآخر لا يحملها ..

كلاهما سيصاب عندئذ بالألم ، والذعر ، والفزع ، وسيبكى كثيرًا

وطويلاً ، ثم تمضى الواقعة ، مع بعض التورّمات والكريمات المرطبـة ، ومضادات الحساسية المفرطة ، وينتهـى الأمر بأحدهمـا ، وهو الذى يحمل الجينات بالإصابة بحالة (فوبيا) النحل طيلة عمره ، فـى حين ينسى الآخر الأمر تمامًا ، وربما تزداد مخاوفه المستقبلية من النحل ، إلا أنها لن تتحولّ أبدًا إلى خوف مرضى ، أو هلع مفرط ..

التوصلّ إلى هذا قلب كل موازين العلاج ، التى كان يستخدمها الأطباء والمعالجون النفسيون قديمًا للتعامل مع أنواع (الفوبيا) الجينية ..

وهذا لا ينطبق على (الفوبيـا) البسيطة أو المكتسبة ، والتى ما زالت أساليب مواجهتها وعلاجها متشـابهة ، مع ما كان يحـدث قديمًا ..

فالخطوة الأولى دومًا ، هى معرفة تاريخ (الفوبيا) ، ومتـى ظهرت أو نشأت ، وهل تتطوّر إلى الأسوأ أم إلى الأفضل ، مع مرور الزمن ..

وبعدها لا بد من الغوص فـى أعمـاق المريض ، للوصول إلـى منشا المشكلة ..

وهناك عدة وسائل للقيام بهذا الغوص النفسـى الخاص جدًا ، لبلوغ قاع حالات (الفوبيا) ، إذ إن هذا يمكن أن يتم عن طريق التحدُّث المنظم والهادئ مع المريض ، علـى فتـرات منتظمـة ، متباعدة أو متقاربة ، وفقًا لنوع وشدة الحالة ، حتى يصل المعالج إلـى النقطـة ، التى تفجَّرت عندها (الفوبيا) ، وإيضاحها للمريض ، علـى نحـو مباشر وهادئ أيضًا ..

وفى معظم الحالات المكتسبة ، يمكن أن ينهى هذا المشكلة ، إذ ما أن يزيل المعالج الحاجز ، بين العقل الواعى والباطن ، حتـى تتضح الصورة للمريض ، وتبدأ فى اتخاذ حجمها الحقيقى ، بحيث تتحولّ من عقدة كبيرة إلى مشكلة محدودة ، يسـهل التعـامل معهـا ومواجهتها ، ببعض العقاقير الطبية ، أو الجلسات النفسية المكثفة ..

وفى حالات أخرى ، يعجز المريض نفسه عن تحديد بداية المشكلة ، على الرغم من المحاولات والمحاورات ، لذا يصبح من الضرورى الانتقال إلى مرحلة أكثر حرفية ..

إلى التنويم المغنطيسى ..

والتنويم المغنطيسى ليس نوعًا من الدجل أو الشعوذة ، بل هـو أمر علمى تمامًا ، ويرتبط بالعديد من العوامل ، أهمها الشخص نفسه ؛ فوفقًا للدراسات ، ليس كل إنسان قابلاً للخضوع للتنويم المغناطيسى ، فهناك عقول مقاومة بشدة لهذا الأمر ، ولا يمكن تنويمها أبدًا ..

لابد إذن وأن يوافق المريض على الخضوع للتنويم المغناطيسى ، وأن يستسلم لمعالجه تمامًا ، رغبة منه فى كشف طبيعـة مرضـه ، والقضاء عليه تمامًا ..

والمزية الرئيسية للتنويم المغنطيسى هى أنه يشحذ كل حـواس الإنسان وذاكرته ، ويساعده علـى استرجاع تفـاصيل دقيقـة ، مـن أعمق أعماق عقله الباطن ، على نحـو يعجز عن فعله على نحـو إرادى ، مهما بذل من جهد ..

ولكن هذا يحتم أن يكون المعالج نفسه شديد البراعة ، فى تعامله مع المنوِّم مغنطيسيًا ، فمنذ سنوات قليلة ، كشف أحد العلماء أن المعالج قد يقود المريض ، الخاضع للتنويم المغناطيسى ، إلى أمور لم تحدث فى عالم الواقع ، ولكنه هو أوحى له بحدوثها ، دون أن يدرى ..

إذن فالأمر يحتاج إلى دقة شديدة ..

دقة تترك المريض حرًا ، وتسمح بتداعى أفكاره وذكرياته فى انسيابية هادئة ، حتى يتوصَّل المعالج إلى قلب المشكلة ، ويفجِّر الحقائق كلها فى وضوح ، دون أن يزرع أية أوهام فى عقل مريضه ..

وهناك حالات عديدة من (الفوبيا) ، تم علاجها تمامًا ، عن طريق التنويم المغنطيسى ، إما بتوضيح المشكلة وعلاجها ، أو بدفع المريض إلى محوها تمامًا من عقله ..

والأسلوب الأوَّل هو الأكثر دقة وضمانًا بالتأكيد ، إذ أن محو المشكلة من العقل أمر مستحيل ، كما يؤكِّد بعض العلماء ، مما يعنى أنها قد تعود إلى البروز بغتة ، ودون سابق إنذار ، بعد فترة تطول أو تقصر ، ولكن عودتها ستعيد (الفوبيا) مرة أخرى ..

وربما على نحو أكثر عنفًا ..

وكل هذا ، كما سبق أن قلنا ، يرتبط بحالات (الفوبيا) المكتسبة وحدها دون سواها ..

أما حالات (الفوبيا) الجينية ، فعلاجها يستلزم ما يعرف باسم العلاج الجينى ، وهذا النوع من العلاج لم يتطوَّر إلى الحد الكافى بعد ، إلا أن الحالات القليلة ، التى عولجت به ، أعطت نتائج مدهشة ، فى حالات مرض السكر ، والهيموفيليا ، ونقص المناعة الوراثى وغيرها ..

والمجال ليس مفتوحًا هنا للحديث بالتفصيل ، عن العلاج الجينى ، ولكنه وسيلة لإحلال ضفيرة جينية محل أخرى ، فى مناطق الإحلال والتجديد ، مثل نخاع العظام ، بحيث تنمو ، وتتضاعف ، وتخلِّص الجسم من تأثيرات جينية بعينها ، بعد فترة محدودة من الوقت ..

ونجاح العلاج الجينى فى الأمراض العضوية ، لا يعنى نجاحه فى الأمراض النفسية أيضًا ، أو أنه ليست هناك أية تجارب واضحة فى هذا الشأن ، على الأقل حتى لحظة كتابة هذه السطور ، ولكنه وسيلة مستقبلية ، تنبأ لها العلماء والأطباء بالنجاح الفائق ، وبقدرتها على تغيير وجه العالم طبيًا ونفسيًا ، مع مطلع العقد الثانى من القرن الحالى ..

والأمر الذى يستحق الانتباه ، فى هذا الشأن ، هو أن معظم حالات (الفوبيا) ، التى خضعت للعلاج المكثف ، وأقر الأطباء بنجاحها ، وبأنها قد عولجت تمامًا ، لم يمكن الجزم بأن علاجها سيستمر إلى الأبد ..

ففى وجود العامل الوراثى ، قد تتوارى (الفوبيا) ، أو تنكمش ، وتهادن العقل الواعى لبعض الوقت ، بعد كشف الصدمة البيئية ، التى سببت ظهورها ، ولكنها تظل دومًا متأهبة للظهور ثانية ، مع أية صدمة بيئية جديدة ..

ففى اثنين وثلاثين فى المائة من الحالات ، ارتدت (الفوبيا) مرة أخرى ، بعد ثلاث إلى خمس سنوات من الشفاء ، بسبب واقعة واحدة ، وقد تقل كثيرًا عن الواقعة الأصلية ، التى كانت السبب فى ظهورها ، فى مرحلة الإصابة الأولى ..

وإذا ما عادت (الفوبيا) ، فإن علاجها يستلزم عندئذ وقتًا أطول ، وجهدًا أكبر ، تمامًا مثلما يحدث فى لعبة (اليويو) ، التى يدفعها الأطفال إلى أسفل ، ثم يجذبونها إلى أعلى ، فتدور حول خيطها لترتفع ، ثم تعاود الانخفاض ، وهكذا ..

ولو أنك تابعت (اليويو) ، لوجدت أنه يلتهم فى المرة الأولى مساحة كبيرة فى الخيط ، فى سرعة مدهشة ، ثم يلتهم مساحة أقل ، فى سرعة أقل ، فى دورته الثانية ، وكذلك فى الثالثة ، وما بعدها ..

ومن هنا ، أطلق العلماء على عملية عودة (الفوبيا) ، وعلاجها لأكثر من مرة ، اسم (مبدأ اليويو) ..

وهذا لايعنى أن (الفوبيا) غير قابلة للشفاء ، ولكن يعنى حتمية الحرص الشديد فى التعامل مع مريضها بعد العلاج ، بحيث يبتعد تمامًا عن كل المؤثرات ، التى يمكن أن تصيبه بصدمة بيئية أخرى ..

وقبل أن نختم حديثنا ، لابد وأن نشير هنا إلى أن أحد الأسباب القوية ، التى تمنع علاج مرض (الفوبيا) ، هو نوع من (الفوبيا) أيضًا ..

(فوبيا) الأطباء ..

فالمرضى هنا لايخشون فى الدنيا كلها قدر الأطباء ، والمستشفيات ، وحجرات العلاج ، والعناية المركزة ، و ...

وسيطول الحديث إلى ما لا نهاية ؛ لأننا نتحدث عن حالة يمكن أن نضعها فى ألف صورة وصورة ..

حالة (فوبيا) .

* * *

(تمت بحمد الله)

آســـــف .. (قصة قصيرة)

حبيبتى ..

هذا الخطاب الذى أرسله إليك الآن ، تأخَّر كثيرًا ..

كثيرًا جدًّا ..

تأخَّر أكثر مما ينبغى ..

وأكثر مما أمكنك الانتظار ..

أو الاحتمال ..

وأعترف أن هذا خطئى ..

وخطأك أيضًا ..

فمنذ عرفتك ، عهدتك دائمًا الطرف الأكثر احتمالاً ..

والأكثر حنانًا ..

وحبًّا ..

وعطاءً ..

ولقد عشقت هذا فيك ، منذ اللحظة الأولى ، إلا أننى ، وعلى الرغم من هذا ، لم أحترمه كما ينبغى ..

ربما لأننى رجل ..

وشرقى ..

فالآن فقط ، أدرك أن طبيعتنا الشرقية تسىء تربية الذكور ..

وربما أكثر مما ينبغى ..

لقد اعتدنا منذ مولدنا ، أن نتعامل باعتبارنا الجنس الأرقى ، والأفضل ، وصاحب كل الحقوق ، وأنكن الجنس الأدنى ، والأقل ، والأضعف ..

اعتدنا هذا ؛ لأنه هكذا كانوا يربوننا ، ويتعاملون معنا ، منذ تفتحت عيوننا على الحياة والدنيا ..

ومع مرور الوقت صدقنا الكذبة ..

واعتنقناها ..

وتشبثنا بها ..

ولأننا تربينا على أن نزهو بذكورتنا ، وليس برجولتنا ، فقد اكتفينا بها ، ولم نشعر بأية حاجة إلى العمل ، والجهد ، والكفاح ، والسعى إلى التفوق فى كل مجالات الحياة والدنيا ..

ولكنكن تربيتن على العكس تمامًا ..

الأنوثة كانت بالنسبة لكن هوانًا ، وضعفًا ، ودنوًّا ..

لذا فقد جاهدتن لإثبات وجودكن ..

وقاتلتن ..

وكافحتن ..

ومع مرور الوقت ، تفوقتن ..

ليس فى مجالات الدراسة والعلم فحسب ، كما توضح نتائج الكليات والمدارس ..

ولكن فى معترك الحياة أيضًا ..

فوفقًا للمعادلة الأساسية ، يتفوَّق المكافح ، ويضعف المتراخى ..

أو كما قرأت قديمًا ، فى رواية (ويلز) الشهيرة (آلة الزمن) ..

الجنس المقاتل يتفوَّق ويقوى مع الزمن ، ليفترس الجنس المنعم فى النهاية ..

فكرة بدت لنا خيالية يومًا ..

ثم أصبحت حقيقة ، فى زمننا هذا ..

والمؤسف أننا لم ندركها ..

أو نفهمها ..

أو نستوعبها ..

فقط ، فوجئنا بها ..

تمامًا كما فوجئت أنا بما حدث ..

فبلا مقدمات ، وبعد سنوات من الحب والعشق ، فوجئت بك تتراجعين ..

وتغضبين ..

وتنفرين ..

حبك كله انقلب إلى حنق ..

وسخط ..

ورفض ..

وبلا مقدمات أيضًا ، فوجئت بك تؤكدين أن شعورك نحوى ، لم يعد أبدًا كما كان ..

لم يعد حبًا ..

أو عشقًا ..

أو حتى احترامًا ..

لقد احتملت طويلاً أخطائى ..

سخافاتى ..

وأنانياتى ..

احتملتها طويلاً ..

وكثيرًا ..

احتملتها بحب ..

وصبر ..

وأمل ..

ومن الواضح أنك قد فقدت فجأة ذلك الأخير ..

الأمل ..

فقدته ، وفقدت معه كل شيء ..

وأى شيء ..

وأعترف أن هذا قد صدمنى فى البداية ..

صدمنى ، وهزّ حتى أعمق أعماقى ..

هذا لأننى أحببتك بحق ..

وبعمق ..

وبأنانية أيضًا ..

أحببتك كما لم أحب مخلوقًا من قبل ..

ولكن ليس كما ينبغى أن أحب ملاكًا مثلك ..

ليس كما ينبغى أن أمنحك ..

أو أعشقك ..

أو أعطيك ..

ولكننى ، وعـنـدما جلست أراجع الموقف كله ، وعندما تنصّلت من غرورى ، وأنانيتى ، وثقتى الزائدة بنفسى ، وأجبرت عينىّ على رؤية حقيقتى ، أدركت أنك على حق تمامًا ، فى موقفك الجديد هذا ..

وأننى مخطئ فى حقك ..

وإلى أقصى حد ..

لذا ، فلم يعد هدفى الأوّل هو الإبقاء عليك ، وعلى قربك وحبك ..

لم يعد من حقى حتى أن أطالبك بهذا ..

بل أصبح كل ما ينبغى علىّ أن أفعله ، هو أن أعتذر ..

أن أركع على ركبتىّ أمامك ، لأعترف بأخطائى ، وأعلن أسفى ..

لو أن هذا يمكن أن يعبّر عما يدور فى نفسى ..

آسف يا حبيبتى ؛ على أننى لم أقدّرك حق قدرك ..

آسف ؛ لأننى لم أمنحك ما تستحقين ..

لم أعطك ما تريدين ..

أو أمنحك ما ترغبين ..

آسف لأننى أضعت سنوات من عمرك ..

وحبك ..

وعطائك ..

وروعتك ..

آسف ألف مرة ..

بل ألف ألف مرة ..

إننى حقًا لا أستحق رائعة مثلك ..

لا أستحق لحظة واحدة ، من لحظاتك المدهشة ..

ولست أحلم بعودتك ..

أو حتى بمغفرتك ..

كل ما أتمناه هو أن تسعدى فى حياتك كلها ..

بدونى ..

وأن تتذكّرى دومًا ، أن آخر كلمة سمعتها منى هى آسف ..

آسف يا حبيبة العمر كله ..

آسف ؛ لأننى ضحية موروثات ذكورية عريقة ..

آسف ..

آسف ..

آسف ..

حتى آخر العمر .

* * *

إهـداء

إليك

أنـا

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

حبيبى

دراسة

(٥)

(وليـــــه.. لأ؟!)



٥ ـ وليـــه لأ؟!

الحب عيب !!

حرام !!

خطأ !!

هذا ما تربينا عليه فى طفولتنا ، ونشأنا ونحن نسمعه من آبائنا ، ومعلمينا ، وأهلنا ، وكل كبير نلتقى به ، ويصنع من نفسه واعظًا ، لتلقيننا مبادئ الحياة ، دون أن يطالبه أحد بهذا ..

المدهش أن أحدًا لم يحاول تحذيرنا من الكراهية ..

والبغض ..

والغيرة ..

والحسد ..

كل المشاعر السيئة كانت بالنسبة لهم أمرًا عاديًا ، وسليمًا ، ولا غبار عليه ..

فقط الحب هو الخطأ ..

كل الخطأ !!

موروث عجيب ، توارثناه لقرون من الزمان ، وغرسوه فى عقولنا ..

وعروقنا ..

وقلوبنا ..

وحتى فى نخاعنا ..

والعجيب أننا لم نتوقف لحظة ؛ لنناقش هذه التحذيرات ، ونحاول فهمها واستيعابها ..

فمادام الحب أمر خطير وسيئ إلى هذا الحد ، فكيف يمكن أن نناقشه ؟!

بل ومن سيسمح لنا بهذا ؟!

فمنذ عقود وعقود ، صنعوا أسوارًا عالية وسميكة حول الحب ، ذلك الشعور الغريزى ، الذى لايمكنك منعه ، أو كبحه ، أو تجاهله ..

ولأن الحب ينمو فى الأعماق ، ويجرى فى العروق مجرى الدم ، كنا نعجز دومًا عن مقاومته وكبحه ..

وكنا نحب ..

ونهوى ..

ونعشق ..

ثم نشعر بالذنب ..

والخزى ..

والعار ..

ولأنهم نجحوا فى عمليات غسيل المخ ، وأقنعونا أن الحب حرام ، فإننا نشعر دومًا بالتوتر ، كلما ساورتنا مشاعر الحب ..

وكنا نستغفر اللّه (سبحانه وتعالى) ، ونصلى كثيرًا ، طالبين المغفرة ..

فقط لأننا أحببنا ..

ثم كبرنا ..

وكبرت معنا مخاوفنا ..

وتعاظم الشعور بالخزى مع الحب أكثر وأكثر ..

وبالذات لدى الإناث ..

فالمجتمعات الشرقية بطبعها ، تركِّز عدوانيتها كلها تجاه الإناث ، باعتبارهن كائنات سريعة وسهلة الخطأ ، مرهفة الحس ، من اليسير إيقاعها فى فخ الحب والعشق ، من كل محتال ..

وكوسيلة لحماية الإناث ، اعتاد الكل محاصرة مشاعرهن ، وإرهابهن بأنهن سيواجهن العقاب ، والعار ، والغضب الإلهى أيضًا ، لو أنهن أحببن !!

وأصبحت هذه هى القاعدة ..

أن تخفى الأنثى الشرقية مشاعرها ..

أن تحتويها ..

وتزيفها ..

ولا تفصح عنها أبدًا ..

حتى بعد أن ترتبط بزوج المستقبل ، وشريك العمر ، تظل تلك القاعدة عميقة فى رأسها ..

وفى كل ذرة من كيانها ..

ولأن كل ما يستخدم ينمو ، وكل ما يهمل يضمر ، فقد ضمرت مشاعر الأنثى ..

وجفت ..

وتيبست ..

وتحجّرت ..

وبالنسبة لكل الأجيال السابقة على الأقل ، صار من العسير أن تفصح المرأة عن مشاعرها وحبها ..

حتى لزوجها !!

والعجيب أن الحياة قد استمرت ، على الرغم من هذا ..

استمرت باردة ..

باهتة ..

جافة ..

استمرت لتحفر معالمها على وجوه المتزوجين والمتزوجات ..

على عيونهم ..

وشفاههم ..

وحتى أصواتهم ..

ولأن فقدان الحب يجعل الحياة سقيمة خشنة ، فقد اختفت البسمة من الشفاه ، كما ستلاحظ حتمًا ، إذا ما راقبت وجوه السائرين ، فى أى مكان ..

وانحفر البؤس ..

والهمّ ..

والغضب ..

بل والثورة أحيانًا على الوجوه ..

كل الوجوه ..

السؤال الآن هو لماذا ؟!

لماذا نحارب الحب ، بكل هذه الشراسة ؟!

لماذا نتعامل معه بقسوة ..

وغلظة ..

وعدوانية ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

ما الذى نربحه ، عندما يخلو العالم من الحب ؟!

ما الذى يسعد حياتنا ..

وعمرنا ؟!

الحب أيها السادة ، هو أعظم وأروع شعور فى الوجوه ، فلمـاذا نقتله فى أعمق أعماقنا ، ونمضى فى حياتنا بدونه ؟!

لمـاذا نحذفـه مـن قلوبنـا ، فلايتبقى فيهـا سـوى كـل شـعور سلبى ؟!

هل ألقيتم على أنفسكم يومًا هذا السؤال ؟!

بل ، وهل حاولتم أن تحبوا ؟!

لو أردتم أن تجربوا أعظم شعور فى الوجود ، فأحبوا ..

أحبوا ..

أحبوا ..

وابدءوا بحب أنفسكم ..

أحبوا ما أنتم عليه ..

أحبوا هيئتكم ..

وعقولكم ..

وحياتكم ..فإذا ما أحببتم أنفسكم ، فستبدءون فى حب كل شىء آخر ..

وكل شخص آخر ..

ابتسامة واحدة يوميًا ، يمكن أن تكون بداية جيدة ..

ابتسامة كل صباح ..

ابتسامة لصديق ..

أو قريب ..

أو جار ..

ولا تندهشوا من هذا ..

أو تتعجبوه ..

أو تستنكروه ..

بل حاولوه ..

ابتسموا للحياة ..

تذكروا المقولة الشهيرة « اضحك تضحك لك الدنيا .. اعبس تعبس وحدك » ..

وتحرَّروا من كل مخاوفكم عن الحب ..

ومن الحب ..

واستعيدوا ذاكرتكم ..

هل رأيتم يومًا شخصًا يحب ؟!

هل شاهدتم مدى بهجته ..

وسعادته ..

وحبوره ..

وحيويته ..

ونشاطه ؟!

هل ؟!

هل راقبتم إقباله على الحياة ..

وعشقه لها ..

وطموحاته الكبيرة فيها ؟!

لو رأيتم ، وشعرتم ، وراقبتم ، وأدركتم كل هذا ، فاعلموا أن السبب الوحيد له ، هو أنه يحب ..

ثم سلوا أنفسكم بعدها : أمن الضروري بالفعل أن نبقى بلاحب ؟!

أمن المحتم أن نفتقد الحب ..

والحياة ..

والابتسام ؟!

فإذا عثرتم على جواب السؤال ، ونجحتم فى التخلُّص من كل رواسب الماضى ، فابدأوا مرحلة جديدة ..

مرحلة الحب ..

وقبل أن تنزعجوا من كلماتى هذه ، ألقوا على أنفسكم سؤالاً أخيرًا ..

(وليه لأ ؟!)

* * *

١ـ الفــــارس ..

عام ألفين ومائة وواحد ..

بداية القرن الثانى والعشرين ..

الأرض لم تعد أبدًا كما كانت ..

الحروب التى أشعلتها قوة عظمى ، مع بدايات القرن الحادى والعشرين ، تعاظمت ، وتضخمت ، واتسعت ، وراحت تنشر الخراب والدمار فى كل ركن من الأرض ..

فى البداية ، كانت تلك القوة تفوق الجميع ، وتملك من أسلحة الفناء ما دفعها إلى التعالى والغطرسة ، والسعى إلى فرض سيطرتها وهيمنتها على الكل ، مدفوعة بالأغراض الخفية لدولة صغرى غير عربية ، نمت فى غفلة من الزمن ، فى منطقة الشرق الأوسط القديمة ..

ومع انتصاراتها المتوالية ، تضاعف شعورها بذاتها ..

وبقوتها ..

وتفوقها ..

وتمادت أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وهنا بدأت عمليات مقاومة عنيفة ، وشرسة ، ومتواصلة ..

وعشوائية ..

وبدلاً من أن تدرك تلك القوة العظمى فداحة الأمر ، وسخافة أحلامها الاستعمارية الوحشية ، راحت تواجه المقاومة بشراسة وغضب ، وتضرب تواجدها فى كل موقع ، حتى ولو ضم آلاف المدنيين ، وأريقت فيه أنهار من الدماء البريئة الطاهرة ..

وهنا أدركت فرق المقاومة فداحة الموقف ..

فتآزرت ..

واتحدت ..

واندمجت ..

وتضافرت قوتها ، فى جيش عظيم باسل ، راح يوجّه الضربات القاصمة إلى القوات المحتلة والمعتدية ، واحدة تلو الأخرى ..

وقبل مرور أعوام خمسة ، كانت القوة العظمى قد أدركت حقيقة ما تواجهه ، وفداحة ما ينتظرها ، وقررت أن تواجه جيوش المقاومة بهجمات أكثر عنفًا ، مهما كان الثمن ..

وبدأ القتال يتطوّر ..

ويتطوّر ..

ومع تصاعد حدته ، كانت تلك القوة العظمى تلقى فى الميدان أسلحة جديدة ، وخطيرة ، وشاملة ..

إلى أقصى حد ..

ومع كل سلاح جديد ، يدخل إلى ساحة المعركـة ، كـان التلوُث يزداد ..

ويتضاعف ..

وينتشر أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وعلى الرغم من هذا لم تنته المقاومة أبدًا ..

لم تتوقف ..

أو تتراجع ..

أو تستسلم ..

بل كانت تزداد قوة وعنفًا وفداءً ، فى كل يوم يمضى ، وتعدادها يتزايد فى كل ساعة ، وإيمانها يتعاظم فى كل لحظة ..

وفى ضربة مذهلة ، فجَّرت المقاومة أولَ قنبلة نووية ، فى قلب تلك القوة العظمى مباشرة ، لتطيح باثنتين من ولاياتها دفعة واحدة ..

وردَّت تلك القوة العظمى بقنبلة نووية مماثلة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ولكن العجيب أنها لم تربح المعركة ، ولم تنتصر فى قتالها فى النهاية ..

الغبار النووى ، والسحب الذريـة ، التى انتشرت عقب ذلك الخصم من التفجيرات ، لم يمكن منعهما من بلوغ أرض تلك القوة العظمى نفسها ..

ولأن سكانها يعيشون فى ظروف صحية أفضل ، جعلت مناعتهم فى مواجهة الملوثات الطبيعية أقل ، راحوا يتساقطون أولاً .

تساقطوا بالعشرات ، وبالمئات ، وبالآلاف ..

ثم بالملايين ..

كل هذا والتلوث يزداد ..

ويزداد ..

ويزداد ..

وانهزمت القـوة العظمـى ، أمـام قـوى أخـرى ، بـرزت فـى (أوروبا) و(آسيا) ، ومن قلب الشرق الأوسط نفسه ..

ثم راحت تلك القوى نفسها تنهزم ..

وتتحطَّم ..

وتندحر ..

كلها انهزمت أمام التلوّث النووى الرهيب ، الذى ساد العالم كله ، وانتشر على نحو مخيف ..

الكل انهزم ، حتى لم يعد هناك منتصر ..

الأمراض انتشرت بشكل مفزع ..

الأطفال تهالكوا وتساقطوا ..

الأجنة تشوّهت ..

حتى الطقس تغيَّر ..

السماء باتت تمطر معظم أيام السنة ، وعلى الرغم من هذا فالمزروعات ندرت أو انعدمت ، والسماء فقدت لونها الأزرق الصافى الجميل ، واكتست بسحب حمراء قاتمة ، اختفت خلفها الشمس أو كادت ..

أما الحيوانات والطيور ، فقد تطوَّرت ، وتحوَّرت ، وظهرت بينها أنواع وفصائل جديدة ، بعضها يجمع صفات مملكتين أو ثلاث ، من ممالك الحيوان والطير ، وبعضها اكتسب سمات وحشية ، أو صفات لم يكن لها وجود من قبل قط ..

وتلك التحورات أصابت البشر أيضًا ، حتى صار من النادر أن تجد بشريًّا عاديًّا ، لم يضف إليه التلوّث النووى سمة ما ، هنا أو هناك ..

ولم يمض نصف قرن من الزمان ، حتى تغيَّر وجه الأرض تمامًا ، ولم تعد أبدًا كما كنا نعرفها ..

وهنا ، بدأت حروب جديدة تبرز إلى السطح ..

حروب قادها فريق من البشر ، للسيطرة على باقى الفرق الأخرى ، وفرض هيمنته عليها كالمعتاد ..

وفى هذه المرة ، ومع التلوّث النووى ، الذى راح يتراجع ، ويتركَّز فى مناطق بعينها دون أخرى ، انقسم البشر إلى قسمين :

قسم متحوِّر ، اكتسب طبيعة وحشية رهيبة ، وقدرات حيوانية مخيفة ، ورغبة شرسة فى الهيمنة والسيطرة ، من منطلق إحساسه بالقوة والتفوّق ..

وقسم بشرى ، ظل محتفظًا بسماته الطبيعية ، وغرائزه السوية ، ورغبته القوية فى الحرية والاستقلال ..

لذا ، كان للحرب مذاق آخر ..

مذاق الدم ..

وبلا حدود ..

وعندما أعلن التاريخ مولد القرن الجديد ، كان العالم قد انقسم مرة أخرى إلى قوة عظمى ، تتمثَّل فى المتحوِّرين ، الذين تضاعفت قوتهم أكثر وأكثر وتضاعف معها سعيهم للسيطرة ..

والهيمنة ..

والتفوق ..

وإلى غالبيةَ بشرية ، تتناقص باستمرار وبسرعة ، على يد قتلة المتحوِّرين ، الذين انتشروا فى كل مكان كالجراد ..

وفى ذلك اليوم ، من بدايات القرن الثانى والعشرين ، كان صبى من البشر يتسلَّل فى حذر مذعور ، عبر كومة من الصخور الزرقاء ، محاولاً بلوغ الكهوف البعيدة ، التى اختفى داخلها قومه ، بعد أن غابت الشمس أو كادت ، وراء الأفق الملبَّد بالغيوم ..

كان يدرك جيِّدًا ، كما يدرك الآخرون ، أن أولئك المتحورين ينشطون مع هبوط الظلام ، وينطلقون للبحث عن ضحاياهم ، ولاقتناص كل من يقع فى براثنهم من البشر ..

كان يفصله عن الكهوف ثلاثمائة متر فحسب ، من أرض وعرة ، مغطاة بالصخور والأحجار الصغيرة المدبَّبة ، والشمس تغرب فى سرعة ، وتختفى فى الأفق ، و ...

« إلى أين يا هذا ؟! »

صكَّت العبارة مسامعه بغتة ، بذلك الصوت الخشن الغليظ ، فانتفض جسد المسكين فى رعب هائل ، واتسعت عيناه حتى بلغتا ذروتهما ، وهو يتراجع أمام المتحورين ، اللذين برزا أمامه ، على متن جوادين ضخمين ، لهما لون أحمر نارى ، وهتف فى ارتياع مذعور :

ـ لا .. لا .. الرحمة .

ثم دار على عقبيه ، وانطلق يعدو بكل قواه ، على الرغم من الصخور الصغيرة المدبَّبة ، التى أورمت قدميه وأدمتهما ، وهو يدرك أنه وقع فى قبضة هذين المتحورين ، فسيجعلان منه عشاء ليلتهما ، أو صيدًا يضاف رأسه إلى رءوس من سبقه من ضحاياهما ..

وفى سخرية عجيبة ، تبعه المتحوران ببصرهما ، دون أن يتحركَ أحدهما قيد أنملة ، ثم غمغم أحدهما :

ـ الآن .

لم يكد يتمّ قوله ، حتى انطلق مع رفيقه خلف الصبى ، الذى تضاعف رعبه وذعره ، فراح يطلق صرخات رهيبة مذعورة ، والظلام من حوله ينتشر .. وينتشر

.. وينتشر ..

ومع فارق القوة ، كان من الطبيعى أن يقترب منه المتحوران أكثر .. وأكثر .. وأكثر ، حتى أيقن من السقوط فى قبضتيهما ، وانهيار كيانه كله ، و ...

وفجأة ، برز ذلك الفارس ..

فارس ملثَّم ، قوى البنية ، ممشوق القوام ، يمتطى جوادًا أبيض اللون ، من فصيلة عربية نادرة ، لم يبد أن التحوّر قد شملها أبدًا ..

ولقد برز هذا الفارس فجأة ، من خلف كتلة ضخمة من الصخور الزرقاء ، وانقضّ على المتحورين كالليث ..

وكانت مفاجأة للصبى ..

ومفاجأة أكثر للمتحورين ، اللذين أوقفا جواديهما بحركة عنيفة واستلّ كل منهما مسدسه الليزرى من غمده ..

ولكن ذلك الفارس كان أكثر حزمًا ، وأكثر سرعة ..

ألف مرة ..

فقبل أن يكمل أيهمــا سحب مسدسه الليزرى ، كان هو يبرز مسدسه ، فى سرعة مذهلة ..

ويطلقه ..

وأمام عينى الصبى الذاهلتين ، أطاحت طلقات مسدس الفارس بمسدسَى المتحوّرين ، قبل أن تنطلق مرة ثانية ، نحو أحزمة سرجى جواديهما ، فتمزّقت ، واختلّ توازنهما ، وسقطا من على متن جواديهما ، سقطة قوية عنيفة ..

وبسرعة ، وقبل أن يسترد المتحورين توازنهما ، مال الفارس يلتقط الصبى ، ويرفعه إلى متن جواده ، ثم ينطلق به نحو منطقة الكهوف القديمة .. وفى غضب هادر ، نهض المتحوران ، وصوبّا مسدسيهما خلفه ، وأحدهما يصرخ فى ثورة :

ـ لن تفعلها وتفلت بهذه البساطة .

جذب الفارس معرفة جواده ، ومال به بحركة سريعة ، تجاوزت طلقة مسدس الليزر ، قبل أن ينحرف به ، فى براعة مدهشة ، ويختفى مع الصبى ، خلف كتل الصخور الزرقاء العملاقة ..

وفى حدة ، هتف المتحوِّر الثانى :

ـ إنه ذلك الفارس المجهول مرة أخرى .

انتزع الأوّل جهاز اتصال من حزامه بحركة حادة ، وهو يقول فى غضب شديد :

ـ فى هذه المرة ، نعرف أين هو على الأقل .

وضغط جهاز الاتصال ، وهو يقول فى عصبية :

ـ من رقم (١٠٠٩) إلى القاعدة .. الفارس هاجم مرة أخرى .. لدينا إحداثيات واضحة .. أكرِّر .. لدينا إحداثيات واضحة .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها قوله ، كان الصبى يهتف بالفارس مبهورًا :

ـ كيف .. كيف فعلتها ؟! كيف هزمت خصمين قويين وحشيين مثلهما ؟!

أجابه الفارس فى هدوء ، وهـو يواصل الانطـلاق نحو منطقة الكهوف :

ـ ما من خصم لا يمكنك الانتصار عليه ، لو علمـت أين ومتى ينبغى أن تضرب ضربتك .

سأله الصبى فى لهفة :

ـ ولماذا لم تقتلهما ، عندما كان بمقدورك هذا ؟!

أجابه الفارس فى حزم :

ـ لم تكن هناك ضرورة لهذا .

هتف الصبى :

ـ لو أنهما فى موضعك ، لما ترددا لحظة فى قتلك .

أجابه الفارس فى صرامة :

ـ أنا لست مثلهما .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ ولهذا انتصرت عليهما .

غمغم الصبى مبهورًا :

ـ حقًا ؟!

استدار الفارس إليه نصف استدارة ، وهـو يقـول ، فـى لهجـة بدت أبوية صافية ، وإن لم تخل من الحزم :

ـ هذا درس ينبغى أن تتعلمه .. لا تنحدر أبدًا إلى مستوى حقارة خصمك ؛ فأنت تنتصر عليه دومًا بمبادئك وعقيدتك وتقاليدك ، قبل أن تبرز أسلحتك فى المعركة .

صمت الصبى لحظة ، قبل أن يقول بصوت مرتجف :

ـ ولكن لو أنك قتلتهما ، لما واجهنا هذا .

سأله الفارس فى اهتمام قلق :

ـ واجهنا ماذا ؟!

أشار الصبى إلى أعلى ، قائلاً بصوت أكثر ارتجافًا :

ـ هذا !

وتتبَّع الفارس سبَّابة الصبى ، إلى حيث تشير ، قبل أن ينعقد حاجباه بمنتهى الشدة والتوتر ..

فهناك ، فى السماء المظلمـة ، ووراء منطقـة الكهوف ، كانت هنـاك ثـلاث حوّامـات آليـة صامتـة ، مزوَّدة بمدافـع ليزر قويـة ، تنطلق نحوهما مباشرة ..

وكان هذا يعنى أن تلك الليلة لن تمضى دون إراقة دماء . .

أبدًا .

* * *

انعقد حاجبا زعيم المتحولين فى شدة ، علـى نحو زاد ملامحـه قبحًا ووحشية ، وهو يطالع تقرير الأمن الأخـير ، قبـل أن يـتراجع فى عرشه الضخم ، وهو يقول فى شراسة ظافرة :

- إذن فقد عثرتم عليه أخيرًا .

أومأ رئيس أمنه برأسه إيجابًا ، وقال :

- إنها أول مرة يتم رصده فيها ، فى منطقة معروفة ؛ ففى كل مـرة ، كان يظهر على نحو مباغت ، ويهاجم فى عنف وقـوة ، وبسرعة تمنـع رجالنا حتى من رصد ملامحه ، أو تحديد هويته ، ثـم يضرب ضربتـه ، ويفر على متن جواده القوى ، دون أن نظفر به .. بخلاف هذه المرة .

ازداد انعقاد حاجبى الزعيم الكثين ، وهو يقول فى صرامة :

- إنكم لم تظفروا به بعد .

قاوم رئيس الأمن ابتسامته فى صعوبة ؛ ليحـافظ علـى مظهره القوى المتماسك ، وهو يقول :

- حوّاماتنا تحـاصره فى منطقـة مكشوفة هذه المرة .. وهـى مسألة وقت .

اعتدل الزعيم على عرشه ، ولوَّح بقبضته فى وجهه بشراسة ، قائلاً :

- هذا ما سمعته منك ، فى آخر مرة .

شدّ رئيس الأمن قامته فى حزم صارم ، وهو يجيب :

- اطمئن أيها الزعيم .. سنظفر به هذه المرة .. حتمًا .

التقط زعيم المتحورين قطعة أشبه بالمطاط اللدن ، واعتصرهـا بقبضته بضع مرات ، وهو يرمق رئيس أمنه بنظـرة ناريـة ، قبـل أن يقول بصوت مخيف :

- سنرى .. سنرى .

وازدرد رئيس الأمن لعابه بمنتهى الصعوبة ..

فهو يعلم ما يعنيه هذا القول ..

يعلمه تمامًا ..

* * *

انتفض الصبى فى عنف ، وامتلأت نفسه بالرعب والفزع حتـى النخاع ، وهو يحدِّق فى الحوَّامات الصامتة الثلاث ، التـى انقضَّت عليهما فى شراسة ، وهتف فى انهيار :

- انتهى أمرنا .

أجابه الفارس ، بمنتهى الحزم :

ـ ليس بعد .

هتف الصبى ، وهو يلتصق به في قوة ، وكأنما ينشد لديه حماية غامضة ، بدت له فى تلك اللحظة بعيدة المنال ، إلى حد مخيف :

ـ إنها مسألة دقائق .. لقد شاهدت هذه الأشياء الطائرة تهاجم فريقًا من أقاربى ، وتبيده فى لحظات .

انعقد حاجبا الفارس ، وهو يكرّر فى غضب :

ـ أشياء طائرة ؟! من الواضح أن جيلك ما زال يفتقر إلى أقوى سلاح فى مواجهة خصومه يا فتى ..

ثم لكز جواده فى قوة ، هاتفًا :

ـ المعرفة .

مع هتافه ، أطلق جواده صهيلاً قويًا ، واستدار بحركة سريعة ، تشف عن قوته ، ومهارة فارسه فى وقت واحد ، ثم انطلق يعدو براكبيه وسط صفين من الصخور الزرقاء الكبيرة ..

وبسرعة تشف عن المهارة والاحتراف ، انطلقت خلفه الحوّامات الثلاث ..

وانطلقت مدافعها الليزرية القوية ..

ودوت الانفجارات ..

دوت أمام الجواد ..

وخلفه ..

وحوله ..

وعلى عكس كل الجياد ، التى عرفها الصبى ، منذ نعومة أظافره ، لم يثر كل هذا فزع الجواد شاهق البياض ، والذى واصل الانطلاق بهما دون توقف ، مطيعًا أوامر وإرشادات صاحبه ، دون أن يتردَّد لحظة واحدة ..

وبكل دهشته وانفعاله ، هتف الصبى :

ـ كيف ؟! كيف يفعلها ؟!

أجابه الفارس ، وهو يجذب عنان جواده مرة أخرى ، فى سرعة ومهارة عاليتين :

ـ إنه ليس جوادًا عاديًا .

هتف الصبى :

ـ هذا يبدو واضحًا .

كان الفارس ينطلق بجواده المميَّز ، فى مهارة مدهشة ، نحو ممر ضيق ، بين جبلين ضخمين ، متفاديًا فى براعة مذهلة طلقات الليزر المتتالية ، التى تمطره بها الحوّامات الثلاث فى شراسة ..

وانتبه قادة الحوّامات إلى خطته ..

وعبر جهاز اتصال خاص محدود ، هتف قائد فريق الحوأمات بزميليه :

- لو بلغ ذلك الممر ، لن يمكننا اللحاق به أبدًا .

أجابه أحدهما فى حزم :

- لا يمكننـا أن نسـمح له بهـذا .. لقد سمعت تحذيرات القـائد بنفسك .

قال الأول فى حدة :

- ولا يمكننا أن نتحرك بعشوائية أيضًا .. هذا ما سمح لـه بـالفرار ، فى كل المرات السابقة .

وهنـا انبعـث صـوت الثـالث ، عـبر جهـاز الاتصـال الخـاص المحدود ، وهو يقول فى صرامة :

- استمعا إلىّ إذن .. فلدىّ خطة .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان الصبى يهتف مكررًا :

- جوادك هذا مدهش يا سيدى .. إننى لم أر جـوادًا مثلـه ، فى حياتى كلها .

سأله الفارس ، وهو يستحث جواده على الإسراع أكثر :

- هل تجيد التعامل مع الجياد ؟!

حمل صوت الصبى الكثير من الأسى ، وهو يجيب :

- عشيرتى لم تمتلك جيادًا قط .. أرى الآخرين يمتطونها فحسب .

انفرجت شفتا الفارس ، ليقول شيئًا مـا ، إلا أنـه عـاد يطبقهما فى سرعة ، وهو يتابع فى اهتمام حركة الحوأمات الثلاثة ..

فلسبب مـا ، توقّفت كلهـا عن إطـلاق أشـعة الليـزر فجـأة ، وانفصلت عن بعضها ، وتفرّقت فى ثلاثة اتجاهات ، فبقيت واحـدة خلفه ، وحلّقت الثانية فوقه ، فى حين تجاوزته الثالثـة ، وانطلقت مباشرة نحو ذلك الممر الجبلى ، الذى يتجه إليه ..

وبمنتهى الحزم ، هتف الفارس بالصبى :

- هناك حزام قوى ، مثبت فى مؤخـرة السرج .. أحكم رباطـه حول وسطك جيدًا .

لم يفهم الصبى مـا الذى يمكن أن يعنيـه هذا ، إلا أنـه ، ومع شدة رعبه وهلعه ، أطاع الأمر فى سرعـة ، وتشبّث أكثر وأكثر بالفارس ، فى نفس اللحظـة التى هتف فيها بمنتهى الشراسـة ، قائد فريق الحوأمات :

- الآن .

وقبل حتـى أن يكتمل قولـه ، بـدأت الحوأمـات الثـلاث مرحلـة الهجوم الثانية على الفور :

- الحوأمة التى خلفه ، أطلقت نحوه حزمة كبيرة من أشـعة لليزر

القاتلة ، وتلك التى تعلوه ألقت على رأسه عبوة ناسفة قوية ، أما تلك التى تجاوزته ، فقد أطلقت صاروخها نحو أحد الجبلين ، أعلى مدخل الممر مباشرة ..

وفى اللحظة المناسبة تمامًا ، وكأنما يقرأ أفكارهم بدقة مذهلة ، لكز الفارس بطن جواده ، وجذب عنانه فى قوة ، و ...

ووثب الجواد ..

وعلى الرغم من دوى الانفجارات العنيف ، فى الموضع الذى كان يحتله الجواد ، منذ لحظة واحدة ، وعند مدخل الممر ، فقد اتسعت العيون كلها بذهول ..

بمنتهى الذهول ..

حتى الصبى ، انطلقت من حلقه شهقة قوية ، وهو يحدق فيما أمامه ، وقد خيل إليه أنه فى حلم عجيب ، وليس فى واقع يحيط به من كل جانب ..

فصحيح أن الجواد الأبيض يبدو عربيًا ، قويًا ، متينًا ، إلا أن الوثبة التى قام بها ، كانت تتجاوز كل ما يمكن أن يستوعبه أى عقل بشرى ..

تتجاوزه بكثير ..

كثير جدًا ..

فالصخور ، التى تحيط به من الجانبين ، كانت ضخمة هائلة ، تتجاوز المترين ارتفاعًا ، وعلى الرغم من هذا ، فقد تجاوزها كلها بوثبة جانبية مذهلة ومبهرة ، جعلته يبدو كما لو أنه لا يثب ، وإنما يطير ..

يطير عاليًا ، لأربعة أمتار كاملة ، فى خفة ورشاقة مذهلتين ، قبل أن يهبط على قوائمه ، ثم يعاود الانطلاق مرة أخرى بسرعة مدهشة ..

وبكل ذهول الدنيا ، هتف قائد فريق الحوامات :

- مستحيل .. هل رأيتما هذا ؟! هل رأيتماه ؟!

هتف آخر ، فى انبهار مماثل :

- لابد وأن نبلغ القيادة بما رأيناه فورًا .. هذا سيغير حساباتهم كلها حتمًا ، و ....

بتر عبارته بغتة ، عندما انتبه إلى أن حوامة زميله تندفع نحوه بحركة عشوائية ، وكأنما لم يفارقه ذهوله بعد ، فصرخ به ، عبر جهاز الاتصال الخاص المحدود :

- ماذا تفعل يا رجل ؟! انتبه !

نبهت الصرخة زميله بالفعل ، وانتزعته فى ذهوله ، ففوجئ باندفاعه غير المدروس نحوه ، فهتف فى ارتياع ، وهو يحاول السيطرة على حوامته بسرعة :

- اللعنة ! كيف ؟!

ولم يكتمل هتافه أبدًا ..

فالمسافة التى تفصله عن زميله كانت قليلة للغاية ..

بل أقل مما ينبغى ..

لقد جذب عصا القيادة بكل قوته ..

وكذلك فعل زميله ..

ولكن غياب التناسق بينهما ، اشترك مع حالة الذعر والتوتر ، وامتزجا معًا بعامل المفاجأة والانفعال ، فاندفع كلاهما نحو الآخر ، بدلاً من أن ينخفض أحدهما ويرتفع الآخر ، كما كان ينبغى ..

وأمام عينى زميلهما الثالث ، ارتطمت الحوّامتان ..

وتحطّمت مراوحهما فى عنف ..

وتطايرتا على نحو مخيف ..

ثم هوتا معًا فى سرعة ..

وارتطما بالصخور الزرقاء الضخمة ..

وكان الانفجار رهيبًا ..

رهيبًا بحق ..

انفجار سحق الحوّامتين تمامًا ، وارتفعت معه كرة هائلة من اللهب ، أضاءت سماء الليل المظلمة ، وجعلت الصبى يهتف مبهورًا مبهوتًا :

- رباه .. لقد سقطتا .. لقد انتصرت عليهم .

أجابه الفارس ، وهو يواصل انطلاقه ، عبر الأرض الواسعة ، التى تنتشر فيها الصخور الزرقاء الحادة :

- درسٌ آخر ، ينبغى أن تتعلمه يا فتى .. لا تفرح بالنصر ، قبل أن تظفر به فِعْلاً ، فأضعف اللحظات بالفعل ، هى التى تتملكك فيها نشوة النصر ، فتتجاوز حذرك ، وتهمل أمنك وسلامتك ، وتمنح عدوك فرصة الانقضاض عليك ، واستعادة النصر منك ، فى دقائق قليلة .

بدا الصبى مبهورًا ، وهو يغمغم :

- هل يمكن أن يحدث هذا حقًّا ؟!

أجابه الفارس ، وهو يثب بجواده العجيب ، عبر شق كبير فى الأرض :

- ذكّرنى أن أقص عليك يومًا قصة (طروادة) ، والجواد الخشبى ، الذى انتزع منها أمنها ونصرها(*) .

ارتجف صوت الصبى ، وهو يقول فى رعب :

- جواد خشبى ، أم حوّامة قاتلة ؟

ومع قوله ، رفع الفارس عينيه إلى أعلى ، ووقع بصره على الحوّامة الثالثة ..

(*) طروادة : مدينة قديمة شرق (هلسرليك) فى (تركيا) ، ذكرها الشاعر العظيم (هوميروس) فى ملحمته (الإلياذة) واستعان الأثرى الألمانى (هينيريش شليمان) بما ورد فى تلك الملحمة ، ليقوم بعدة حفريات متتابعة (١٨٧٤ - ١٨٨٢م) ، حتى عثر عليها بالفعل ، وعلى آثار الحرائق والدمار ، التى تثبت أن (طروادة) كانت حقيقة ، وأنها كانت من أهم مراكز الحضارة ، حول بحر أيجه .

الحوّامة ، التى أطلقت أحد صواريخها القوية نحوه مباشرة ..

ومع الزاوية التى ينطلق بها ، كان أى انحراف ، إلى اليمين أو اليسار ، غير كافٍ للإفلات من الانفجار ..

غير كافٍ على الإطلاق .

* * *

لم يستطع رئيس الأمن كتمان توتره الملحوظ ، وهو يشد قامته فى وقفة عسكرية عصبية ، داخل كابينة الأمن ، عند مدخل مقر زعيم المتحورين ، وسمع ذلك الصوت الآلى البارد ، وهو يقول :

ـ اكتم أنفاسك لنصف الدقيقة ، حتى يتم التحقُّق من الشخصية تمامًا .

كتم رئيس الأمن أنفاسه فى قوة ، فى نفس اللحظة التى انبعثت فيها مجموعة من خيوط الليزر الفاحصة ، من عدة أماكن داخل الكابينة ، وراحت تفحص كل مكان فى جسده بسرعة ..

مواصفاته الجسدية ..

ملامحه ..

بصماته ..

درجة حرارية ..

توزيع مسامه العرقية ..

وأخيرًا نقوش قزحيته ، ودرجة لونها ..

حتى وقبل أن تكتمل نصف الدقيقة ، انبعث ذلك الصوت الآلى البارد مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ تم التحقُّق من الشخصية .. رئيس دائرة الأمن .. يمكنك الدخول .

مع نهاية العبارة ، انفتح الباب الخلفى من الكابينة ، والمطل على قاعة الزعيم مباشرة ، فالتقط رئيس الأمن نفسًا عميقًا ، وحاول أن يخفِّف به من توتره ، وهو يعبر القاعة فى خطوات واسعة سريعة ، قبل أن يقف أمام الزعيم ، الذى واصل العبث بذلك الجسم شبه المطاطى ، وهو يرمقه بنظرة صارمة مخيفة ، جعلته يتساءل فى عصبية :

ـ لماذا طلبت مقابلتى فورًا أيها الزعيم ؟!

أجابه الزعيم ، بصوته الخشن الجاف :

ـ رجالك فاشلون .

انعقد حاجبا رئيس الأمن ، وهو يتساءل فى قلق :

ـ ولماذا أيها الزعيم ؟!

مال الزعيم إلى الأمام ، وهو يقول ، فى لهجة وحشية قاسية :

ـ حوّاماتهم ارتطمت ببعضها البعض ، وسقطت فى الوادى الأزرق .

واتسعت عينا رئيس الأمن عن آخرهما ، وهو يُحدِّق فيه بكل ذهول الدنيا ..

فسقوط الحوَّامتين حدث منذ ثوان قليلة ، قبيل استدعائه مباشرة ! !

بل لقد بلغه الخبر ، من قائد الحوَّامة الثالثة ، في نفس الوقت ، الذي استدعاه فيه الزعيم تقريبًا ! !

فكيف علم بالأمر ؟!

كيف أدركه ، بهذه السرعة المذهلة ؟!

كيف ؟!

« إنك لا تحسن اختيار رجالك » ..

انتزعه الزعيم بعبارته الوحشية من ذهوله ، فسعل مع توتره ، وحاول أن يشدّ قامته مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ لقد سقطت حوَّامتان فحسب أيها الزعيم .. والثالثة ما زالت تطارده ، وقائدها هو أفضل مقاتلينا على الإطلاق .

مال الزعيم على عرشه أكثر وأكثر ، وهو يقول :

ـ وماذا عنك ؟!

نطقها بقدر هائل من الوحشية ، جعل برودة قاسية تسرى في أطراف رئيس الأمن ، وهو يتساءل :

ـ ماذا عنى ؟! ماذا تعنى أيها الزعيم ؟!

نهض الزعيم من عرشه بحركة حادة ، انتفض معها جسد رئيس الأمن ، وتراجع بحركة حادة ، امتزجت بصوت الزعيم الوحشى الجاف ، وهو يقول :

ـ إننى أتساءل : ماذا عنك ؟! ألست أيضًا أفضل مقاتلينا .. أم أنك لا تستحق المنصب ، الذى منحتك إياه ؟!

كان يهبط درجات عرشه ، وهو ينطق كلماته ، فتراجع رئيس الأمن أكثر وأكثر ، وهو يغمغم :

ـ إننى .. إننى أخدمك بمنتهى الإخلاص أيها الزعيم .

عقد الزعيم كفيه خلف ظهره ، وهو يدور حوله ، ويرميه بنظرات نارية وحشية ، قائلاً :

ـ وماذا عن الكفاءة ؟! هل تتصوَّر أن الإخلاص وحده يكفينى ؟!

تضاعفت عصبية رئيس الأمن ، وهو يقول :

ـ كفاءتى ليست موضع شك أيها الزعيم .

قال الزعيم ، فى بطء وحشى مخيف :

ـ حقًا ؟!

تحفَّزت كل حواس وغرائز رئيس الأمن ، وخُيِّل إليه أن رائحة

وحشية مخيفة تنبعث من الزعيم ، الذى واصل دوراته حوله ، فى حركة لا توحى بالارتياح أبدًا ، فارتفعت حرارة الدماء فى عروقه ، وبرزت أنيابه ومخالبه ، على الرغم من محاولته كبحهما ، و...

وهنا ، انطلقت زمجرة وحشية من الزعيم ، وهو يبتسم ابتسامة مخيفة ، برزت خلالها أنيابه الطويلة ، على نحو جعله أشبه بوحش مفترس ، وخاصة عندما تطلّع إلى وريد عنق رئيس الأمن ، قائلاً :

- آه .. مشاعرك تبدو عدوانية يا رجل .

أجابه رئيس الأمن ، فى عصبية أكثر :

- ومشاعرك أيضًا أيها الزعيم .

بعد قوله ، ران على القاعة الرخامية صمت رهيب ، وتوقّف الزعيم عن الدوران حوله ، وتطلّع فى اهتمام أكثر إلى وريده العنقى ، وانبعثت منه تلك الرائحة الوحشية الفوّاحة ، و...

وفجأة ، انقض على رئيس الأمن ..

واستدار هذا الأخير لمواجهته ، فى عنف شرس وحشى ..

ولثوان ، انطلقت داخل القاعة الرخامية الواسعة زمجرات رهيبة ، وأصوات أشبه بعواء الذئاب ، أو خوار الثيران ، وامتزج كل هذا بصرخات ألم قوية ..

وتفجّرت الدماء بمنتهى العنف ..

وفى صرامة وحشية ، نهض الزعيم ، ومسح الدماء عن فمه بحركة حادة ، قبل أن يقول فى شراسة :

- كان ينبغى أن تنسحب ، عندما كان هذا متاحًا .

وفى هدوء شديد ، عاد إلى عرشه المرتفع ، وأنيابه ومخالبه تقصر ، وتعود إلى شكلها الطبيعى ، وما إن استقر على العرش الضخم ، حتى ضغط زرًا أمامه ، فأضيئت شاشة كبيرة ، ظهرت عليها صورة كبير معاونيه ، فأشار بيده ، وهو يقول له فى لهجة آمرة صارمة :

- أظننا سنحتاج إلى رئيس أمن جديد ؟

أجابه كبير المعاونين فى سرعة :

- إنه ينتظر أوامرك ببدء عمله أيها الزعيم .

زمجر الزعيم ، قائلاً :

- فليبدأ فورًا .. ليس لدينا وقتٌ نضيعه .

أجاب كبير المعاونين فى امتثال :

- أمرك أيها الزعيم .

أومأ الزعيم برأسه فى زهو ، ثم ألقى نظرة لا مبالية ، على جثة رئيس أمنه السابق ، الغارقة وسط بركة من الدم ، وقال فى سخرية :

ـ أرسل أيضًا من ينظف القاعة .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يتابع بنفس السخرية :

ـ فأنا أبغض رؤية الدماء .

قالها ، وأطلق ضحكة عالية قوية ..

ضحكة تموج بالسخرية ..

والشراسة ..

والوحشية ..

بلا حدود ..

* * *

وفقًا لكل القواعد القتالية المعروفة ، وللمسار الذى يتخذه الفارس وجواده ، والزاوية التى تنقض بها الحوامة الأخيرة ، كان من المستحيل تمامًا أن يخطئ المقاتل المتحول هدفه ..

لقد استنفر كل قوته وخبراته ، ودار دورة صامتة واسعة ، فى سماء المعركة ، ثم هبط بزاوية حادة مباشرة ، وكشف الغطاء عن زر إطلاق صاروخه الوحيد ، وأحكم التصويب على الهدف ، وغمغم فى شراسة :

ـ فلنر كيف تنجو هذه المرة ، أيها الفارس المتحذلق .

ولأنه واثق تمامًا من الفوز هذه المرة ، فقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة ، وهو يضغط زر إطلاق الصاروخ ، و ...

وهنا فقط ، تحرك الفارس ..

كان الصبى يتوقع منه أن يدفع جواده الخاص إلى وثبة قوية ، تنافس تلك التى نجا بها من الممر ..

ولكن الفارس كان يخطط لدفاع مختلف ..

مختلف تمامًا ..

ففى اللحظة المناسبة تمامًا ، مال على عنق جواده ، وضغطه براحته ، دون أن ينبس ببنت شفة ..

وانطلقت من حلق الصبى شهقة أخرى ..

شهقة أكثر قوة ..

وأكثر انبهارًا ..

ألف مرة ..

فمع ضغطة الفارس على العنق ، برز من جانبى الجواد جناحان صغيران ، تمددا وانفردا فى سرعة ، ثم رفرفا فى قوة ؛ ليحملاه مع راكبيه عاليًا ..

فى سماء المعركة ..

وبكل ذهول الدنيا ، وفى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها صاروخه ، هتف قائد الحوَّامة الأخيرة فى ذهول :

ـ مستحيل !

ومع آخر حروف هتافه ، ارتطم الصاروخ بالأرض ..

ودوى الانفجار ..

انفجار قوى ، عنيف ، رهيب ، لم تكد نيرانه ترتفع ، حتى بدا وكأن الفارس وجواده يقتحمانها فى بسالة ، وينقضان منها على الحوَّامة مباشرة ..

واتسعت عينا قائد الحوَّامة فى ذهول ..

وانفغر فاهه فى انبهار ..

وأطلق الفارس مسدسه الليزرى ..

أطلقه على المروحة العلوية للحوَّامة ، فتحطَّم أحد أطرافها ، وطار بعيدًا ، ليرتطم بالجبال القريبة ، فى نفس اللحظة التى راحت فيها الحوَّامة تهوى ..

وتهوى ..

وتهوى ..

وبكل ما يملك من قوة ومهارة ، راح قائد الحوَّامة يتعامل معها ، ويقاتل للسيطرة عليها ، حتى لا ترتطم بالأرض فى عنف ..

ومن بعيد ، وعلى متن الجواد ، الذى يُحلِّق فى السماء ، مبتعدًا عن المنطقة ، رأى الصبى الهليوكوبتر ترتطم بالأرض ، فى عنف محدود ، ويتحطَّم جانبها ، دون أن تنفجر ، فغمغم مبهورًا :

ـ سيِّدى .. لك أسلوب فريد فى القتال ، وهذا الجواد أشبه بـ.... بـ ..

بدا لحظة وكأنه يحار فى البحث عن الوصف المناسب ، قبل أن يندفع ، هاتفًا بكل انبهاره :

ـ بالمعجزة!

أجابه الفارس فى هدوء ، وهو يهبط بجواده ، فى منطقة جبلية أخرى :

ـ لا توجد معجزات فى زمننا هذا يا فتى .

هتف الصبى :

ـ بعد كل ما رأيته ، لا يمكنك إقناعى بهذا أبدًا .. لقد روى لى جدى روايات عن الجياد الطائرة ، وأكَّد لى أنها كلها مجرَّد أساطير ، لا صلة لها بالواقع .. وها أنا ذا أراها .. بل وأمتطى أحدها بالفعل .. كيف ترفض ـ بعد كل هذا ـ تسمية ما يحدث بالمعجزة ؟!

أجابه الفارس فى حزم ، وجواده يستقر على الأرض :

ـ هناك دومًا تفسير علمى ، لكل ما يبدو لك كالمعجزة ، فى هذه الأزمنة الحديثة .

تطلّع الفتى فى انبهار ، إلى جناحى الجواد ، اللذين عادا ينكمشان مع هبوطه ، ويختفيان فى صدره القوى ، وهو يتساءل :

ـ وما تفسير هذه الأمور المذهلة ؟!

ولم يجب الفارس تساؤله ..

فلسبب ما انعقد حاجبـاه فـى شـدة ، وبـدا عليه توتـر عجيب ، وهو يحدّق فى الفراغ ، بنظرة هوى لها قلب الصبى بين قدميه ..

وبمنتهى العنف .

* * *

٢ ـ المذبحــــة ..

مع سقوط الحوّامة الأخيرة وتحطّمها ، انطفأت آخر شاشة رصد ، مثبتة فى عرش زعيم المتحولين ، فانعقد حاجباه الكثّان فى شدة ، وانطلقت من حلقه زمجرة وحشية ، قبل أن يقول فى خشونة :

ـ أغبياء .

ضغط زر إلغاء الاستقبال ، عبر الكاميرات ، التى تم تثبيتها فـى مقدمة الحوّامات ، وهو يتابع فى غضب :

ـ فارس واحد ، على متن جواد طائر ، أصـابهم جميعًا بـالذعر والارتباك .

ضغط أزرار استعادة المشاهد ، وتراجع فى عرشـه ، يتابع تفـاصيل القتال ، كما نقلتها إليه آلات التصوير الخفية ، التـى يضيفهـا إلـى كل الحوّامات المقاتلة فى جيشـه ، دون علم قادتـه أنفسهم ، وأوقف العرض مرتين ، عند مشـهد وثـوب ذلك الجواد عبر الصخـور ، وطيرانه بجناحيه الكبيرين ، فى مواجهة الحوّامة الأخيرة ..

ولدقائق ، راح يستعيد المشهدين مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وفى النهاية ، راح يحك نقه بمخالبه فى عصبية ، وهو يغمغم :

ـ جواد مدهش بحق .. ولكن كيف حصل عليه ذلك الفـارس ؟! كيف ظفر بتحفة فنية مثله ؟!

اعتدل على عرشه ، وهو يفكّر فى عمق شديد ..

وعلـى نحـو مـا ، تـألّقت عينـاه ، وانبعثت منـــه تلـك الرائحـة الوحشية الرهيبة ..

انبعثت ..

وانبعثت ..

وانبعثت ..

ثم فجأة ، استدار يضغط زر الاتصال الداخلى ، وهو يغمغـم فـى وحشية :

ـ ما زال ذلك الفارس يعانى من نقطـة ضعـف .. نقطـة ضعـف خطيرة للغاية .

ظهر وجه كبير معاونيه على الشاشة ، وهو يقول :

ـ أوامرك أيها الزعيم .

مال الزعيم نحـو شاشـة الاتصـال ، وتـألّقت عينـاه فـى وحشية رهيبة ، وهو يقول :

ـ استنفر القوات كلها .. سنشن هجومًا شاملاً .

سأله كبير معاونيه فى اهتمام :

ـ والهدف أيها الزعيم ؟

صمت الزعيم لحظة ، ثم أجاب بكل وحشية الدنيا :

ـ البشر ..

ثم عاد يطلق تلك الضحكة الرهيبة ..

الضحكة العالية ..

المجلجلة ..

والوحشية ..

* * *

يا للبشـاعة !

هتف الفارس بالعبارة فى توتّر شديد ، مخفق قلب الصبى فـى ارتياع ، وهو يهتف به :

ـ ماذا هناك ؟! هل تشعر بهجوم جديد ؟!

إلا أنه لم يلبث أن أحجم عن هذا ، وعاد يجذب عنـان جواده ، قائلاً فى صرامة شديدة :

ـ تشبث جيدًا .

هتف به الصبى فى ارتياع :

ـ إلى أين ؟

صاح به فى صرامة ، امتزجت بالكثير من الحزم هذه المرة :

ـ سنبتعد عن هنا بقدر الإمكان .

هتف الصبى :

ـ ولماذا ؟! عشيرتى فى الجانب الآخر .

انعقد حاجبا الفارس فى شدة ، وهو يحث جواده العجيب على الانطلاق بسرعة أكبر ..

وأكبر ..

وأكبر ..

وارتجف قلب الصبى بين ضلوعه فى عنف ..

فصمت الفارس كان يعنى أن الأمر خطير ..

خطير إلى أقصى حد ..

ثم أن السرعة ، التى يطلق جواده بها ، فوق الوادى الأزرق ، كانت توحى بأنه هناك خطر داهم ، يسعى للابتعاد عنه لأكبر مسافة ممكنة ..

وبأقصى سرعة ..

ولم يكن من الممكن أبدًا أن يكتفى الصبى بهذا الصمت ، لذا فقد صاح فى إصرار عصبى :

ـ ماذا سيحدث ؟! . مم نفر بهذه السرعة ؟!

ومرة أخرى ، لاذ الفارس بالصمت المطبق ، وحث جواده على الإسراع أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

كان يدرك أن الخطر قادم من خلفهما ..

وبأقصى سرعة أيضًا ..

ومرة ثالثة ، صرخ الصبى :

ـ ماذا سيحدث ؟!

وقبل حتى أن تكتمل صرخته هذه المرة ، دوى الانفجار ..

انفجار بدأ مكتومًا ، وارتجَّت معه الأرض كلها بمنتهى العنف ، ثم أضيئت السماء كلها بعمود هائل من النار ، ارتفع من موقع الجبال ، التى تحتلها عشيرة الصبى ، قبل أن تتكوَّن فى قمة العمود كرة مخيفة من اللهب ، راحت تمتد ..

وتمتد ..

وتمتد ..

وعندما أدار الصبى رأسه إلى الخلف ، انتفضت كل ذرة من كيانه ..

وبمنتهى العنف ..

فكل ما وقع بصره عليه ، وسط الوهج الرهيب ، هو كرة من اللهب ، تتجه نحوهما بسرعة مخيفة ..

أما الموضع ، الذى كانت تحتله جبال عشيرته ، فكان يقع فى قلب الوهج ..

فى قلبه تمامًا ..

وبكل الأسى ، واللوعة ، والرعب ، والمرارة ، صرخ الصبى ..

صرخ ..

وصرخ ..

وصرخ ..

أما الفارس ، فقد أدرك أن النيران تندفع نحوهما ، فحث جواده على الإسراع أكثر وأكثر ، ثم لم يلبث أن مال على عنقه ، وضغطه فى قوة ، وهو يهتف فى انفعال :

ـ هيا يا صديقى .. هيا .

ومع ضغطته ، برز جناحا الجواد ، وامتدا ، وبدأ أشبه بطائر هائل عملاق ، وهو يحلق عاليًا ، والصبى يهتف فى مرارة :

ـ أهلى ! عشيرتى .. ماذا أصابهم ؟! ماذا أصابهم ؟!

ومع تلك الغصة المريرة فى حلقه ، لم ينبس الفارس ببنت شفة ، وهو يستحث جواده على التحليق أكثر وأكثر ؛ للإفلات من كتلة اللهب الهائلة ، التى تمتدّ فى سرعة مخيفة ، حتى أنهم باتوا يشعرون بلفحاتها ..

ولأن الجواد من نوع خاص جدًا ، فقد راح يضرب الهواء بجناحيه بمنتهى القوة ، ويبتعد ..

ويبتعد ..

ويبتعد ..

وامتزجت دموع الصبى بذلك العرق الغزير ، الذى غمر وجهه ، وجسده كله ، مع لفح النيران ، وراح يبكى وينتحب ، ويغلق عينيه فى قوة ، وكأنما يحاول إبعاد ذهنه عن ذلك المصير الرهيب ، الذى لاقاه كل من يعرفهم ويحبهم ..

أما الفارس ، فقد تضاعفت فى أعمق أعماقه كراهية المتحولين ..

تضاعفت ألف مرة ..

فبلا ذرة واحدة من الرحمة أو الشفقة ، أعادوا استخدام أسلحة التدمير الشامل ، التى أوصلت العالم إلى ما هو عليه الآن ؛ ليبيدوا عشيرة بأكملها ..

إبادة تامة ، وحشية ، رهيبة ، سحقت نصف الجبل على الأقل ، ورفعت درجة حرارة صخوره إلى آلاف الدرجات المئويــة ، بحيث لا تصلح لإيواء أى كائن حى ، على الإطلاق ..

صحيح أنهم قد استخدموا قنابل غير مشعة ، إلا أنها تؤدى إلـى قوة تدميرية رهيبة ..

رهيبة إلى أقصى حد ..

وتلك الكرة من اللهب ، التى تطاردهم فـى شراسـة ، هـى أكبر دليل على هذا ..

الكرة التى جعلت جسده كله يتصبَّب عرقًا ..

وتوترًا .. و ...

تشبَّث جيدًا !

هتف الفارس بالعبارة ، وهو ينخفض بجواده المجنَّح فجـأة ، وكرة اللهب تواصل امتدادها ..

وتنقضّ ..

وتنقضّ ..

وتنقضّ ..

ومع كل المشاعر المتضاربة فى أعماقه ، راح الفتى يصرخ :

ـ عشيرتى ! لماذا فعلوا هذا بعشيرتى ؟! لماذا ؟! لماذا ؟!

عضّ الفارس شفته السفلى ، وهو لا يدرى بم يجيب الصبى !

فالجواب الوحيد هو أنهم يواجهون خصومًا من نوع خاص ..

نوع قاس ..

وحشى ..

مفترس ..

خصوم هم نتـاج تحـولات وتحـورات جينيـة ، عبر جيلين من البشر ، نشئوا فى عالم شمله التلوث النووى حتى النخاع ..

خصوم يحملون هيئة شبه بشرية ..

وأعماق حيوانية ..

أعماق وحشية مفترسة ..

خصوم ، لا تحوى قلوبهم ذرة واحدة من الآدمية ..

أو الرحمة ..

أو الشفقة ..

فقط الأنانية ، والعنف ، والشهوة ، الرغبة فى التفوق والاستحواذ ..

وبأى ثمن ..

ولأنهم كذلك ، ولأنهم خسروا معركتهم معه ، فى هذه البقعة من الوادى الأزرق المنبوذ ، كما يطلقون عليـه ، فقد عـاقبوا المنطقة كلها ، بكل ما فيها ومن فيها بالفناء ..

الفناء التام ..

وبمنتهى العنف ..

وفى أعمق أعماقه ، شعر وكأنه مسئول عما حدث ..

مسئول عن هذه المذبحة الرهيبة ..

مسئول عن فناء أهل الصبى ..

وأقاربه ..

وعشيرته ..

عشيرته كلها ..

وبكل ما يعتمل فى أعماقه ، هتف :

ـ سيدفعون الثمن ..

وانخفض بجواده أكثر ، وأكثر ..

وتضاعف لفح النيران ..

وصرخ الصبى ..

صرخ بكل المرارة ، والخوف ، والفزع ، والرعب ..

ثم جذب الفارس عنان جواده ..

وانحرف الجواد المجنح نحو جبل هائل آخر ..

وامتدت كرة اللهب أكثر ..

وأطلق الصبى صرخـة أخيرة ، قبل أن يفقد الوعى من شدة الرعب ..

وبعدها ، غمرت كرة اللهب المنطقة ..

المنطقة كلها ..

بلا استثناء .

* * *

تألقت عينا زعيم المتحولين ، فى جذل وحشى عجيب ، وهو يطـالع على شاشته ذلك الانفجار الرهيب ، الذى سحق الجبـل سحقًا ، وأفنى كل ما فيه ومن فيـه فى لحظات ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة جعلته أشبه بوحش مفترس ، وهو يراقب امتداد كرة اللهب ، التى غمرت المنطقة كلها بلا استثناء ، قبل أن يقول لقائد أمنه الجديد :

ـ هل رصدتم المنطقة بعد الانفجار ؟!

أومأ قائد الأمن الجديد برأسه إيجابًا ، وقال فى حزم :

ـ الفناء امتد فى دائرة قطرها ستة كيلو مترات أيها الزعيم ، ومن المستحيل أن يبقى مخلوق واحد على قيد الحياة ، فى المنطقة كلها ، بعد ماحدث ، ولكن ..

بتر عبارته بغتة ، فى تردُّد شديد ، فانعقد حاجبا الزعيم فى غلظة ، وهو يسأله :

ـ ولكن ماذا ؟!

تردَّد قائد الأمن الجديد بضع لحظات أخرى ، قبل أن يحسم أمره ، ويندفع ، قائلاً :

ـ ولكن العسكريين يعترضون على استخدام قنبلة كهذه ، فى عملية محدودة النتائج ؛ لأن مخزوننا من القنابل الشاملة محدود للغاية ، ولم تعد لدينا الطاقة الكافية ؛ لإنتاج المزيد منها .

تراجع الزعيم فى عرشه الضخم ، ولوَّح بذراعه ، قائلاً فى ازدراء :

ـ هؤلاء العسكريون أغبياء .

ارتبك قائد الأمن ، ولم يحر جوابًا ، فتابع الزعيم فى مزيج من السخرية والاشمئزاز :

ـ يتصوَّرون أنهم على دراية بكل شىء ، فى حين أنهم حمقى فى كل ما لا يتعلق بالعسكرية الصرفة .

تردَّد قائد الأمن لحظة أخرى ، قبل أن يقول فى حذر زائد :

ـ ربما يخشون أن ...

قاطعه الزعيم ، وهو يتابع ، وكأنه لم يسمعه :

ـ ذلك الفارس ، الذى كبدنا عشرات الهزائم من قبل ، ظهر لأوَّل مرة ، وكشف لنا نقاط قوته ، ونقاط ضعفه أيضًا .. ومن أبرز ما كشفه ، هو أنه يعانى من نقطة ضعف كبيرة ، تجاه البشر ، الذى يتكبَّد ويتجشَّم الكثير ، فى سبيل حمايتهم وإنقاذهم .

ثم اعتدل بحركة حادة ، وتألَّقت عيناه ببريق مخيف ، وهو يضيف :

ـ وبضربتنا هذه ، أصبنا نقطة ضعفه فى مقتل .

غمغم قائد الأمن الجديد فى حذر أكثر :

ـ لقد أفنينا عشيرة بأكملها .

أشار الزعيم بيده ، هاتفًا فى انفعال :

ـ وسيدفعه هذا إلى التيقن من أننا قادرون على إبادة عشائر أخرى وأخرى ، بل وعلى إفناء كافة البشر لو أردنا .

همَّ قائد الأمن الجديد بإبداء رأيه فيما حدث ، إلا أنه استرجع ما أصاب سلفه ، فآثر التراجع ، وهو يقول :

ـ من المؤكَّد أنه كانت لديك رؤية مستقبلية ، تفوق إدراكهم أيها الزعيم .

تألّقت عينا الزعيم مرة أخرى ، بتلك البريق المخيف ، وهو يقول :

ـ بالطبع .

ثم نهض من عرشه بغتة ، حتى أن قائد الأمن تراجع فى حركة عصبية ، إلا أنه لاحظ أن الزعيم يكاد لا يشعر بوجوده ، وهو يتابع ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ لو نجا من انفجار القنبلة البروتونية المحدودة ، وأظنه قد فعل ، فسيعى الدرس جيّدًا ، وعندما نهدّده بقتل وإفناء عشيرة أخرى ، فى المرة القادمة ، سيوقن من أننا سنفعل ، دون ذرة واحدة من التردُّد ، ولن يكون أمامه عندئذ ، سوى أن يمنحنا ما نريد .

هتف قائد الأمن فى سرعة :

ـ حياته .

تضاعف بريق عينى الزعيم هذه المرة ، وهو يجيب فى لهفة وحشية عجيبة :

ـ بل جواده .

خُيّل لقائد الأمن أن أذنيه لم تستوعبا الأمر جيّدًا ، فتساءل فى حذر مضاعف :

ـ جواده ؟!

هتف الزعيم بكل اللهفة :

ـ نعم .. جواده الطائر .. جواده المجنّح .. تلك التحفة الفنية ، التى لا تحوى متاحفى كلها مثلها .

ـ هل أفنينا عشيرة كاملة من أجل جواد ؟!

كان قائد الأمن يرغب فى إطلاق هذا التساؤل المستكر المستهجن ، بكل ما يملك من قوة ، فى وجه الزعيم ، إلا أنه لم يستطع نطق حرف واحد منه ، فكتمه فى أعماقه تمامًا ، وهو يحدّق فى وجهه ، الذى حمل كل وحشية وانفعال الدنيا ، مما جعل قائد الأمن الجديد يدرك أنه ، وعلى الرغم من اشتراكه فى العديد من الصفات الجينية المتحوّرة مع الزعيم ، إلا أن هذا الأخير يعانى حتمًا من الجنون ..

الجنون المطبق ..

* * *

اشتعلت النيران فى كل مكان ..

اشتعلت وتصاعدت ..

والتهبت ..

وتأجّجت ..

وبكل رعب الدنيا ، تلفّت الصبى حوله ..

النيران تحيط به من كل جانب ..

صرخات أهله وعشيرته تصمّ أذنيه ..

العذاب يسرى فى كل مكان من جسده ..

بل فى كيانه كله ..

المتحوِّرون يحاصرونه ، خلف حاجز النيران ..

يبتسمون ..

يسخرون .

يستهزءون ..

ينتظرون أن تنقض عليه النيران ، وتلتهمه بلا رحمة ..

ولقد حاول هو أن يجد منفذًا للفرار ..

أى منفذ ..

ولكن طوق النيران كان محكمًا إلى أقصى حد ..

وكان يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

وشعر الصبى بلفح النيران ..

وصرخ ..

وصرخ ..

و ....

واستيقظ ..

استيقظ وهو يلهث فى قوة ، وكأنما كان يعدو لمسافات طوال ..

أما قلبه فكان يخفق بمنتهى القوة ..

ومنتهى العنف ..

وإلى أقصى مدى ، اتسعت عيناه ..

اتسعتا ليحدِّق بهما فيما حوله ..

فى البداية ، لم يستوعب الأمر كله ؛ فقد كان يرقد داخل ما بدا له كقاعة واسعة ، تحوى عشرات من شاشات الرصد ، وعدد كبير من الأجهزة والمعدات ، التى لم ير مثلها فى حياته القصيرة قط ..

وهناك ، فى نهاية القاعة ، كان يقف ذلك الجواد الأبيض القوى ، داخل مساحة أخرى كبيرة ، يلتهم طعامه فى هدوء وبساطة ..

واعتدل الصبى جالسًا ، وهبط عن ذلك الفراش الصغير الوثير ، الذى يرقد فوقه ، وراح يتحرَّك داخل القاعة فى حذر ، ويتطلَّع إلى شاشات الرصد فى انبهار شديد ..

فكل شاشة ، كانت تنقل مشهدًا لمنطقة مختلفة ، من مناطق (الوادى الأزرق) ، وبعضها ينقل مشاهد من حول المدينة الكبيرة وداخلها أيضًا ..

أما الآلات ، فكانت كلها تعمل طوال الوقت ؛ لتسجّل بيانات ، وإحصاءات ، وأرقامًا ، لم يفهمها الصبى أبدًا ..

ـ استيقظت أخيرًا ..

انبعث الصوت من خلفه ، فوثب من مكانه مذعورا ، واستدار إلى ذلك الفارس ، الذى منحه ابتسامة هادئة ؛ كمحاولة لامتصاص توتره ، قبل أن يتابع فى مودة واضحة :

ـ إنك فاقد الوعى ، منذ ما يقرب من عشر ساعات .

هتف الصبى بأنفاس مبهورة :

ـ عشر ساعات !

اقترب منه الفارس ، وربّت على كتفه ، قائلاً :

ـ كنت فى أمسَ الحاجة إلى هذا .

تطلّع إليه الصبى بضع لحظات ، فى احترام وتوقير شديدين ، ثم تلفّت حوله فى انبهار ، متسائلاً :

ـ ما هذا المكان بالضبط ؟!

رفع الفارس عينيه بدوره ، وأدارهما فى المكان ، قبل أن يجيب فى هدوء ، حمل لمحة واضحة من الزهو والارتياح :

ـ إنه منزلى .

هتف الصبى ، بأنفاس أكثر انبهارًا :

ـ منزلك ؟!

التقط الفارس يده فى رفق ، وقاده فى هدوء إلى مقعدين قريبين ، وهو يقول بابتسامة رقيقة :

ـ لا أعرف مستقرًا سواه .

عاد الصبى يتلفَّت حوله مبهورًا ، وهو يغمغم :

ـ ولكن .. ولكننى لم أر شيئًا مثله قط !

شرد الفارس ببصره بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ ما زال أمامك الكثير لتتعلمه .

العبارة أعادت إلى ذهن الصبى ذكرى قريبة ، فاكتسى وجهه بكل حزن الدنيا ، وهو يخفض عينيه ، مغمغمًا فى مرارة :

ـ وأسرتى وعشيرتى .. هل ..

لم يستطع إكمال عبارته ، مع المرارة التى أغلقت حلقه ، وأصابته بجفاف شديد ، فالتفت إليه الفارس بنظرة متعاطفة مشفقة ، ثم ربّت على كتفه ، قائلاً فى خفوت :

ـ إنها حرب دائمة يا فتى .. بيننا وبينهم .. ولكل حرب ضحاياها .

احتقن وجه الصبى بشدة ، وحاول لبضع لحظات أن يكتم مشاعره ، إلا أنه لم يلبث أن انفجر باكيًا ، وانهمرت دموعه فى غزارة ، لتغرق وجهه كله .. وفى صمت وتعاطف ، راقبه الفارس ، وربَّت على كتفه مرتين فى حنان ، تاركًا له الفرصة كاملة لإفراغ عواطفه ، التى استغرقت ما يقرب من نصف الساعة كاملة ، قبل أن يجفف دموعه ، قائلاً بكل مرارة الدنيا :

ـ يا إلهى ! كم سأفتقدهم .

ربت عليه الفارس مرة أخرى ، قائلاً فى حزم :

ـ أعدك أن من فعلوا هذا سيدفعون الثمن .

هزَّ الصبى رأسه نفيًا ، وهو يقول بمرارته وحزنه :

ـ لا أحد يمكنه هزيمتهم ، أو حتى الوصول إليهم .. إنهم يقيمون هناك ، داخل تلك المدينة الكبيرة المضاءة ، التى تحيط بها الأسوار العالية ، والتى لا يدخلها سواهم ، ويعود منها حيًا أبدًا ..

تطلَّع إليه الفارس فى حزم ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ تعلَّم هذا الدرس جيدًا يا فتى .. عدوك قوى ومنيع ، بقدر ما تعتبره أنت كذلك ، أما لو قرَّرت أن تقاومه ، وعقدت العزم على هذا ، فستجد فيه حتمًا نقطة ضعف .. بل نقاط ضعف ، تصلح كل منها لتوجيه ضربة قاصمة إليه ، وإضعافه ، وزلزلة كيانه ، حتى يمكنك أن تعد نفسك ، وتنقض عليه فى الوقت المناسب .

أشار الصبى إلى شاشة الرصد ، التى تحمل صورة المدينة الكبيرة ، وهو يتساءل فى توتر :

ـ وهل تعتقد أن لهم نقاط ضعف ؟!

شدَّ الفارس قامته ، مجيبًا فى حزم :

ـ الكمال لله سبحانه وتعالى وحده يا فتى .. كل مخلوق حى له حتمًا نقطة ضعف .. كل ما عليك هو أن تبحث عنها ، وتكشفها ، لتملك زمام أمره تمامًا .

هزَّ الصبى رأسه ، قائلاً :

ـ ربما من السهل عليك أن تقول هذا ، فأنت تملك جوادًا فريدًا ، وحاسة سادسة قوية ، و...

قاطعه الفارس فى دهشة :

ـ حاسة سادسة ؟! من منحك هذا الانطباع .

قال الصبى ، فى شىء من العصبية :

ـ لقد كنت تشعر بهجومهم طوال الوقت .

ابتسم الفارس ، وهو يقول :

ـ سبق وأن أخبرتك أنه لكل ظاهرة تفسير علمى منطقى ، وما بدا لك أشبه بحاسة إضافية خارقة ، هو فى واقعه أمر علمى تمامًا .

وحدَّق فيه الصبى بكل دهشة الدنيا ..

فما فعله فى اللحظة التالية كان مذهلاً ..

مذهلاً بحق ..

وبكل المقاييس .

* * *

داعب زعيم المتحولين ذقنه بمخالبه ، فى تفكير عميق ، وهو يدير عينيه فى الخريطة الكبيرة ، لمنطقة الوادى الأزرق ، قبل أن يسأل قائد أمنه الجديد :

ـ إذن فقد فحصتم المنطقة كلها ، ولم تجدوا أدنى أثر لذلك الفارس المجهول .. أليس كذلك ؟!

شدَّ قائد الأمن قامته ، وهو يجيب :

ـ عندما تم التفجير ، كان ينطلق على متن جواده الطائر ، فى سماء المنطقة ، ولقد انتشر رجالنا فى نطاق التدمير بأكمله ، وبحثوا تحت كل حجر ، فلم يعثروا على أدنى أثر لجثته ، أو جثة جواده العجيب هذا .

أومأ الزعيم برأسه متفهمًا ، وهو يتمتم :

ـ آه .. إذن فهو لم يمت .. تمامًا كما توقَّعت .

حاول قائد الأمن أن يقول شيئًا ما ، إلا أنه أشار إليه بالصمت ، وهو يعاود التطلُّع إلى الخريطة الكبيرة ، وعقله منشغل بتفكير أكثر عمقًا ، قبل أن يعتدل ، قائلاً فى صرامة شرسة :

ـ مع أقصى سرعة ، يمكن أن يطير بها ذلك الجواد المجنَّح بحمله ، لن يمكنه أبدًا أن يخرج من دائرة التدمير ، قبل أن تبلغه موجةَ الانفجار .. هذا يعنى إذن أنه هنا .

ورسم بسبَّابته دائرة وهميَّة ، حول منطقة جبال (الوادى الأزرق) ، قبل أن يضيف :

ـ فى مكان ما هنا .

شدَّ قائد الأمن قامته أكثر ، وهو ينتظر أوامر زعيمه ، الذى غرق فى الصمت بضع لحظات أخرى ، قبل أن يرفع رأسه ، ويقول فى شراسة :

ـ سنحاصر المنطقة كلها ، ونبحث عن وكره .

ردَّد قائد الأمن فى حذر :

ـ وكره ؟!

لوَّح الزعيم بيده ، قائلاً بنفس الشراسة :

ـ نعم .. لديه وكر فى تلك المنطقة حتمًا .. وكر لجأ إليه ، لاتقاء موجة التدمير .. وكر يحوى سر قوته .

وصمت دقيقة أخرى ، لم يجرؤ قائد الأمن على مقاطعته خلالها بحرف واحد ، ثم لم يلبث أن قال بمنتهى الشراسة :

ـ سنحاصر المنطقة ، وننبش كل شبر منها .. أريد كتيبة من النهاريين ، الذين يمكنهم احتمال ضوء وحرارة الشمس ، وثلاث كتائب من قواتنا الخاصة .. لا أريد منحه ثغرة واحدة للفرار .

أراد قائد الأمن أن يشير إلى قدرة جواد الفارس على الطيران ، إلا أنه خشى إغضاب الزعيم ، فآثر الصمت ، واكتفى بالاستماع إليه ، وهو يضيف :

ـ سأدفع مائة ألف قطعة ذهبية ، لمن يأتينى برأس ذلك الفارس المجهول .. وخمسمائة ألف قطعة ، لمن يأتى بجواده الطائر حيًّا .

وتألّقت عيناه على نحو مخيف ، وهو يضيف :

ـ أريد ذلك الجواد حقًّا .. أريده بأى ثمن .

وتألّقت عيناه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

اتسعت عينا الصبى عن آخرهما ، بمنتهى الدهشة والتوتر ، عندما انتزع الفارس أذنه اليسرى ، ووضعها أمام عينيه ، قائلاً فى هدوء :

ـ انظر إليها جيدًا .

شعر الصبى بقشعريرة باردة كالثلج ، تسرى فى أوصاله ، وهو يحدّق فى تلك الأذن ، التى استقرّت فى راحة الفارس ..

لم تكن أذنًا حقيقية ، كما تبدو للوهلة الأولى ، وإنما جهازًا إلكترونيًّا ، يشبهها تمام الشبه ، ويتصل بعدد من الأسلاك الدقيقة ، وتتراص داخله وحدات بالغة الصغر ، ابتسم الفارس ، وهو يشير إليها ، قائلاً :

ـ لقد فقدت أذنى ، فى معركة مع أولئك المتحورين ، منذ عدة أعوام ، فاستبدلتها بهذه القطعة الإلكترونية ، التى تحوى أجهزة استقبال خاصة ، قمت بضبطها على موجات اتصال قوات المتحورين .

هتف الصبى مبهورًا :

ـ كنت إذن تلتقط اتصالاتهم وخططهم طوال الوقت .

ابتسم الفارس ، قائلاً :

ـ بالضبط .

وفى هدوء ، أعاد الأذن الصناعية إلى موضعها ، مضيفًا :

ـ الأذن الخارجية فى واقعها مجرَّد حلية ووسيلة حماية للأذن الداخلية ، التى تحوى أجهزة السمع الربانيةَ الحقيقية ، وكل ما فعلته هو أن صنعت شكلاً خداعيًّا ، واستفدت بمميزات إضافية ، ليس من السهل أن يدركها العدو .

ظلّ الصبى يحدِّق فيه مبهورًا بعض الوقت ، فربَّت على كتفه فى حنان ، قائلاً :

ـ هذه حقيقة ، ينبغى أن تدركها وتتعلَّمها جيِّدًا يا فتى .. كل شىء له تفسير علمى ومنطقى ، مهما بدا غامضًا ومبهرًا وعجيبًا .. كل شىء بلا استثناء .

حمل صوت الصبى كل انبهاره ولهفته ، وهو يقول :

ـ وصور المدينة الكبيرة .. كيف حصلت عليها ؟!

ابتسم الفارس ، وهو يقول :

ـ إنها أجهزة رصد قوية .. سألقنك كل هذا ، فادخر دهشتك لما بعد .

تضاعف انبهار الصبى ولهفته ، وهو يهتف :

ـ هل ستلقننى كل هذا حقًّا ؟!

التقط الفارس نفسًا عميقًا ، وهو يتطلَّع إليه مباشرة ، قبل أن يمد يده إليه ، ويقوده إلى منطقة جلوس قريبة ، ثم يلتفت إليه ، قائلاً :

ـ المواجهة مع أولئك المتحورين ليست سهلة أو بسيطة يا فتى ، ولقد استغرقت سنوات طوال فيما مضى ، وستستغرق سنوات عديدة تالية .. والأمر يحتاج دومًا إلى مقاتل يؤمن بضرورة أن تستمر البشرية الحقيقية ، وحتمية أن ينمو الإنسان ويتطوَّر بآدميته ، ومشاعره ، وكل الحب الذى يملأ قلبه ، ويدفعه دومًا للتقدُّم والنماء ..

ووضع يده على كتفه :

ـ يجب أن يبقى الإيمان فى القلوب ، حتى يعلن الخالق عزَّ وجلَّ فناء الكون كله ، ومولد يوم البعث والحساب .

هزَّ الصبى رأسه ، متمتمًا :

ـ تتحدَّث تمامًا كما كان يفعل أبوىَ .

مال الفارس نحوه ، وسأله فى حنان دافق :

ـ بم أسميك ؟!

ازدرد الصبى لعابه ، قبل أن يجيب ، فى شىء من الخفوت ، وكأنما يخشى لسبب ما الإفصاح عن اسمه :

ـ (أمل) .

ولأوَّل مرة منذ التقيا ، وثبت الدهشة إلى وجه الفارس ، وهو يغمغم :

ـ (أمل) ؟! اسمك (أمل) ؟!

أومأ الصبى برأسه فى حيرة ، متمتمًا :

- أجل يا سيِّدى .. والداى اسميَانى كذلك .. قال : إن هذا فأل حسن للأيام القادمة!

نهض الفارس ، واتجه نحو منطقته الخاصة ، ووقف يتطلَّع إلى الصبى بضع لحظات فى شرود ، قبل أن يغمغم :

- إنه كذلك بالفعل .

كان من الواضح أن ذهنه يدور حـول أمر مـا ، يحـاول حسمه تمامًا ، وهو يتطلَّع إلى الصبى مباشرة ، و...

وفجأة ، انطلق أزيز حاد داخل المكان ..

أزيز ، انتفض له جسد الصبى فى عنف ، واستدار معه الفارس بحركة حادة حاسمة ، نحو شاشات الرصد ، قبل أن ينعقد حاجباه فى شدة ..

فهناك ، على إحدى شاشات الرصد ، بدا اثنان من المتحورين ، يخفيان وجهيهما بخوذتين داكنتين منيعتيـن ، ويتحركـان فـى حذر متحفز ، داخل الممر الذى يقود إلى مكمن الفارس ..

وبكل الرعب ، هتف الصبى :

- إنهما .. إنهما فى طريقهما إلينا .

انطلق هتافه ، وهو يحدِّق مذعورًا فى السلاحين القاتلين الضخمين ،

اللذين يحملهما المتحوران ، فأشار إليه الفـارس إشـارة صارمـة ، قائلاً فى حزم :

- الوصول إلى هنا ليس بالأمر السهل .

ثم وضع سبَّابته على شفتيه ، مضيفًا بصوت هامس :

- فقط لا تدعهما يسمعانك .

حبس الصبى أنفاسه تمامًا ، وهو يتابع حركة المتحوريـن عبر الممر ، على شاشة الرصد الكبيرة ، وعقله ما زال يتساءل : ترى هل يمكنهما الوصول إلى هذا الوكر العجيب ؟!

هل ؟!

وفى الممر ، تحرك المتحورين بمنتهى الحذر والتحفُّز ، وأحدهمـا يغمغم :

- لا شىء هنا يوحى بوجود أى مخلوق حى .

زمجر الآخر ، قائلاً :

- لا تعتمد على حواسك .. هذا ما أمرنا به القائد .

مطَّ الأول شفتيه الغليظتين ، وهو يتمتم :

- فليكن .

قالها ، وأخرج من جعبته جهازًا صغيرًا ، له شاشة تحتلّ نصف

مساحته تقريبًا ، وضغط أزراره فى سرعة ، قبل أن يتطلّع إلى شاشته بكل الشغف والاهتمام ، وهو يواصل السير عبر الممر الطويل ..

ومع جزعه ، حاول الصبى أن يقول شيئًا ما ، إلا أن الفارس استوقفه بإشارة صارمة ، وتحرّك فى خفة مدهشة ؛ ليجذب ذراعًا ، قطعت التيار عن كل الأجهزة فى المكان ، الذى غرق فى ظلام دامس ، باستثناء ضوء أخضر باهت ، ينبعث من مصباح ضخم ، مثبت فى السقف ، وشاشة رصد واحدة ، تنقل مايدور فى الممر ..

وبنفس الخفة ، دنا الفارس مرة أخرى من الصبى ، وانحنى يهمس فى أذنه :

ـ أجهزتهم بالغة الدقة .

أومأ الصبى برأسه ، دلالة على الفهم ، وواصل حبس أنفاسه ، وهو يتابع حركة المتحورين عبر الممر ، حتّى بلغا نهايته الصخرية ، فتمتم أحدهما فى حنق :

ـ كنت أعلم أن هذا ما سيقودنا الأمر إليه !

زمجر الآخر ، قائلاً :

ـ ليس بالضرورة أن نعثر على أى شىء .. إننا نبحث فحسب .

قال الأوّل فى عصبية :

ـ الزعيم لن يرحمنا ، لو عدنا إليه خاليى الوفاض .

عاد الآخر يزمجر ، مجيبًا :

ـ ولن يرحمنا أيضًا ، لو عدنا إليه بما لا ينشده .

مطّ الأوّل شفتيه ، واستدار يغادر المكان ، وهو يغمغم فى سخط :

ـ تمن أن نجد ما ينشده إذن .. وإلا ...

زمجر الآخر ، دون أن يجيب ، واستدار يتبع رفيقه بدوره ..

وبكل توتر الدنيا ، راقبهما الصبى ، وهما يعودان عبر الممر ، حتّى بلغا مدخله ، فانطلقت من أعمق أعماقه زفرة ، كتمها فى صدره طويلاً ، وهو يهتف :

ـ حمدًا لله ..

لم يكد ينطقها ، حتّى انعقد حاجبا الفارس فى شدة ، وتوقّف المتحورين عند مدخل الممر دفعة واحدة ، وحامل ذلك الجهاز الإلكترونى يهتف :

ـ مهلاً .

استدار إليه زميله ، فى تساؤل متوتر ، فأضاف فى انفعال :

ـ هناك بشرى هنا .

مال زميله ، يلقى نظرة على شاشة الجهاز الصغير ، التى ارتسمت فوقها منحنيات حادة ، لها لون أحمر قان ، قبل أن يشهر سلاحه فى تحفُّز ، ويدير عينيه فيما حوله فى عصبية ، هاتفًا :

ـ ولكن أين ؟!

أدار الأوَّل عينيه فـى المكان بدوره ، قبل أن ينتزع جهاز الاتصال الخاص من حزامه ، وهو يزمجر فى وحشية ، قائلاً :

ـ من الواضح أن هذا الأمر يتجاوز حدودنا منفردين .

قالها ، ثم ضغط أزرار جهاز الاتصال ، وهتف فى صرامة عصبية :

ـ من المجموعة (ب) إلى القيـادة .. تمَّ رصد تواجد بشرى غامض .. نريد إمدادات كافية .. وبأقصى سرعة .

ومع قوله ، انعقد حاجبا الفارس فى شدة ..

أما الصبى ، فقد هوى قلبه بين قدميه ..

بمنتهى العنف .

* * *

٣ ـ كل الخطر ..

ـ إنه هنا ..

نطق زعيم المتحورين الكلمة فى وحشية ظافرة ، وهو يشير على الخريطة ، إلى الموضع الذى يكمن فيه الفارس تقريبًا ، قبل أن يلتفت إلى قائد قواته ، مستطردًا :

ـ قنبلتنا محت كل صور الحياة ، فى تلك المنطقة ، ولو أن رجالنا قد التقطوا موجة صوت بشرية ، داخل أحد الممرات الجبلية ، فهى لن تعود حتمًا لسواه .

أراد القائد أن يقترح شيئًا .. أى شىء .. إلا أن معرفته الوثيقة بطبيعة زعيمه وجنونه ، جعلته يكتفى بالقول :

ـ أوامرك أيها الزعيم .

تألَّقت عينا الزعيم ، وهو يقول فى شراسة :

ـ أريد حصارًا كاملاً .. رجال ، وأسلحة ، ومعدات رصد إليكترونية فائقة .. مُرْ الرجال بالتحرُّك فى نطاق متناقص ، بحيث يحكمون الحصار عليه تمامًا فى النهاية .

هتف القائد ، متظاهرًا بالحماس :

ـ حتى يستسلم .

رمقه الزعيم بنظرة استخفاف ، ذاب لها جلده على جسده ، قبل أن يقول فى صرامة مخيفة :

ـ إنه لن يستسلم أبدًا .

وعاد يلتفت إلى الخريطة لحظة فى صمت ، ثم تابع فى شراسة :

ـ طبيعته ستدفعه للقتال ، حتى آخر رمق .. سيواجههم بصدر عار ، إذا ما اقتضى الأمر ، ولكنه لن يستسلم أبدًا .

تطلّع إليه القائد فى حذر ، وهو يسأل :

ـ وهل سيقاتلونه لو فعل ؟!

أجابه الزعيم فى سرعة ، وهو يلتفت إليه بحركة حادة :

ـ بل سيقتلونه .

ثم رفع سبّابته ، مستطردًا فى شراسة :

ـ ولكن حذار أن يمسوا الجواد بسوء .

ومال نحو قائد أمنه ، حتى شعر هذا الأخير بأنفاسه النارية ترتطم بوجهه ، وهو يتابع فى قسوة :

ـ أريده حيًا .. سليمًا .. معافى .. وسأقتل كل من يصيبه بخدش واحد .. هل تفهم ؟!

ازدرد القائد لعابه فى صعوبة ، وحاول أن يتجاوز الموقف كله ، إلا أنه خشى ما يمكن أن يسفر عنه هذا ، فاستجمع شجاعته ، وحاول أن يشدّ قامته ، وهو يقول :

ـ معذرة أيها الزعيم ، ولكنك بهذا تضع الرجال فى مأزق حرج ، و...

قاطعه الزعيم بزمجرة وحشية ، وهو يهتف :

ـ ماذا تقول يا قائد الأمن ؟! هل بدأت تخاذلك مبكرًا أم ماذا ؟!

امتقع وجه قائد الأمن ، وحاول عبثًا أن يشدّ قامته ، وهو يتمتم :

ـ مطلقًا أيها الزعيم .. مطلقًا .

بدا له الزعيم أشبه بوحش كاسر عملاق ، فى تلك اللحظة بالتحديد ، وهو يصرخ :

ـ نفّذ الأوامر إذن .

هتف قائد الأمن ، وكأنما يفرغ توتراته كلها فى هتافه :

ـ كما تأمر أيها الزعيم .. كما تأمر .

قالها ، واستدار على عقبيه ، يغادر قاعة العرش ، وعقله يتساءل بكل حيرة وتوتر الدنيا : ترى إلى أين ستقودهم هذه الأوامر السخيفة ؟!

إلى أين ؟!

* * *

لم يعد هناك سوى حل واحد ..

هذا ما دار فى ذهن الفارس ، وهو يراقب ما يحدث ، حول الوكر الذى صنع بنفسه كل ركن فيه ، واستقر داخله لسنوات وسنوات ..

لقد حاصره المتحورون تمامًا ..

حاصروه برجالهم ، وعتادهم ..

وأجهزتهم الإلكترونية الدقيقة ..

وفى كل ساعة تمضى ، كان نطاق الحصار ينكمش ..

وينكمش ..

وينكمش ..

وهذا يعنى أنه لن يمضى يومان على الأكثر ، حتى يكونوا قد كشفوا أمره ، وتوصّلوا إلى وكره ، و...

تطلّع فى قلق إلى الصبى ، وهو يتصوّر ما يمكن أن يصيبه ، إذا ما ظفر به أولئك الوحوش ، قساة القلوب ، غلاظ المشاعر ..

لن يمنحوه حتمًا ذرة واحدة من الرحمة أو الشفقة ..

سيقتلونه ..

ويمزقونه ..

ويسحقونه سحقًا ..

ولا يمكنه أن يسمح بحدوث هذا أبدًا ..

إنه لا يدرى لماذا يهمه أمر الصبى إلى هذا الحد ؟!

لماذا غزا قلبه ، بضعفه ووهنه ، كما لو أنه الابن ، الذى لم ينجبه أبدًا ؟!

ما الذى وجده فيه ؟!

ما الذى جذبه إليه ؟!

أهى لمحة من أبوة افتقدها دومًا ؟!

أم هو شعور مستقبلى غامض ؟!

رؤيا ، رآها منذ عام أو يزيد ، تربطه بصبى ضعيف ..

صبى يتيم ، فقد أسرته ..

بل عشيرته كلها ..

أم هو مزيج من هذا وذاك ؟!

لا أحد يدرى ..

كل ما يعرفه ، أنه هناك دافع غامض قوى ، فى أعمق أعماقه ، يدفعه لحماية هذا الصبى ، والزود عنه ، حتى آخر قطرة فى دمه ، وآخر نفس يتردّد فى صدره ..

وبكل انفعالاته هذه ، أمسك كتف الصبى فى قوة ..

وفى مرارة وأسى بلا حدود ، التفت إليه الصبى ..

لم ينبس ببنت شفة ، ولكن وجهه كان يحمل كل ما يعتمل ويلتهب فى أعماقه .. الندم ..

الندم ، وتأنيب الضمير ، لأن عبارته كانت السبب فى كل هذا ..

السبب فى كشف الأمر ..

والحصار ..

والخطر المحيط بهما من كل جانب ..

كل الخطر ..

بلا استثناء ..

ولقد أدرك الفارس هذا على الفور ، وهو يتطلّع إلى دمعتين ساخنتين ، انحدرتا على وجنتى الصبى ، فمال نحوه ، وهمس فى أذنه ، فى حنان دافق :

ـ أتعشّم أن تكون قد تعلّمت الدرس هذه المرة .

تطلّع إليه الصبى ، فى دهشة حائرة متوترة ، فأضاف بنفس الهمس ، مع ابتسامة هادئة متعاطفة :

ـ لا تفرح بانتصارك ، أو تأمن لعدوك ، إلا بعد أن يتحقّق لك النصر الكامل عليه .

واتسعت ابتسامته الهادئة ، وهو يداعب شعر الصبى ، مضيفًا :

ـ لقد تعجّلت .

همس الصبى ، وهو يخفض عينيه ، وصوته يختنق بالبكاء :

ـ بل .. لقد أفسدت كل شىء .

صمت الفارس بضع لحظات ، ترك الفتى خلالها يفرغ دموعه وانفعالاته ، قبل أن يربّت على كتفه ، هامسًا :

ـ لا تتسرع بالنتائج .

ثم رفع سبّابته ، مضيفًا :

ـ وهذا درس جديد .

لم يفهم الصبى ما يعنيه هذا ، فاستدار يُحدّق فى الفارس بحيرة قلقة ، ثم ينقل بصره منه إلى شاشة الرصد الوحيدة الباقية ، والتى تنقل صورة كتيبة المتحورين ، التى أحاطت بالجبل كله ، وراحت ترصد كل حركة أو همسة داخله ..

وبكل الذعر ، همس :

ـ ألن يرصدوا أحاديثنا هذه ؟!

أشار الفارس إلى شاشة الرصد ، وهو يقول :

ـ لقد رصدوها بالفعل .

نطقها بصوته العادى ، دون همس أو خفوت ، فانتفض جسد الصبى ، وأدار عينيه فى هلع إلى الشاشة ، التى نقلت صورة بعض ضباط المتحورين ، وهم يراجعون شاشات أجهزتهم ، ثم يهتفون بالجنود ، للهجوم على الجبل ، ثم لم يلبث أن هتف فى ارتياع :

ـ وماذا سنفعل ؟!

أدهشه أن بدا الفارس شامخًا قويًا ، وهو يتجه نحو أجهزته ، قائلاً فى صرامة :

ـ سنمنحهم ما يريدون .

وصمت لحظة ، ثم استدرك فى حزم :

ـ وتذكّر دومًا ، وإلى الأبد ، أن الضرورات تبيح المحظورات .. فقط الضرورات .

قالها ، ودفع الذراع المعدنية ، فعادت الأجهزة كلها تعمل دفعة واحدة ، وانطلقت منها ذبذبات قوية ، رصدتها الأجهزة الإلكترونية الدقيقة للمتحورين ، فهتف أحد ضباطهم فى انفعال :

ـ هنا .. إنه هنا .. أبلغوا القيادة .. سنشن الهجوم الشامل فورًا .

استعد الرجال كلهم بأسلحتهم ، واندفعوا خلف قائدهم ، الذى استرشد بجهاز رصد الذبذبات ، وهو يلوّح بمسدسه الليزرى ، صائحًا فى شراسة :

ـ من هنا .. أسرعوا .

رآهم الصبى ، على شاشة الرصد ، يندفعون جميعًا عبر الممر ، فشهق هاتفًا فى ذعر :

ـ هل سنستسلم لهم ؟!

أجابه الفارس بمنتهى الحزم :

ـ الاستسلام لعدو بلا مبادئ أو أخلاقيات ، أشبه بالانتحار .. الأكرم إذن أن نقاتل حتى آخر رمق .

سأله الصبى بأنفاس مبهورة :

ـ أهذا ما سنفعله ؟!

التفت إليه الفارس بابتسامة هادئة ، دون أن يجيب بحرف واحد ، وهو يضغط زرًا خفيًا فى الجدار ، انزاح معه جزء منه ، ليكشف فجوة كبيرة تختفى خلفه ..

واتسعت عينا الصبى عن آخرهما ..

فما رآه أمامه ، خلف ذلك الجزء المنزاح من الجدار ، كان أمرًا لا يمكن أن يتوقّعه ..

على الإطلاق ..

* * *

بدت كلمات ضابط المتحورين أشبه بلهاث منفعل ، وهو يتوقف أمام نهاية الممر ، قائلاً :

ـ هنا .. إنه يختفى هنا .

غمغم أحد رجاله فى توتر :

ـ إنه جدار صخرى أيها الضابط ، ولا يمكن أن ..

قاطعه الضابط ، فى صرامة غاضبة :

ـ إنه هنا .

ثم رفع الجهاز الإلكترونى من الصغير فى راحته ، ودفعه أمام عينى الجندى مباشرة ، وهو يضيف فى حدة :

ـ هذا ما تؤكده الأجهزة .. هل ستنكر نتائجها ؟!

نقل الجندى بصره ، بين الجدار الصخرى ، وشاشة الجهاز ، التى ترسم مجموعة من المنحنيات العصبية المتداخلة ، قبل أن يغمغم فى توتر :

ـ كلا أيها القائد .

وهنا ، تراجع الضابط ، وأشار إلى الجدار الصخرى فى حزم ، هاتفًا :

ـ انسفوا هذا الجدار ..

انعقد حاجبا الجندى فى صرامة ، وارتفعت فوهات سلاحه ، وأسلحة رفاقه المحيطين به ، نحو الجدار الصخرى ، الذى يخفى وكر الفارس ..

وانطلقت أشعتهم المدمرة نحوه ، و...

ودوى الانفجار ..

بمنتهى العنف .

* * *

طوال ما يقرب من سبع دقائق كاملة ، لم ينبس زعيم المتحورين ببنت شفة ، وهو يراقب شاشات الرصد ، التى تنقل إليه ما يحدث هناك ، فى منطقة جبال (الوادى الأزرق) ، حيث حاصرت قواته وكر الفارس ، وانقضت عليه بمنتهى العنف ..

كانت الشاشة تنقل مشهد الجنود ، الذين يقتحمون الممر ، متجهين نحو ذلك الجدار الصخرى فى نهايته ..

وفى تلك اللحظة بالذات ، دخل قائد الأمن إلى قاعة العرش ، قائلاً فى حماس شديد :

ـ مولاى الزعيم .. لقد حدَّد الرجال موقع ذلك الـ...

استوقفه الزعيم بإشارة صارمة من يده ، قبل أن يشير بمخلبه إلى شاشة الرصد أمامه ، والتى بُهتَ القائد لمرآها ، فتوقَّف يُحدِّق فيها بضع لحظات ، قبل أن يتنحنح ، ثم يلوذ بالصمت التام ..

وبمنتهى الاهتمام والانتباه ، راح يتـابع بـدوره مـا يحدث على الشاشة ..

كان الجنود يصوبون فوهات مدافعهـم نحو الجدار الصخرى ، و ...

ويطلقون أشعتهم المدمرة ..

ثم دوى الانفجار ..

انفجار أعنف بكثير مما يمكن أن تحدثه مدافعهم ..

ومما يمكن أن يحدثه انهيار ذلك الجدار الصخرى ..

مهما بلغ سمكه ..

ومع دوى الانفجار ، انتفـض الزعيـم فـى عنـف علـى عرشـه ، ووثب قائد أمنه من مكانه ، صائحًا :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

بدا الزعيم شـديد الغضب والثـورة ، وهـو يضغـط أزرار إعـادة عرض المشاهد الأخيرة ، قائلاً :

ـ إما أنه فخ ، أو...

لم يتم عبارته ..

أو يحاول حتى إتمامها ..

فقط حدّق فى شاشة الرصد ، وهى تعيد مشهد الانفجار مرة أخرى ..

ففى نفس اللحظـة ، التـى أطلق فيهـا الجنـود أشـعة مدافعهـم ، انفجر الجدار الصخرى بمنتهى العنف ..

انفجر لتنطلق منه كتلة هائلة من اللهب ، التهمت أمامهـا ضبـاط المتحورين وجنودهم ، وأسلحتهم ، وأجهزتهـم كلهـا ، قبـل أن تتفجّر عبر مخرج الممر ، ككرة مشتعلة رهيبة ..

وعلى الرغم من بشاعة المشـهد العنيـف ، راح الزعيم يضغط أزرار جهازه ؛ ليعيد عرضه مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وفى كل المرات ، فغر قائد الأمن فاه ذاهلاً ملتاعًا ، متسائلاً عن سر إعادة الزعيم للمشهد الرهيب مرات ومرات ..

أما الزعيم نفسه ، فلم يكتف بإعادة العرض عدة مرات ، وإنمـا راح يعرضه بسرعات أبطأ ..

وأبطأ ..

وأبطأ ..

ثم فجأة ، اعتدل على مقعـده بحركـة حـادة ، وقـال بمنتهى الشراسـة والصرامة :

- أرسل كتيبة أخرى .

انتفض جسد القائد ، وهو يهتف :

- أرسل ماذا ؟!

هبَّ الزعيم عن مقعده بمنتهى الحدة ، وصـاح فـى وجهـه بشراسة منقطعة النظير :

- أرسل كتيبة أخرى .. لا تمنحوه فرصة للفرار .

هتف القائد فى توتر ، وكأنما انتزع هول الموقف هيبة الزعيم من قلبه ومشاعره :

- أى فرار ؟! لو أن هذا وكره بالفعل ، فمن المستحيل أن يبقى فيه مخلوق حى واحد ، بعد انفجار كهذا .

احمرَّت عينا الزعيم على نحو مخيف رهيب ، وبرزت مخالبه وأنيابه ، وانطلقت من حلقه زمجرة وحشية مرعبة ، وهو يصرخ :

- أرسل كتيبة أخرى .. فورًا .

فى هذه المرة ، انتفضت كل خلية فى جسد القائد ، وهو يتراجع بكل رعب الدنيا ، هاتفًا :

- فليكن .. فليكن أيهـا الزعيـم .. سأرسل كتيبـة أخـرى .. فـورًا .

قالها ، وهرع يعدو عبر قاعة العرش الواسعة ، والزعيم يطلق من خلفه زمجرة أكثر قوة ، ارتجت معها جدران القاعة كلها ..

زمجرة غاضبة ..

ثائرة ..

ساخطة ..

عدوانية ..

ووحشية ..

وعندما غادر قائد الأمن القاعة ، وأغلق بابها خلفه فى إحكام ، وكأنما يخشى أن يلحق به الزعيم ، عاد هذا الأخير يجلس على عرشه ، ويضغط أزرار شاشة الرصد ، مزمجرًا فى وحشية :

- لن يربح معركته المخادعة هذه .. لن يربحها أبدًا .

ومع الشق الأخير من عبارته ، هوت قبضته بكل قوتها على مسند عرشه الذهبى الضخم ..

وبمنتهى العنف ، تحطَّمت مقدِّمة المسند ، وطارت عبر القاعة ، لترتطم بأرضيتها الرخامية ، وتتدحرج فوقها لمترين كاملين ..

ولكن الزعيم لم يبال بهذا ..

لم يبَال به على الإطلاق ..

فكل ما كان يملأ ذهنه لحظتها ، هو أن يظفر بذلك الجواد الطائر النادر ..

وبأى ثمن ..

على الإطلاق ..

* * *

لم تكد الكتيبة المتحوِّرة الثانية تبلغ منطقة التفجير ، حتى بدأت انتشارها على الفور ، وفقًا للتعليمات التى تلقتها من الزعيم شخصيًا ..

لم يكن من المعتاد أو المألوف أن تصدر التعليمات ، من مقر الزعامة مباشرة ؛ لذا فقد أدرك الجنود وضباطهم مدى أهمية وخطورة هذه المهمة ، دون مهامهم السابقة جميعًا !

ومن هذا المنطلق ، راحوا يتحركون بمنتهى السرعة ..

ومنتهى التوتر ..

ومنتهى الحذر أيضًا ..

كانت آثار الانفجار تبدو واضحة عبر الممر ، الذى تحوَّل إلى نفق ضيق مزعج ، تناثرت الأحجار والصخور فى كل ركن منه ..

ولكنهم واصلوا تقدُّمهم نحو الفراغ الكبير ، الذى بدا واضحًا فى نهايته ، والذى اكتظ ببقايا أجهزة محطمة ، وشاشات رصد مسحوقة ، تتطاير من أطرافها شرارات كهربية عشوائية ..

وبصوت خافت ، حمل كل توتره وانفعاله ، أشار قائد الكتيبة الجديدة إلى ذلك الفراغ ، قائلاً :

ـ تقدّموا بمنتهى الحذر ، وأطلقوا النار عند أوّل بادرة شك .

أومأ الجنود برءوسهم مؤيدين ، وهم يتحركون عبر الممر فى حذر أكثر ، و...

وفجأة ، انطلق ذلك الفارس ، عبر الفراغ الكبير ..

ظهر فجأة ، وكأنما نبت من العدم ، وانطلق بجواده المجنَّح نحوهم مباشرة ، على الرغم من ضيق الممر ..

ومع المفاجأة ، والصيحة المباغتة ، التى أطلقها الفارس مع ظهوره ، ساد الاضطراب بين صفوف الجنود ، ووثب قائدهم يحمى رأسه بذراعه ، وخُيِّل إليه أن جناحى الجواد القويين قد عبرا فوقه مباشرة ، قبل أن يواصل اندفاعه عبر الممر ، ثم ينطلق من مخرجه ، ويحلِّق عاليًا ..

وبعد ثانيتين فحسب ، استعاد الجنود جأشهم وتماسكهم ، واستداروا يطلقون أشعتهم القاتلة خلف الفارس ، باذلين قصارى جهدهم ؛ لتفادى إصابة الجواد ..

ولكن أشعتهم لم تصب الفارس قط ..

كانت خيوطها تبدو فى بعض الأحيان وكأنها قد أصابته .. واخترقته ..

بل وتجاوزته ..

إلا أنها لم تسقطه أبدًا ..

لذا ، فقد تآزرت قواهم كلها لمواجهته ..

وانطلقت خلفه حوّاماتهم المقاتلة ..

ورصدت شاشة الزعيم كل هذا ، فصرخ فى ثورة عارمة :

ـ أغبياء ! حمقى .

لم تكن شاشته ترصد الأحداث فحسب ، وإنما تعمل على تقييمها ، وتحليلها ، وفرز نتائجها أولاً بأوّل ..

لهذا كان يستشيط غضبًا ..

وسخطًا ..

وحنقًا ..

وثورة ..

وبكل انفعالاته الجارفة ، وثب إلى جهاز الاتصال ، وصرخ :

ـ ماذا يفعل رجالك الحمقى يا قائد الأمن ؟! ماذا يطاردون ؟!

وعلى الرغم من الوحشية البالغة ، التى نطق بها الزعيم عبارته ، لم ينبس قائد أمنه ببنت شفة ، وهو يتابع الموقف بدوره ، على شاشة الرصد الخاصة به ..

فقد كان ما يحدث عجيبًا ..

عجيبًا حقًّا ..

لقد طارد رجال الكتيبة ذلك الفارس الطائر باستماتة ، وداروا حوله ، وحاصروه ، وصوّبوا نحوه أسلحتهم ، و ...

وفجأة ، اختفى الفارس ..

تلاشى فى الهواء دفعة واحدة ، كما لو أنه قد عاد إلى العدم ، الذى نبت منه ، أو إلى الفراغ الذى أتى عبره ..

وفى اللحظة التى شملتهم فيها حيرة بلا حدود ، وراحوا يدورون حول أنفسهم ، محاولين فهم ما حدث ، انطلق الفارس مرة أخرى ..

تمامًا كما انطلق فى المرة الأولى ..

لقد انقضّ عبر الممر ، وضرب جواده الهواء بجناحيه القويين ، ثم انطلق عبر المخرج ، وحلّق فى السماء ..

وفى آلية غريزية ، انطلق الجنود يطاردونه ، وضابطهم يصرخ :

ـ لا تسمحوا له بالإفلات هذه المرة .. لا تسمحوا له بالإفلات أبدًا ..

ومرة أخرى ، أطلق الجنود أشعتهم ..

أطلقوها بمنتهى القوة ..

والبراعة ..

والمهارة ..

والغضب أيضًا ..

وأمام عيونهم جميعًا ، رأوا الأشعة تصيب هدفهم ..

وتضربه ..

وتخترقه ..

إلا أنها لم توقفه ..

لقد واصل مناوراته الجوية البارعة ، على متن جواده النادر ، وأفلت من كل الإصابات ، وحاول الابتعاد ..

ولكن الجنود فعلوا تمامًا ما فعلوه فى المرة الأولى ..

لقد طاردوه ..

وحاصروه ..

و ...

ـ أغبياء !! حمقى !!

هتف الزعيم بالعبارة ، بكل غضب الدنيا ، فى وجه قائد أمنه ، الذى بدا حائرًا مرتبكًا ، على الرغم من عصبيته البالغة ، وهو يقول :

ـ الرجال يفعلون ما بوسعهم أيها الزعيم ..

صرخ الزعيم فى ثورة :

ـ ليطاردوا ماذا ؟!

قالها ، وهو يدير شاشته نحو قائد الأمن ، الذى التهمت عيناه فى سرعة تلك التحليلات العلمية فوقها ، قبل أن ينتفض جسده بمنتهى العنف ..

فما أعلنته الشاشة كان يبرر بالفعل غضب الزعيم ..

يبرره تمامًا .

* * *

للمرة الثالثة ، انطلقت كتيبة المتحورين تطارد ذلك الفارس وجواده المجنح ، وتحيط به فى سماء المعركة ..

وتحاصره ..

و ....

كيف يمكنك أن تتواجد هنا وهناك ، فى وقت واحد ؟!

ألقى الصبى سؤاله ، بمنتهى الدهشة والانبهار ، وهو يتابع ما يحدث ، على شاشة رصد كبيرة ، فى وكر ثان ، يبعد بعدة جبال ، عن موضع الوكر الأوّل ، فابتسم الفارس ، وهو يعد طعامًا بسيطًا ، وأجاب فى هدوء :

ـ لا تجعل هذا يخدعك كما خدعهم .. ما تراه أمامك هو صورة هولوجرامية مجسَّمة ، يمكن صنعها بأشعة ليزر خاصة ، بحيث تبدو ثلاثية الأبعاد ، وتامة الوضوح ، كما لو أنها حية .

هتف الصبى بأنفاس مبهورة :

ـ هل .. هل اخترعت هذا ؟!

هزَّ الفارس رأسه نفيًا ، وهو يضع الطعام أمامه ، فى حنان أبوى عجيب ، ثم داعب رأسه فى مودَّة ، قبل أن يجيب :

ـ الهولوجرام خدعة قديمة أكثر مما تتصوَّر يا فتى ؛ فقد ابتكرها لأوَّل مرة مهندس من أصل نمساوى ، يدعى (دينيس جابور) ، عام ١٩٤٧م ، أى فى نهايات النصف الأوَّل من القرن العشرين ، ولكن العالم لم يدرك أهميته فى ذلك الحين ، حتى نال (جابور) عنه جائزة (نوبل) فى الفيزياء ، عام ١٩٧١م(*) .. كل ما فعلته أنا هو أن طوَّرت الفكرة فحسب ، بالاستعانة بالتقنيات الحديثة ، حتى منحت الصورة الهولوجرامية ذلك المظهر الواقعى الحى .

(*) حقيقة علمية .

سأله الصبى فى لهفة :

ـ وما جائزة (نوبل) هذه ؟!

ابتسم الفارس ، وهو يقول :

ـ تناول طعامك أولاً ، وسأجيب كل أسئلتك فيما بعد .. إنك تحتاج إلى الطعام ، فى هذه الفترة من العمر ، ليساعدك على النمو ، ويمنحك القوة اللازمة ..

سأله الصبى بمنتهى الشغف :

ـ ولكن هناك أمر لا أطيق الانتظار لمعرفته .. لماذا أعددت هذا الوكر الاحتياطى ؟! هل كنت تعلم أنهم سيكشفون أمر الوكر الآخر ؟!

تنهَّد الفارس فى عمق ، وشرد ببصره وأفكاره بضع لحظات ، قبل أن يجيب الصبى فى صوت خافت ، حمل لمحة من الحزن :

ـ بل كنت أتوقَّع حدوث هذا ، فى يوم ما .. ولقد تعلمت ضرورة أن يكون هناك مخبأ احتياطى ، يلجأ إليه المرء ، إذا ما تعرَّض لكشف أمره ، فى لحظة ما .

سأله الصبى فى لهفة :

ـ من علَّمك هذا ؟!

صمت الفارس بضع لحظات أخرى ، بنفس الحزن والشرود ، قبل أن يلتفت إلى الصبى بابتسامة هادئة ، مجيبًا :

ـ الثعلب .

هتف الصبى بدهشة :

ـ الـ .. ماذا ؟!

ابتسم الفارس ، مجيبًا :

ـ الثعلب .. حيوان تواجد فى زمن ما قبل الانهيار ، ولست أدرى ما إذا كان مستمرًا ، أم قضت عليه التطورات النووية .. أوربما بقى ، وأصابته بعض التحورات الجينية ، حتّى صار على هيئة أخرى ، لن يمكننا معرفتها ، لو رأيناها الآن رأى العين .

تساءل الصبى مبهورًا :

ـ وكيف علمك الثعلب هذا ؟! .

هزَّ الفارس كتفيه ، مجيبًا :

ـ كان يشتهر ، فى الكتب العلمية القديمة ، بالذكاء والمكر والدهاء ، حتى أنـه كـان يجعل لوكره عدة مخارج مختلفة ، بحيث يمكنه الفرار من أحدها ، لو تم إغلاق الآخر أو محاصرته .

غمغم الصبى :

ـ وتعلمت منه ؟!

أومأ الفارس برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ أعظم مـا فـى الدنيا ، هو أنهـا تمنحك المعرفـة من كل مـا حولك ، ومن حولك .. كل ما عليك هو أن ترهف حواسك ، وتفتح عقلك ، وتلتهـم المعرفـة والخبرة ، من كل مـا يحيط بك .. من إنسـان .. أو حيوان ، أو حتـى نبتـة صغيرة ، ولـن يمضـى وقت طويل ، حتـى تجد نفسك وقد اكتسبت حصيلـة هائلـة ، تكفيك لمواجهة الحياة ، ومناورة خصومك وأعدائك أيضًا .

حدَّق فيه الصبى بانبهار شديد ، قبل أن يغمغم :

ـ أريد أن أصبح مثلك .

ابتسم الفارس ، فأضاف الصبى بأنفاس مبهورة :

ـ وأن اكتسب ما اكتسبته .

تطلَّع إليه الفارس بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يهـز رأسـه فى حزم ، قائلاً :

ـ كلا .

ارتجف قلب الصبى بين ضلوعـه فـى عنف ، وارتجفت شفتاه فى هلع ، ولكن الفارس مال نحوه ، واتسعت ابتسامته أكثر ، وهو يستدرك :

ـ أريدك أن تصبح أفضل منى .

تهلّلت أسارير الصبى ، وعاد قلبه يرقص بين ضلوعه ، فأضاف الفارس ، وهو يعتدل :

ـ وهذا يحتاج إلى فترة إعداد طويلة ، تجعلك قادرًا على مواجهة المستقبل وتحدياته .

هتف الصبى ، بكل فرحة الدنيا :

ـ حقًا ؟!

التقط الفارس أسطوانة مدمجة ، عالية الكثافة ، وهو يجيب بابتسامة أكبر :

ـ وستبدأ مرحلة الإعداد فورًا .

وشعر الصبى بالدماء تتدفق أكثر وأكثر فى عروقه ..

بل وبأنه لم يعد صبيًا ..

بعد اليوم ..

* * *

لم يشعر قائد أمن الزعيم ، فى حياته كلها بالقلق والتوتر ، مثلما شعر بهما ، وهو يدخل إلى قاعة العرش ، فى ذلك اليوم ، بعد مرور ثلاثة أشهر كاملة ، على تلك المواجهة العنيفة ، عند وكر الفارس ..

كان الزعيم يجلس على عرشه الضخم ، الذى فقد مقدّمة مسنده ، وقد انشغل تمامًا فى التطلّع إلى شاشة كمبيوتر كبيرة أمامه ، ومخاليه المنكمشة تمسّ أجزاءً منها ، بين كل لحظة وأخرى ..

وفى توتر لا محدود ، وبأقدام مضطربة متخاذلة ، راح قائد الأمن الجديد يقترب منه ..

ويقترب ..

ويقترب ..

و ....

ـ هذا يكفى ..

زمجر الزعيم بالكلمة ، دون أن يلتفت إليه ، فتسمّر قائد الأمن فى مكانه ، وشدّ قامته على نحو غريزى بحت ، وراح قلبه يخفق فى عنف ، وهو يتطلّع إلى الزعيم ، الذى لاذ بالصمت التام لبعض الوقت ، وهو يواصل عمله على جهاز الكمبيوتر الخاص به ، قبل أن يلتفت إليه بحركة حادّة ، جعلت جسده كله ينتفض فى عنف ، والزعيم يقول ، بصوت هادر رهيب :

ـ ما الذى توصّلتم إليه ؟!

كانت هذه هى اللحظة التى يخشاها القائد تمامًا ، لذا فقد جفّ حلقه ، وارتجفت أطرافه ، والتقط نفسًا عميقًا ، فى محاولة عابثة ، للسيطرة على توتره الشديد ، قبل أن يجيب بصوت خافت :

ـ لا شىء أيها الزعيم .

صاح الزعيم فى وحشية :

ـ لا شىء ؟!

انتفض جسد القائد فى عنف ، وتراجع بضع خطوات ، قائلاً فى سرعة لاهثة :

ـ لقد أعدنا تفتيش بقايا الوكر ، خمس مرات أيها الزعيم ، واستعنا بخبراء فى كل المجالات ، كما أمرت تمامًا ، وكلهم لم يعثروا على شىء .. لقد استخدم ذلك الفارس نظام تفجير ناسف حارق ، لم يترك أية بقايا يمكن فحصها .. لا ألياف ، أو خلايا ، أو أنسجة بشرية أو حيوانية .. الشىء الوحيد ، الذى تم العثور عليه سليمًا ، هو جهاز البث الهولوجرامى شديد التطوّر ، الذى مده عبر الممر ، وحتى مخرجه ، والذى نجح فى خداع كتيبتنا ، ودفعها إلى ..

قاطعه الزعيم فى سخط شديد :

ـ كفى .

كان القائد يتوقَّع منه ثورة هائلة ، إلا أنه فوجئ به يتراجع فى عرشه ، ويغمض عينيه فى قوة ، قائلاً فى سخط :

ـ المشكلة أنه يفكِّر فى كل خطوة ، ولا يترك أمرًا للمصادفات أبدًا .

استجمع القائد شجاعته ، أو ما تبقى منها ، ليغمغم :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا .

لم يبد حتى أن القائد قد سمعه ، وهو يواصل بنفس السخط :

ـ هناك وكر آخر .. أو ربما عدة أوكار أخرى .. إنه يقلِّد أسلوب الثعالب .

انعقد حاجبا القائد ، وهو يتمتم :

ـ الـ .. ماذا ؟!

مرة أخرى لم يبد أن القائد قد سمعه ، وهو يتابع :

ـ هناك شبكة من الممرات حتمًا ، تربط تلك الأوكار ببعضها البعض .. شبكةٌ تمتّد وسط الجبال ، أو ربما تحت الأرض .. شبكةٌ يدرك جيِّدًا أننا لن نتوصَّل إليها قط .. لقد نسف الوكر الذى كشفناه كله ، حتى يخفى أحد مداخل تلك الشبكة .

تصوَّر القائد أنها فرصته لإثبات وجوده ، فانتفض قائلاً ، فى حماس فرضه الموقف :

ـ يمكننا أن ننبش المنطقة كلها ، و ...

« الخرائط القديمة .. »

قاطعه الزعيم بهذا الهتاف المباغت ، قائلاً فى لهفة ، ندر أن يشاهده أحد عليها :

ـ الحل يكمن فى برنامج الخرائط القديمة .

ثم هبَّ من مقعده ، وراح يدور حوله ، متابعًا فى شراسة عجيبة :

ـ مهما بلغ ذلك الفارس المجهول ، من مهارة وحنكة ، فهو مجرَّد رجل واحد .. قد يمكنه كشف عدة كهوف ، فى جبال متجاورة ، وأن يجعل منها أوكارًا له ، ويزوِّدها بتكنولوجيا ، يحصل عليها من هنا أو هناك ، ولكنه لن يمتلك أبدًا التقنية اللازمة ، لحفر ممرات جبلية ، أو تحت أرضية ، تربط بعضها ببعض ..

غمغم القائد فى اضطراب :

ـ كيف إذن ؟

قبل أن يتم تساؤله ، قاطعه الزعيم مرة أخرى ، مستطردًا فى انفعال :

ـ لذا ، فهو يستخدم شبكة أنفاق موجودة بالفعل .. شبكة قامت الحضارة السابقة ببنائها ، وربطها ببعضها البعض .. شبكة أنفاق مترو .

هتف القائد ، الذى لم يسمع بهذا المصطلح فى حياته قط :

ـ أنفاق ماذا ؟!

تجاهله الزعيم تمامًا ، وهو يعود إلى عرشه ، ويلمس شاشة جهازه بأطراف مخالبه مرة أخرى ، قبل أن يعتدل مرة واحدة ، وتبرق عيناه على نحو وحشى رهيب ، وهو يقول :

ـ لقد ظفرنا به .

وقفز انفعال القائد إلى الذروة ..

بل إلى ما فوق الذروة ..

بكثير .

* * *

٤- أنفــاق ..

ساد هدوء مهيب ذلك المكان المقفر ، فى قلب الوادى الأزرق ، وبدا وكأن المكان قد تحوّل كله إلى صورة جامدة جافة ، لولا السحب التى تتحرك فى السماء ، أمام قرص الشمس ، الذى بدأ رحلة الغروب ، و...

وفجأة ، شق أزيز حوّامة ضخمة سكون وهدوء المنطقة ، قبل أن يظهر فارس شاب ، على متن مهر صغير ، وهو ينطلق وسط الوادى ، ثم تظهر خلفه الحوّامة ، التى تطارده فى شراسة ، وتطلق خلفه حزم الليزر القاتلة ..

وفى مهارة مدهشة ، راح الشاب يحاور ويناور ، ومهره الصغير يستجيب لقيادته ، على نحو يؤكد أنه قد تم تدريبه بمنتهى البراعة والدقة ..

وعلى الرغم من كفاءة الشاب ، وخفة وبراعة مهره ، ارتفع أمامه ، فى نهاية المنطقة ، جدار صخرى هائل ، يوحى بأن المطاردة ستنتهى هناك حتمًا ، شاء أم أبى ..

لذا فقد قام الشاب بمناورة أخيرة ، فجذب عنان مهره ، واستدار به استدارة مفاجئة ، وهو يسحب بندقيته الليزرية ، من جراب خاص معلّق بالمهر ، ويصوّبها نحو الحوّامة ، التى واصلت إطلاق حزم الليزر القاتلة نحوه ..

وعلى الرغم من حساسية ودقة وصعوبة الموقف ، اعتدل الشاب على متن المهر القوى ، وصوّب بندقيته جيدًا ..

وأطلق المهر صهيلاً ..

وضغط الشاب زناد بندقيته ..

ولكن حزمة ليزرية قوية ، انطلقت من الحوّامة ، قبل أن يضغط زناد بندقيته بلحظة واحدة ..

وارتطمت بصدر الشاب ..

وانتزعته من على متن مهره ..

و ...

هل أدركت الخطأ ؟!

انبعث صوت الفارس حازمًا صارمًا ، وهو يلقى سؤاله هذا ، فنهض الشاب من سقطته ، واعتدل واقفًا ، وهو يقول :

- لقد بذلت قصارى جهدى ، و ...

كــلا ..

نطق الفارس الكلمة ، الأخيرة ، فى صرامة أكثر ، وهو يضغط زرًا صغيرًا أمامه ، فتلاشى المشهد كله دفعة واحدة ، واختفى الوادى ، والجبل ، والجدار الصخرى الهائل ، وحتى السماء بسحبها ، وشمسها المائلة للغروب ..

ومع تلاشى الحوَّامة ، بدا المكان عبارة عن قاعة صخرية هائلة انتشرت فيها مجسات حسية عديدة ، وأجهزة بث هولوجرامية ، ونظم صوتية وبصرية شديدة التطوّر ..

ومن خلف حاجز سماوى اللون ، برز الفارس ، وهو يواصل حديثه :

ـ لقد بذلت جهدًا .. هذا ما أتفق معك بشأنه ، ولكنه ليس قصارى جهدك حتمًا ؛ فأنت لم تتخذ المسار الصحيح ولا رد الفعل السريع المناسب .

هزَّ الشاب كتفيه ، قائلاً :

ـ لا تنسى أننى كنت أواجه حوَّامة عسكرية .

أجابه الفارس ، فى صرامة قاسية :

ـ ولا تنسى أنت أنه لو كانت هذه المواجهة حقيقية ، لكنت فى عداد الأموات الآن .

التقط الشاب نفسًا عميقًا ، إلا أنه لم يلبث أن خفض عينيه ، متمتمًا فى خفوت :

ـ هذا صحيح .

تطلَّع إليه الفارس لحظة ، قبل أن يتجه إليه ، ويضع يده على كتفه ، قائلاً فى حنان ، يتناقض تمامًا مع صرامته السابقة :

ـ دعنى أذكرك مرة أخرى أننا نواجه خصمًا لا يرحم .. ولا يكل أو يمل .. وأى خطأ ، ولو بسيط ، يجعلنا نقع فى قبضته .. أو نلقى مصرعنا .. هل تدرك هذا ؟!

شدَّ الشاب قامته ، وهو يقول فى حزم :

ـ أدركه تمامًا ، وأحفظه عن ظهر قلب .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ وأعدك أن أبذل جهدًا مضاعفًا ، فى المرة القادمة .

ابتسم الفارس ، قائلاً :

ـ لا تعدنى أنا .. عد نفسك ؛ فستفعله من أجلك وليس من أجلى .

قال الشاب فى سرعة :

ـ بل من أجل البشرية .

ثم استدرك فى حذر :

ـ هذا ما لقنتنى إياه ، طيلة ما يقرب من عامين .

اتسعت ابتسامة الفارس ، وهو يقول :

ـ كنت صبيًا حينذاك ، والآن صرت شابًا يافعًا .

غالب الشاب عواطفه ، وهو يقول :

ـ بفضلك .

هزّ الفارس رأسه نفيًا فى قوة ، ورفع سبّابته أمام وجهه ، وهو يقول فى حزم :

- بل بفضل الله (سبحانه وتعالى)... لا تنسى هذا أبدًا .

أجابه الشاب فى سرعة :

- لا أحد ينسى ما يؤمن به .

أشار الفارس بسبّابته مرة أخرى ، قائلاً :

- بالضبط .

تنهّد الشاب فى ارتياح ، وتساءل فى اهتمام :

- هل سنعيد الكرّة ؟!

أجابه الفارس ، وهو يصحبه إلى قاعة صغيرة :

- كلا .. سنكتفى بهذا اليوم ، فأنت لم تتوقّف عن التدريب منذ الصباح .

ابتسم الشاب ، وهو يقول :

- هذا لا يرهقنى ، بل يسعدنى .

ربّت الفارس على كتفه ، وهو يشعل شاشات الرصد ، قائلاً :

- أعلم هذا .

تابع الشاب فى اهتمام شاشات الرصد المتعدّدة ، التى تنقل كل ما يحدث حول المكمن ، وفى أماكن شتى من الوادى الأزرق ، والمدينة الكبيرة ، قبل أن يتساءل :

- أما زالوا يواصلون البحث ، فى أنفاق المترو القديمة ؟!

ابتسم الفارس ، مجيبًا :

- نعم .. لقد ابتلعوا الطعم ، ويسيرون خلف الأدلة الزائفة ، التى أضعها أمامهم ، كل حين وآخر .

غمغم الشاب فى حيرة :

- إلى الحد الذى يهدرون فيه عامين كاملين ، داخل شبكة من الأنفاق المعقّدة ؟!

أجابه الفارس فى هدوء ، وهو يواصل متابعة الشاشات :

- هذا أكثر ما ينبغى أن تتعلمه عن عقلية الطغاة .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

- إنهم لا يتنازلون عن رغباتهم ونزواتهم .. أبدًا .

ولم يدر لحظتها كم كان قوله صادقًا ..

وبمنتهى الدقة ..

* * *

مستحيل !

صرخ زعيم المتحورين بالكلمة ، فى غضب ثـائر هـادر ، وهو يواجه قائد أمنه ، الذى ارتجف أمامه رعبًا ، وهو يغمغم :

ـ إننا نبذل جميعًا قصارى جهدنا أيها الزعيم ، بناءً علـى خطة وضعتها أنت ، وخرائط سلمتنا إياها ، و...

وماذا ؟!

صرخ فيه الزعيم مرة أخرى صرخة هادرة ، وأطل شرر الدنيـا كله من عينيه ، وهو يهب من عرشه الضخم ، ويهبط فى درجـات السلم القليلة أمامه ، علـى نحو دفـع قـائد أمنـه إلـى التراجع فـى ارتياع ، والزعيم يصرخ متابعًا .

ـ كل مـا تقولـه ليس مـبررًا .. أنتم محترفون .. محـترفون وتتقاضون أجورًا باهظة ، من أجل تحقيق كل مـا أنشده ، وليس من حقكم إضاعة عامين كاملين ، دون منحى نتيجة واحـدة .. بل على العكس .. لقد شن علينا ذلك الفارس المجهول أكثر من عشر غارات ناجحة ، جشّمنا خلالها خسائر جسيمة ، دون أن تظفروا به ، أو توقعوه فى شراككم ..

لم يدر قائد الأمن بم يجيب ، وهو يتطلّع إليه فـى توتـر ، حتـى صرخ فيه الزعيم مرة أخرى :

ـ إنك لا تجيبنى .

انتفض جسد الرجل فى عنف ، إلا أن تلك الصرخة الأخـيرة جعلتـه يستجمع ما تبقى منه ، ويهتف فى عصبية :

ـ لقد مشّطنا كل المنـاطق والأنفاق ، التـى أرشدتنا إليهـا أيهـا الزعيم ، ونحن فى انتظار أوامرك .

انعقد حاجبا الزعيم الكثين فى شدة ، وهو يرمقـه بنظرة نارية غاضبة ، قبل أن يفرد قامته ، ويقول فى حزم :

ـ إذن فهو لا يستغل تلك الأنفاق .

أجابه قائد الأمن ، فى سرعة وتوتر :

ـ هذا صار يقينيًا أيها الزعيم .

ازداد انعقاد حاجبى الزعيم أكثر ، وعاد يجلس على عرشه فـى بطء وآلية ، ويغرق فـى التفكير بضـع لحظـات ، قبل أن يقـول ، وكأنما يحدّث نفسه :

ـ ولكن هذا مستحيل ! وغـير منطقـى أيضًـا .. إنـه لا يسـتطيع الانتقال من وكر إلى آخر ، إلا عبر أنفاق مـا ، ولـو أنهـا ليست أنفاق المترو ، فما هى ؟!

صمت قائد الأمن تمامًا ، ولم ينبس ببنت شفة ، مفسـحًا المسـاحة كلها لأفكار الزعيم ، التى غرق فيها حتى النخـاع ، قبل أن يشعل جهاز الكمبيوتر الخاص به ، ويواصل حديثه مع نفسه :

ـ أية أنفاق يستخدم إذن ؟! إنه لم يُنشئها حتمًا .. إنها موجودة هناك على نحو ما .. موجودة منذ أيام الـ...

بتر عبارتـه بغتـة ، وبدا وكـأن عقلـه قد اشتعل بفكرة جديدة مدهشة ، قبل أن تتألَّق عيناه ببريق رهيب ، ويغمغم فى شراسة :

ـ خطة الاستمرار .

اعتدل قائد أمنـه فـى انتبـاه ، وراقبـه وهـو غـارق فـى التفكير للحظـة أخرى ، قبل أن يلتفت إليـه ، قـائلاً فـى صرامـة آمـرة وحشية :

ـ أريد ملفات الكمبيوتر السرية القديمة .

لم يبد لقائد الأمـن أنـه قد استوعب الموقف كلـه ، على نحو جيد ، لذا فقد مال إلى الأمام ، متسائلاً فى حذر :

ـ أية ملفات ؟!

هبَّ الزعيم واقفًا بحركـة حـادة ، جعلت قـائد أمنـه يثب إلـى الخلف فى توتر ، وهو يقول فى حدة :

ـ الملفـات السرية القديمـة ، التى كانت تحتفظ بهـا حكومـات العهد السابق .. كل مـا يمكن الحصـول عليـه ، من تلك الملفـات القديمة .

شعر قائد الأمن بحيرة شديدة تسرى فى عروقه ، وهو يقول :

ـ وبم يمكن أن تفيدنا تلك الملفات السرية القديمة ؟! لقد فقـدت أهميتها بالتأكيد ، بعد أن...

قاطعه الزعيم فى شراسة ، وعيناه شاردتان ، وكأنما يحدث نفسه :

ـ تلك الملفات ستقودنا مباشرة إليه ، وستعاوننا على كشـف الأمر ، والقضاء تمامًا على ذلك الفارس .. الفارس المجهول ..

نطقها ، ثم تألَّقت عيناه فى ظفر ..

وزهو ..

ووحشية ..

بلا حدود .

* * *

تماسكت أصابع الشاب ، على نحـو مدهش ، وهـو يمسك أداة دقيقـة رفيعـة ، اقترب بهـا فـى ثبـات مـن جهاز إليكترونى بـالغ الصغر ، وراح يثبت أحد أجزائه ، قبل أن يلتقط الجهـاز كلـه ، ثم يضعه على أذنه ، وينصت فى اهتمام ، ويتنهَّد ، مغمغمًا :

ـ إنه يعمل بكفاءة .

ابتسم الفارس فى إعجاب وارتياح ، وهو يقول :

ـ لم أشك لحظة فى أن هذا سيحدث .

تهلّلت أسارير الشاب ، وهو يقول :

ـ أيعنى هذا أننى قد اجتزت الاختبار بنجاح ؟!

هزّ الفارس رأسه نفيًا فى بطء ، فامتقع وجه الشاب ، وهو يغمغم :

ـ ولكننى ..

باغته الفارس بابتسامة كبيرة ، وهو يقول فى حسم :

ـ بل اجتزت فترة تدريبك كلها بنجاح .

تألّقت عينا الشاب لحظة ، ثم لم يلبث أن وثب صارخًا ، بكل فرحة الدنيا :

ـ لقد فعلتها .. لقد فعلتها .

اتسعت ابتسامة الفارس ، وهو يتقدّم نحوه ، ويحتويه بين ذراعيه ، قائلاً :

ـ الآن أصبحت مؤهلاً للمواجهة .. ولكن ..

انتفض جسد الشاب ، مع كلمة (لكن) هذه ، فتراجع فى هلع ، إلا أن الفارس استدرك فى سرعة ، محافظًا على ابتسامته :

ـ ينبغى أن تخوض مرحلة تدريب عملية أولاً .

لم يصدق الشاب نفسه ، وهو يهتف :

ـ رباه ! أتعنى أننى سأخوض مواجهة حقيقية ؟

أومأ الفارس برأسه ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .. لابد وأن نختبر قدراتك الفعلية ، على أرض معركة حقيقية .

تساءل الفتى ، بكل لهفة الدنيا :

ـ ومتى ؟! متى يمكننى أن أفعل هذا ؟!

هزّ الفارس كتفيه ، مغمغمًا :

ـ هذا يتوقّف فى الواقع على...

قبل أن يتم عبارته ، قاطعه فجأة أزيز متصل ، ارتبط بضوء متقطّع صدر عن مصباح أحمر صغير ، يعلو شاشة رصد خاصة بالطوارئ ، التفت إليها الاثنان بحركة حادة ، ليطالعهما مشهد مجموعة من عربات المتحورين المتطوّرة القوية ، التى راحت تحيط بالمنطقة التى تضمّ المكمن الرئيسى ، فى نفس الوقت الذى حملت فيه السماء فرقة من الحوّامات المقاتلة ، تدور حول المكان ..

وفى حزم ، هتف الشاب :

ـ لقد توصلوا إلينا .

انعقد حاجبا الفارس ، وهو يغمغم :

ـ إنهم يستعدون للبحث فحسب .

تساءل الشاب فى توتر :

ـ هل سيمكنهم التوصّل إلينا هذه المرة ؟!

صمت الفارس بضع لحظات ، ثم أجاب فى حزم :

ـ لو توصّلوا إلى المدخل الرئيسى ، لن يصبح هذا عسيرًا .

راقب الشاب شاشة رصد الطوارئ بضع لحظات ، قبل أن يتساءل فى اهتمام حازم :

ـ سيّدى .. ألم يحن الوقت بعد ، لتخبرنى أين نحن بالضبط ؟! .

صمت الفارس لحظة ، وكأنما يدير الأمر فى رأسه ، قبل أن يجيب :

ـ فى مخبأ الطوارئ .

هزّ الشاب رأسه ، قائلاً :

ـ أعلم هذا ، ولكننى أتساءل عن ..

تابع الفارس فى حزم ، دون أن ينتظر إكمال العبارة :

ـ ليس بالنسبة لنا ، ولكن بالنسبة لحكومة الدولة ، التى كانت تحتل موقع الوادى الأزرق ، قبل معركة الفناء .

حدّق الشاب فيه ، مغمغمًا :

ـ لست أفهم .

أشار الفارس بيده ، والتفت إليه ، قائلاً :

ـ قديمًا ، وفى زمن الاستقرار النسبى ، كانت لدى كل حكومة فى العالم خطة للطوارئ ، تعرف باسم (خطة استمرار الحكومة) ، وتستهدف هذه الخطة حماية الحكومة والقيادات السياسية والعسكرية للدولة ، فى حالة حدوث هجوم شامل عنيف ، إذ يتم نقلهم جميعًا عندئذ إلى مكان آمن ، يطلق عليه اسم المقر الاحتياطى ، وهو هذا المكان ، الذى نقف فيه الآن ، والذى تربطه شبكة من الأنفاق بوحدات أخرى أصغر حجمًا ، كان ينبغى أن تحتل كل منها قيادة من قيادات الدولة ، بحيث يمكن إدارة حرب عامة شاملة من هنا ، حتى لو أصيبت كل مرافق ووحدات الدولة على السطح .

تساءل الشاب مبهورًا :

ـ وكيف كشفت أمرًا كهذا ؟!

قاده الفارس إلى حجرة صغيرة ، اكتظت بآلاف الأدراج المعدنية الصغيرة ، وهو يقول :

ـ جدى كان أحد كبار رجال الحكومة ، ولقد عثرت بين ما تركه خلفه على سر هذا المخبأ ، وعلى هذا الكم الهائل من المعلومات داخله .

ثم استدار إلى الشاب ، مضيفًا :

ـ وسأترك كل هذا لك .

انتفض جسد الشاب ، وهو يقول فى هلع :

ـ تتركه لى ؟! ماذا تعنى ؟!

رمقه الفـارس بنظـرة صامتـة ، قبـل أن يعـود إلـى القاعـة الرئيسية ، ويشير إلى شاشة رصد الطوارئ ، مجيبًا :

ـ إن لم توقفهم الآن ، فلن يكون لدينا أمل فى النجاة .

شدَّ الشاب قامته فى حزم ، قائلاً :

ـ إنها الفرصـة التى ننتظرها إذن .. المواجهة الحقيقية الأولى .. دعنا نخرج إليهم معًا .. دعنا نريهم أن الاتحـاد قوة ، وأننـا معًا سنذيقهم من الهزائم ، أضعاف أضعاف ما كنت تفعله بهم وحدك .

نطقها ، واتجه فى حزم نحـو زيـه الخـاص ، الذى طـال شوقه لارتدائه ، وراقبه الفارس لحظة ، ثم التقط كـرة معدنيـة صغيرة ، وهو يغمغم :

ـ ربما يبدو قولك هذا منطقيًا .

كان الشاب يهم بالتقاط زيه الخاص ، عندما ألصق الفارس تلك الكرة المعدنية بكتفه ، مستطردًا ، فى شىء من المرارة :

ـ ولكنه لا يناسب خططى المستقبلية .

وانتفض جسد الشاب فى عنف ، مع تلك الصاعقـة المحـدودة ، التى سرت فى جسده ، والتى ألقته شبه فاقد الوعى ..

كان يرى ويسمع ما حوله ، إلا أن أطرافـه ولسانه كـانت كلها ترفض الاستجابة له تمامًا ..

وأمام عينيـه ، تحرك الفـارس ليلتقط زيـه القتـالى ، قـائلاً فـى حزم ، يحمل لمحة من الحزن :

ـ خبرتى السابقة تؤكد أن هذا أدق موقف واجهناه ، وأن القوات المحيطة بنا ، والتى يبدو من الواضح أنها تعرف هدفها جيدًا ، لن تلبث أن تظفر بنـا حتمًا ، طـال الزمـن أم قصـر .. وهـذا يعنى أن البشر سيفقدون أحد أهم أسلحتهم ، فى مواجهة الظلم والوحشية والطغيان .

تمتم الشاب فى صعوبة ، وهو يحاول عبثًا تحريك أطرافه :

ـ أنت .

خرجت الكلمة ثقيلة بطيئة ، إلا أنها مسَّت شغاف قلـب الفـارس مباشرة ، فـارتجفت شـفتاه ، وشـد قامتـه بقـوة ، وكـأنمـا يحـاول السيطرة على مشاعره ، وهو يجيب بمنتهى الحزم :

ـ بل أنت .

واستدار وهو يرتدى زيـه القتـالى ؛ ليواجه الشاب الراقد أرضًا ، ويقول فى مزيج عجيب ، من الحزن والزهو والحزم والأمل :

ـ أنت أمل المستقبل ، بعد الله سبحانه وتعالى .

وحاول الشاب أن ينطق كلمة ما ..

أية كلمة ..

حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكن لسانه لم يستجب هذه المرة أبدًا ..

وفى أعمق أعماقه ، شعر بكل مرارة وقهر الدنيـا ، وهو يرى الفارس الذى لقنه كل ما يعرفه ، وهو يسحب أسلحته ، ويسمعه يقول فى صلابة :

ـ ما أفعله الآن ليس رد فعل عشوائى .. فمهما تعقَّدت الأمور أو تداخلت ، لا تقدم على رد فعل عشوائى قط .. الأفضل أن تكون لديك دومًا خطط بديلة .. خطط للطوارئ ، والطوارئ القصوى أيضًا .. وما أفعله الآن أحد الدروس المستفادة من الحكومـات القديمـة .. إنهـا خطة الاستمرار .. استمرار كفاحنا ضد جبروت وطغيـان المتحورين .. فعندمـا تبلـغ الأمور ذروتهـا ، كـان ينبغى أن أحـافظ علـى بقـائك أنت .. على استمراريتك ؛ باعتبار أنك الأمل... يا (أمل) .

والتقط نفسًا عميقًا ، وهو يرسم على شـفتيه ابتسـامة ، حملت على الرغم منه ، لمحة حزن واضحة ، قبل أن يقول :

ـ وهذا آخر درس ألقنك إياه يا ربيبى .

وعلى الرغم من جمود أطرافه ، راح الشـاب يقـاتل باستماتة ، فى كل ذرة من كيانه ، وعيناه تتابعان الفارس وهو ينصرف ..

ويستعد للمواجهة ..

وعلى الرغم منه أيضًا ، ومن الكراهيـة المعتـادة فـى مثل عمره ، لكل مظاهر الضعف والتراخى ، انحدرت من عينيه دمعة ..

دمعـة ساخنـة ، كـادت تلتهم وجنتيـه ، وهى تنحدر عليهمـا ، لتستقر على أذنيه ..

ومن جذور أعماقه ، وبدون أن ينطق لسانه حرفًا واحدًا ، صرخ :

لا ..

لا تقاتل وحدك أيها المعلم ..

لا ..

أما الفارس نفسه ، فقد امتطى جواده المجنَّح فى حزم ، وضغط أزرار جهاز مثبت على متنه ، وهو يقول فى حزم ، مربتًا على عنقه :

ـ استعد يا صديقى .. لقد شاركتنى حروبًا ومواجهات عديدة ، وكنا ننتصر دومًا بتآزرنا ، وفهم كل منـا للآخر .. الجزء البشرى فى جيناتك المركَّبة ، كان خير عون لى ، فى كل قتـال .. ويبدو أننـا سنخوض اليوم تلك القتال ، الذى خططنا له طويلاً .. القتال الاحتياطى ..

ثم شدَّ قامته ، مضيفًا بمنتهى الصرامة :

ـ والأخير .

قالها ، ثم ضغط زرًا فى حزامه ، فانزاح جدار صناعى أمامـه ، كاشفًا نفقًا طويلاً واسعًا ، فهتف :

ـ الآن .

حتى وقبل أن يكتمل هتافه ، كان الجواد الأصيل يفرد جناحيـه ، فى مشهد رهيب مهيب ، ويطلق صهيلاً قويًا ..

ثم ينطلق ..

ينطلق مع فارسه ، لخوض معركتهما العنيفة ..

والوحشية ..

والأخيرة .

* * *

على نحو لم يحدث من قبل ، تألَّقت عينا زعيم المتحورين ، فى وحشية رهيبة ، وهو يتابع شاشة الرصد الخاصة به ، هاتفًا :

ـ سنفعلها هذه المرة .. سنظفر به حتمًا .

ثم استدار إلى قائد أمنه ، مكملاً فى شراسة :

ـ هذه فائدة الاحتفاظ بأكوام الأسرار القديمة .. لقد انتزعنا مـن وثائقهم خطة استمرار الحكومة ، وخرائطها ، وأنفاقها ، وسيقودنا إليـه هذا ، دون أدنى شك ..

بدا قائد القوات شديد التوتر ، وهو يغمغم :

ـ ولكننا دفعنا معظم قواتنا لحصار تلك المنطقة أيها الزعيم ، حتى أننا لم نترك ما يكفى لحماية المدينة الكبيرة .

ابتسم الزعيم فى سخرية ، قائلاً :

ـ حماية ماذا ؟! ومن يمكن أن يهاجم المدينة الكبيرة أيها الصغير ؟! أنا موقن هذه المرة من أن خصمنـا الوحيد هنـاك ، فى قلب تلك المنطقة ، التى تحاصرها قواتنا ، وما دمنا لم نترك ثغرة واحدة للفرار ، فما الذى يمكن أن نخشاه هنا ؟!

مطَّ القائد شفتيه ، متمتمًا :

ـ من يدرى ؟!

صرخ فيه الزعيم فى قسوة :

ـ أنا ؟!

انتفض جسد القائد فى عنف ، وهو يحدِّق فيه بدهشة مذعورة ، فهبَّ هو من عرشه الضخم ، متابعًا :

ـ أنا أدرى كل شىء .. كل ما حدث ، ويحدث ، وما يمكن أن يحدث أيضًا .

انتفض جسد قائد الأمن مرة أخرى ، وهو يقول فى عصبية :

ـ لا يملك هذه القدرة سوى إله .

برقت عينا الزعيم ، على نحو وحشى جنونـى ، وهو يقول ، رافعًا ذراعه بشكل مسرحى قديم :

ـ أو من يسند إليهم مهامه على الأرض .

اتسعت عينا قائد الأمن ، وهو يحدّق فيه بذهول ..

العبارة الأخيرة أزالت من أعماقه كل لمحة شك ..

الزعيم مجنون ..

مجنون حتمًا ..

مجنون ووحشى وخطير ..

ربما يحكم بالفعل أقوى قوة ضاربة ، تبقّت على الأرض كلهـا ، بعد حرب الفناء ، إلا أنه ليس سليم العقل حتمًا ..

وهذا يعنى أن الحضارة المتبقية أصبحت كلها فى خطر ..

خطر الانهيار ..

والدمار ..

والفناء مرة أخرى ..

هذه المرة أيضًا ، دع جنودك ينتبهون جيدًا ..

قطع الزعيم أفكـاره بهذه الصيحـة الوحشية الهادرة ، قبل أن يلوّح بسبّابته أمام وجهه ، مستطردًا :

ـ إياكم أن يمس الجواد بسوء .

مطّ قائد الأمن شفتيه ، وهو يدرك عدم جدوى مناقشة الأمر ، وغمغم فى استسلام :

ـ فليكن أيها الزعيم .. فليكن .

تألّقت عينا الزعيم مرة أخرى ، وتراجع على عرشه الضخم ، وأدار عينيه مـرة ثانية إلى شاشة رصده الخاصة ، التى نقلت اتخاذ قواته لمواقعها ، واستعدادها الكامل لشن الهجوم الشامل ، فى أية لحظة يصدر فيها أمره بذلك ، وقال فى زهو وحشى :

ـ والآن ، دعنا نشعل النيران الأخيرة .

قالها ، وانحنى نحو جهاز الاتصال الزعامى ، وضغط زره ، و ...

ودوى الانفجار ..

دوى بمنتهى العنـف والقوة ، حتـى أن كل ذرة فـى كيان قـائد الأمن قد ارتجفت بشدة ..

والتعبير هنا ليس مجازيًا على الإطلاق ، بل هو تعبير واقعى .. واقعى تمامًا ..

فالانفجـار الـذى دوى ، لـم يكـن هنـاك ، حيـث تحـاصر قـوات المتحورين مكمن الفارس ..

بل كان فى الداخل ..

داخل المدينة الكبيرة ..

مباشرة ..

انفجار ارتجَّت له قاعة العرش كلها ، واختل معه توازن قائد الأمن ، فسقط أرضًا ، وهو يصرخ :

ـ ماذا حدث أيها الزعيم ؟! ماذا حدث ؟!

انطلق من عينى الزعيم ، كل شرر الدنيا ، وهو ينهض ، قائلاً فى غضب هادر ثائر :

ـ إنه هو .

ومع آخر حروف كلماته ، وربما حتى قبل أن تكتمل ، ومن خلف الجدار الزجاجى الضخم السميك للقاعة ، والذى يطلّ على المدينة كلها ، ظهر الفارس ..

ظهر على متن جواده المجنَّح ، وهو يحلِّق فى سماء المدينة الكبيرة ، وتحت قبتها الواقية الضخمة ، مشهرًا سلاحه الليزرى القوى ، ليطلق أشعته فى عدة اتجاهات ، انتقاها بعناية فائقة ..

وفى عدة أماكن من المدينة ، دوت انفجارات ..

وانفجارات ..

وانفجارات ..

كان من الواضح أن الفارس ينفذ خطة قديمـة ، أعدها واستعد لها ، منذ فترة من الزمان ..

خطة تعتمد على غطرسة وغرور جبابرة المدينة الكبيرة ، الذين تصوَّروا أنه لا قبل لأحد بهم ، فاهتموا بحماية مدينتهم من الخارج ، وأهملوا هذا إلى حد كبير فى الداخل ..

وبكل غضب وثورة الدنيا ، زمجر الزعيم الوحشى ، صارخًا :

ـ لقد فعلها .. أحد أنفاقه السرية كان يقود إلى هنا .. إلى قلب مدينتنا !!

صاح قائد الأمن ، وهو يلتقط جهاز اتصاله الفائق ، للاستنجاد برجاله :

ـ إنه ينسف الدفاعات الداخلية .. حتى الخفية منها .. إنه يعرف أهدافه جيدًا .

زمجر الزعيم بوحشية بلا حدود ، وهو يصرخ :

ـ مر قواتنا بالعودة .. أريد الكل هنا فورًا .

امتقع وجه قائد الأمن ، مع الانفجارات المتوالية ، التى تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

وبكل ذعره ، حدَّق فى الجدار الزجاجى الضخم لقاعة العرش ، صارخًا :

ـ إنه .. إنه يتجه إلى هنا ..

كان الفارس ينطلق بالفعل نحو الجدار الزجاجى السميك للقاعة ، والمطلّ على المدينة الكبيرة ، وهو ينتزع من جراب جواده المجنَّح مدفعًا صغيرًا ، صوبّه نحو الجدار ، فصرخ قائد الأمن فى رعب :

ـ ابتعد أيها الزعيم ..

وأطلق الزعيم زمجرة وحشية ، و ...

ودوى الانفجار ..

انفجار قوى ، حطَّم الجدار الزجاجى ، ونسفه فى عنف ، وأطاح بجسد قائد الأمن ، عبر القاعة الواسعة ، ليرتطم بالجدار ، ثم يسقط على وجهه فاقد الوعى ، محطم الأنف والكرامة ..

أما الزعيم ، فالعجيب أن جسده القوى ، وقدميه الراسختين فى الأرض ، جعلته يقاوم الانفجار ، ويطلق زمجرة أكثر قوة وعنفًا وشراسة ، فى نفس اللحظة التى عبر فيها الفارس بجواده المجنَّح ، تلك الفجوة ، المتخلفة عن الجدار ، وانقضّ عليه مباشرة ..

وعلى الرغم من أن انقضاضة الفارس كانت رهيبة قوية ، كافية لبث الرعب والرهبة ، فى أشد القلوب شجاعة وقوة ، إلا أن الزعيم الوحشى استقبلها بزمجرة هائلة رهيبة ، ارتجت لها جدران قاعة عرشه كلها ، فى نفس اللحظة التى رفع فيها الفارس بندقيته الليزرية ، وصوبّها نحوه ، و...

وفجأة ، انطلقت صاعقة ما ..

صاعقة نبتت من مكان ، لم يميِّزه الفارس جيدًا ، وانطلقت لترتطم بصدره ، وتنتزعه من على متن جواده المجنح فى عنف ، وتلقى به أرضًا ..

وبسرعة ، هبَّ الفارس واقفًا على قدميه ، على الرغم من الآلام الرهيبة التى يشعر بها ، فى حين واصل جواده المجنَّح التحليق داخل القاعة الواسعة بضع لحظات ، قبل أن يضرب هواءها بجناحيه ، ويهبط فى نهايتها ، منتظرًا أوامر فارسه ..

أما الزعيم الوحشى ، فقد فرد قامته فى زهو ، وأطلق ضحكة رهيبة مجلجلة ، ردَّدت جدران قاعة عرشه صداها ، قبل أن تبرق عيناه ببريق مخيف ، وهو يقول :

ـ لو أنك تتصوَّر أنك ستفاجئنى بهذا الهجوم ، فاسمح لى أنا أن أفاجئك .

أدار الفارس عينيه فى المكان فى سرعة ، واستقر بصره لحظة

على شاشة الرصد الخاصة ، وجهاز الكمبيوتر الملحق بها ، والتى استقرت إلى جواره حقيبة الملفات الإلكترونية السرية ، مستندة إلى العرش الضخم ، قبل أن يرفـع فوهـة بندقيتـه الليزريـة القويـة ، قائلاً :

ـ ولو أنك تتصوَّر أن قواتك ستعود لمشاركتك ومؤازرتك ، فـلا داع لأن تضيع وقتك ، إذ أنهـا منشـغلة كلهـا فـى قتـال وهمـى ، ينطلق فى منطقة بعيدة عن هدفها الحقيقى .

أدار الزعيم الوحشى رأسه فى بطء ؛ ليلقى نظرة على شاشة راصده الخاص ، والتى نقلت مشهد طلقات ليزريـة قويـة ، تنطلق نحو قواته ، من جبل بعيد عن مكمن الفارس ، وقواته كلها تتجـه لقتالها ، والرد عليها ، دون أن يبدو لها عدوًا واضحًـا ، ثم عاد ببصره إلى الفارس ، قائلاً فى استهتار وحشى :

ـ ومن يحتاج إلى مشاركة أو مؤازرة قوات حمقاء كهذه ؟!

قالها ، ثم بدا وكأنه يلتقط نفسًا عميقًا ..

ولكن حاجبى الفارس انعقدا فى شدة ..

فمع ما فعله الزعيم ، راح جسده يتضخَّم ..

ويتضخَّم ..

ويتضخَّم ..

ومع تضخمه ، تألَّقت خلاياه ..

والتمع جسده ..

وبرقت عيناه ..

وسرت فـى الهـواء المحيط بـه كلـه نبذبـة كهرومغناطيسية قويـة ، امتزجت بضحكتـه الوحشية الرهيبـة ، وهـو يقـول ، بصـوت بـدا وكأنه يأتى من أعمق أعماق بئر سحيقة هذه المرة :

ـ مفاجأة حقيقية .. أليس كذلك ؟!

توتَّرت أصابع الفارس ، الممسكة ببندقيته الليزرية القوية ، فى حين راح شـعر الزعيـم يتطـاير ، مـع الدوَّامـة الكهرومغناطيسـية الرهيبة ، التى أحاطت بجسده ، وهو يتابع :

ـ هل تصوَّرت أننى أحتل منصب الزعيم هنا بإرادة الآخرين ، أو بمشيئتهم الحرة ؟! واهم أنت لو تصوَّرت هذا ، على الرغم من كل ما نفعله ، لإقناعهم به .. إنها مسألة قوة بالدرجة الأولـى يا هذا .. مسـألة قدرات وسطوة .. الطاقـة النوويـة ، التـى حـوَّرت أجزاءهم ، وصنعت منا جميعًا جنسًا أرقى وأقـوى ، منحتنـى أكثر مما منحتهم .. منحتنى القدرة على إطلاقها فى خلاياى وأعماقى .

ثم مال نـحو الفارس ، وتألَّقت عيناه أكثر وأكثر ، وهو يضيف :

ـ ولهذا يطلقون علىَّ هنا لقب (النووى) .

وتراجع مطلقًا ضحكة وحشية رهيبة ، انتفضت لها كل خلية فى جسد الفارس ، الذى رفع فوهة بندقيته الليزرية القوية ..

وأطلق (النووى) زمجرة هائلة ..

ومعها أطلق صاعقة أخرى نحو الفارس ..

ودوى انفجار جديد ..

وعنيف ..

* * *

٥ـ البـــداية ..

كل شىء له حل ..

كل مأزق له مخرج ..

ترددت العبارتان فى رأس الشاب ، وهو يستعيد قدرات أطرافه على الحركة رويدًا رويدًا ..

لقد رددهما الفارس على مسامعه طويلاً ، وهو يلقنه أسس الحياة والصراع ..

ودربه على التعامل معهما .

هناك إذن وسيلة لاستعادة حركته ..

وسيلة فى مكان ما حوله ..

وكل ما عليه هو أن يعثر عليها ، وأن يجيد استغلالها ..

وربما كانت هذه مواجهته الأولى ..

مواجهته الحقيقية ..

فى نفس اللحظات ، التى دارت فيها هذه الأفكار ، فى ذهن الشاب ، فى المكمن الرئيسى ، كانت بندقية الفارس الليزريـة تنطلق فى قاعة عرش زعيم المتحورين ، الشهير باسم (النووى) ، فى الوقت الذى تصيب فيه صاعقة هذا الأخير صدر الفارس ، وتنتزعه من مكانه ، وتلقى به أرضًا فى عنف ..

ودوى الانفجار ..

طلقة بندقية الفارس النووية أصابت هدفها بمنتهى الدقة ، قبل أن تقتلعه صاعقة (النووى) من مكانه ..

أصابت تلك المنطقة ، التى تحوى شاشة الرصد ، والكمبيوتر الخاص ، وكل الملفات السرية القديمة ..

ونسفتها نسفًا ..

وعلى الرغم من أن الزعيم قد أصاب هدفه بنجاح ، إلا أن الغضب الصارم كاد يعصف بنفسه ، عندما فقد أشياءه الخاصة ، فزمجر فى وحشية ، وصرخ :

ـ أيها التعس .

كان الفارس يبذل قصارى جهده ، فى محاولة للنهوض ، مع الآلام الرهيبة المبرحة ، التى انتشرت فى جسده كله ، ومزقت كيانه بأكمله ، على الرغم من الزى الواقى المنيع الذى يرتديه ، عندما اتجه الزعيم نحوه بمنتهى الوحشية ، وأجبره على النهوض ، وهو يصرخ فى وجهه :

ـ إذن فقد فعلتها .

ابتسم الفارس فى سخرية ، على الرغم من تهالكه ، وهو يقول :

ـ هذا عيب احتفاظك بالأسرار كلها لنفسك ، وعدم مشاركتك الآخرين فيها ..

أطلق (النووى) زمجرة رهيبة ، وهو يصرخ :

ـ ما فقدته مجردُ ملفات سرية ، لن تعود لها أية فائدة ، بعد أن أقضى عليك ، وأستولى على جوادك المجنَّح هذا .

غمغم الفارس ، وهو يستنفر كل ما تبقَّى من قواه ؛ ليتماسك أمام (النووى) الوحشى :

ـ الأمر ليس بهذه السهولة .

جذبه (النووى) إلى أعلى ، حتى ارتفعت قدماه عن الأرض بمترٍ كامل على الأقل ، وهو يصرخ فى وجهه ، وشعره الكثيف يتطاير أكثر وأكثر ، وقد أحاطت به هالة زرقاء متألقة :

ـ أهذا ما تظنه ؟! فلنر إذن كيف ستحلِّق وحدك ، دون جوادك المجنَّح ، الذى سيصبح ملكًا لى بعد لحظات ، عندما ألقيك عبر الجدار الزجاجى ، الذى حطمته منذ قليل ..

وانطلقت من خلفه ضحكة وحشية رهيبة ، وهو يتجه بحمله نحو الجدار المحطَّم ، و ...

وفجأة ، امتزجت ضحكته بصهيل قوى ، وبخفقان جناحين قويين ، يضربان هواء القاعة بمنتهى القوة ..

وقبل أن يستدير (النووى) .. بل وقبل حتى أن يستوعب الموقف ، هوى الجواد المجنَّح بقائمتيه الأماميتين على منتصف ظهره تمامًا ..

ومع عنف الضربة ومباغتتها ، اختلّ توازن (النووى) ، وأفلت (الفارس) ، فى محاولة للحفاظ على توازنه ، وهو يسقط أرضًا ..

وانطلق صهيل آخر من الجواد الأصيل ، وهو ينطلق نحو فارسه ، الذى حاول النهوض بصعوبة ..

حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكنه لم يستطع أبدًا ..

الصاعقة التى أصابته ، والطاقة التى انتزعتها منه هالة (النووى) ، كلها استنفدت كل قواه ، وجعلت حتى نهوضه يحتاج إلى طاقة ، لا قبل له بها ..

وبزمجرة وحشية رهيبة ، اعتدل (النووى) واقفًا ، وقد تحوّلت الهالة الكهرومغناطيسية المحيطة به إلى اللون الأحمر ، من شدة الثورة والغضب ، وصرخ بكل انفعالاته :

ـ (النووى) لا يهزمه هجوم سخيف كهذا .. إنك لن تفلح فى النهوض .. لن تغادر قاعتى حيًا .. أبدًا .

مرة أخرى ، بدا وكأنه يلتقط نفسًا عميقًا ، وراحت الهالة المحيطة به تتألّق أكثر وأكثر ، حتى تحوّلت إلى لون الدم ..

كان من الواضح أنه يستعد لإطلاق طاقة ساحقة رهيبة ، نحو الفارس ؛ ليمحوه من الوجود تمامًا ..

ولكن الجواد الأصيل لم يكن قد استنفد كل ما لديه بعد ..

لذا ، فقد أقدم على تصرُّف ، غاية فى الغرابة ..

لقد اندفع نحو فارسه ، ودفعه برأسه فى قوة ، نحو الجدار المحطَّم ، وكأنما فضّل أن يقتله ، عن أن يظفر به ذلك النووى الوحشى ..

وانعقد حاجبا النووى فى شدة ، وهو يراقب هذا الموقف ، متسائلاً عما يمكن أن يعنيه ..

ولسبب ما ، لم يشأ اعتراض ما يفعله الجواد ..

كان يرغب فى دراسة ذكائه ، وقوته ، وتلك الرابطة العجيبة ، التى تربطه بفارسه ، و ...

ودفع الجواد الفارس عبر الفجوة ..

وتركه يهوى من حالق ..

ثم فجأة ، ضرب الهواء بجناحيه ، واندفع خلفه ..

وفى انبهار ، غمغم النووى ، وهو يندفع نحو الحافة :

ـ لو أنه سيفعل ما أتوقعه ، فهو يستحق كل ما بذلته للحصول عليه حتمًا ..

ومن أعلى ، تطلَّع (النووى) إلى الجواد الأصيل ، الذى انخفض بسرعة مدهشة ، حتى تجاوز فارسه ، ثم اعتدل ، وراح يضرب الهواء بجناحيه فى قوة ، ليلتقطه على متنه ..

وبعدها اعتدل ..

وبكل ذهول وانبهار الدنيا ، هتف النووى :

ـ مستحيل !

وتابع الجواد ، وهو يرتفع بحمله ، وعيناه تتألقان أكثر وأكثر ، وهو يهتف :

ـ سأظفر به .. لابد وأن أظفر به .

قالها ، ورفع يده ، التى تدفَّقت إليها من جسده طاقة هائلة ، مع استطرداته :

ـ وبأى ثمن .

كان واثقًا من قدرته على إصابة هدفه ، وتدميره ، وذهنه يدرس كيفية الاستفادة من أشلاء الجواد فيما بعد ، ليستنسخ علماؤه منها نسخة جديدة ، لجواد مجنَّح آخر ، يدين له بالطاعة والولاء والانتماء ، مثلما يرتبط هذا الجواد بفارسه ، و ...

وفجأة ، خُيِّل إليه أن بصره قد اختل ..

ففى سماء المدينة الكبيرة ، لم يعد هناك جواد مجنَّح ..

بل اثنان ..

جواد يحمل الفارس ، الذى يقاوم غيبوبته بصعوبة ، ومهر مجنَّح آخر ، يحمل فارسًا جديدًا ملثمًا ، ينطلق نحوه هو مباشرة ..

وبكل دهشة الدنيا ، غمغم النووى :

ـ ولكن كيف ؟!

وقبل حتى أن تكتمل غمغمته ، أطلق ذلك الفارس الآخر قذيفة ما نحوه ..

قذيفة شقت سماء المدينة الكبيرة لثوان قليلة ، ثم انفجرت ..

ومع انفجارها ، سطع ضوء مبهر ..

مبهر ، حتى أنه أغشى الأبصار كلها ، بما فيها عينى (النووى) نفسه ، الذى صرخ فى ثورة هادرة :

ـ ما الذى يحدث هنا ؟!

كان المفترض أن يغشى ذلك الضوء المبهر المباغت كل الأبصار لعشر ثوان على الأقل ، إلا أن طاقة (النووى) الهائلة جعلته يستعيد قدرته على الرؤيا بعد ثلاث ثوان فحسب ، وهو يصرخ :

ـ لا .. لا يمكن أن ..

ثم بتر عبارته دفعة واحدة ..

ولم يكمل قوله أبدًا ، من فرط ما يشعر به من غضب وذهول ..

وفى الوقت الذى أعلن فيه (النووى) حالة الطوارئ القصوى فى المدينة الكبيرة ؛ لأوّل مرة فى تاريخها ، والذى أطلق فيه كل قواته ؛ للبحث عن مدخل النفق السرى ، الذى قاد الفارس من وإلى قلب المدينة ، وإيجاد تفسير لما أسماه بالصورة الوهمية المصغرة له ، كان الشاب يثب من على متن مهره المجنَّح ، ويلتقط أستاذه وفارسه من فوق جواده ، ثم يعدو به إلى حجرة الإسعافات الخاصة ، ويحاول فى توتر لا محدود ، ربط جسده بأدوات الإسعافات والجراحات الآلية المبرمجة ، ولكن الفارس ابتسم فى ضعف وتهالك ، مغمغمًا :

ـ لا فائدة يا (أمل) .. لن تفلح التكنولوجيا هذه المرة ..

ولأوّل مرة فى حياته ، تجاهل الشاب قول أستاذه تمامًا ، وواصل مد الأجهزة إليه ، فى حين تابع هو ، وابتسامته تحمل كل وهنه وانهياره :

ـ إنه نزيف داخلى .. أمر لن يمكنك السيطرة عليه .. إننى أشعر به جيدًا .. برودة الأطراف ، وتسارع نبضات القلب .. صدمتنى .. لا أمل يا (أمل) .

غالب الشاب دموعه وتأثره ، وهو يقول :

ـ لا ينبغى أن نستسلم أبدًا .. هذا ما علمتنى إياه دومًا .

غمغم الفارس ، وصوته يزداد ضعفًا فى كل لحظة :

ـ إلا أمام الموت .

حاول الشاب أن يواصل عمله ، إلا أن الفارس أمسك أصابعه فى تهالك ، وتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول :

ـ اسمعنى جيِّدًا ، قبل أن يضيع الوقت .

هتف الشاب :

ـ سيِّدى .. لابد وأن ..

حمل صوت الفارس كل ما تبقى من صلابته ، وهو يقول :

ـ اسمعنى .

توقف الشاب ، وتطلَّع إليه مباشرة ، وترك دموعه تنساب على وجنتيه ، والفارس يقول :

ـ لقد لقنتك كل ما أعرفه تقريبًا ، ودربتك على كل ما أمتلكه من مهارات ، ولكن لا تكتفِ بهذا أبدًا .. البشرية لن تتقدَّم ، إذا ما اكتفى كل جيل بما وصله من الجيل السابق .. أضف إليك جديدًا فى كل يوم .. بل فى كل ساعة .. اكتسب مهارات جديدة ، ومعلومات جديدة .. ابحث فى خزانة المعلومات عن كل ما ينقصك ، وأضف إليها كل ما تحصل عليه وتفوز به .. اجعل منها معاونًا كبيرًا لك ،

ومهدًا لجيل تـالٍ ، .. وقـاتل دومًـا من أجل البشرية .. من أجل المبادئ ، ومن أجل الحق .. من أجل كل مـاتؤمن بـه .. فقط مـا تؤمن به .

تمتم الشاب ، ودموعه تغرق وجهه :

ـ سأفعل .

هز الفـارس رأسـه فـى ضعف ، ثم عاد يرفـع عينيـه إليـه ، متسائلاً ، بآخر ابتسامة فى جعبته :

ـ وبالمناسبة .. كيـف فعلتهـا ؟! كيـف تخلصـت مـن حالـة الجمود ، التى وضعتك فيها ؟!

غمغم الشاب فى حزن :

ـ استخدمت جهاز امتصاص الطاقة .. زحفت إليه ، والتصقت به ، وأشعلته ؛ فسحب من جسدى كل ما دفعتـه فيـه ، واستعادت أطرافى مرونة حركتها .

تهالكت ابتسامة الفارس ، وأسبل جفنيه ، متمتمًا :

ـ أحسنت .

ثم تراخـت أصابع الفارس ، وتخلّت عن أصابع الشاب ، وحملت ابتسامته نزعه الأخير ، وهو يتمتم فى خفوت :

ـ أنت الأمل القادم .. الفارس القادم .. فارس المستقبل .

وكانت هذه آخر كلماته ..

وسـقط الشـاب علـى ركبتيـه إلـى جـواره ، وانهمـرت دموعـه غزيرة كالفيض ..

لقد رحل أستاذه ومعلمه ..

رحل الفارس ..

انتهى زمنه وجيله ..

ولكن الصراع لم ينته ..

فقد بقى جيل آخر ..

وفارس آخر ..

جيل ما زال يحمل لمحة أمل ..

وفارس لن يوقفه عن مواصلة الصراع سوى الموت ..

فارس المستقبل ..

كل المستقبل .

* * *

(تمت بحمد الله)

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

صفحة

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٦٨٢٧٠٠٢

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

فارس المستقبل

وقصص أخرى

41

د. نبيل فاروق



● مع بدء العد التنازلى ، نحو القرن الحادى والعشرين ..

● مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب .

● مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..

● مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..

● *إلى الحضارة ..*

● *إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم ..*

د. نبيل فاروق

الفرسان يتساقطون ..

(رثــاء)

إحدى وعشرون عامًا مضت ، منذ بدأت علاقتى بروايات مصرية للجيب ..

عمر كامل انقضى ، من الشباب إلى الكهولة ، بين صفحاتها ..

سنوات عديدة ، حملت أحلامًا ..

وطموحات ..

وتمنيـات ..

ونجاحات ..

وصداقات ..

صداقات عديدة ، ربطتنى بعشرات من العاملين فى المؤسسة ..

وذكريات أكثر ربطتنى بالمكان ..

ورجـالـه ..

ومنتجاته ..

وإبداعاته ..

ولأن الإنسان غافل بطبعه ، ويتصورّ دومًا أن بقـاء الحال هو

المنال ، فقد تراصت مشاعرى وخلاياى ، واطمأنت إلى الوضع القائم ، وارتاحت إليه ، وألفته ..

وأحبته ..

ثم شاء القدر أن يوقظنى بغتة ، من ذلك الحلم الجميل ، بصفعتين قاسيتين ، هويتا على قلبى كصاعقتين مدويتين ، لتزلزلانه من أعمق أعماقه ..

الصفعة الأولى كانت فى فقدان الأستاذ (إسماعيل دياب) ، الفنان العظيم ، الذى شاركنى الرحلة الطويلة ، لعشرين عامًا كاملة ..

لم تكن علاقتنا أبدًا تقتصر على علاقة مؤلف برسام أغلفته ..

بل كنا صديقين ..

وصديقين حميمين للغاية ..

كان رحمه الله فنانًا ، بكل ما تحمله الكلمة من معان ، فهو شاعر ، رقيق ، مرهف الحس ، مفكر ..

وفيلسوف أيضًا ..

وفى لقاءاتنا ، كنا نتحدث ، ونتحدث ، ونتحدث لساعات طوال ، دون أن ندرك كم مر من الوقت ..

أو متى ينبغى أن نتوقف ..

كنا نناقش آراءنا ..

وأفكارنا ..

وفلسفاتنا ..

ونتجادل ..

ونتحاور ..

ونتفق ..

ونختلف ..

ولكننا دومًا نفترق أكثر ودًا وصداقة مما بدأنا ..

لم يتدخل يومًا فيما أكتبه ، ولم أناقش يومًا ما يرسمه ؛ فكلانا كان يعشق الحرية ، وينأى بنفسه عن دس أنفه فى شئون الآخرين ، وهى سمة أدركت فى عمرى هذا ، أنها نادرة على نحو لم أكن أتصوره طيلة عمرى ..

باختصار ، كان الأستاذ (إسماعيل دياب) نافذة مشرقة ، تطل منها كافة مشاعرى ..

ثم علمت فجأة أن تلك النافذة قد أغلقت ..

وإلى الأبد ..

أزمة قلبية غادرة ، أودت بحياته وفنه ، فى لحظات الشروق الأولى ، فى مرسمه الصغير ..

ورحل الفنان ..

والشاعر ..

والفيلسوف ..

رحل ليترك فى أعماقى فجوة لا تمتلئ ، وجرحًا لا يندمل ..

وقبل أن تهدأ مشاعرى ، وتستسلم ، وتخضع لقانون القدر والدنيا ، هوت على قلبى الصفعة الثانية ..

فارس آخر سقط ..

وصديق عزيز ثان رحل ..

الأستاذ (صبحى عبود) ..

الجندى المجهول ، الذى كان يختفى دومًا خلف كل كتاب أمسكتموه بأيديكم ، من روايات مصرية للجيب ..

الإنسان المهذب ، الحنون ، الذى انشغل دومًا بقضاء حوائج الناس ، والسعى للخير فى الخفاء ..

كان من ذلك الطراز من البشر ، الذى تمنحه قلبك وثقتك ، منذ المقابلة الأولى ..

ثم لا تندم على هذا أبدًا ..

كنا نلتقى كثيرًا ونتحدث طويلاً ..

كثيرًا ما ائتمنته على أسرارى ، وائتمننى على أسراره ..

ولم يخب رجاء أحدنا فى الآخر قط ..

ولا أحد فى الدنيا كلها يمكن أن يتخيل كم انفطر قلبى لرحيله ..

وكم بكى كيانى كله لفراقه ..

وكم تحطم شىء عميق .. عميق .. عميق داخلى من بعده ..

فجأة ، شعرت أن السفينة تواجه رياحًا عاتية ..

عاصفة شعواء ..

أمواج ثائرة ..

وأن الفرسان يتساقطون ..

ومعهم العمر يمضى ..

ويمضى ..

ويمضى ..

إلى لقاء ..

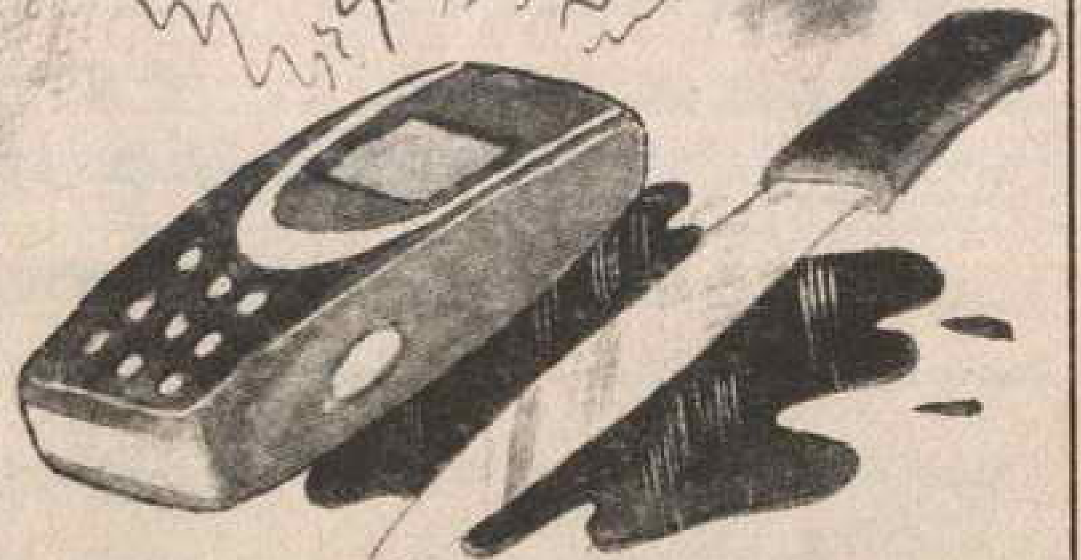
* * *

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

رنات

قصة قصيرة



المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

رنات

(قصة قصيرة)

« إش .. إش .. ده إيه الحلاوة دى »

انتفخت أوداج (فتحى) ، عندما استقبله صديقه (حمزة) بهذه العبارة ، فى المقهى الذى اعتادا الجلوس عليه ، فى الحى الشعبى الشهير ، وأحاطت أصابعه بذلك الموبايل الفخم فى زهو واضح ، وهو يلقى جسده على المقعد المعدنى ، قائلاً :

« آخر موديل .. فيه كاميرا » ..

ضحك صديقه (فتحى) ، وهو يقول :

« لطشته منين ده يا واد .. ده يجيله ييجى بألف جنيه » ..

لوَّح (حمزة) بذراعه كلها مستنكرًا ، وهو يهتف :

ـ « يا عم روح .. ده المستعمل بتاعه يعمل ألفين بالميت فى السوق » ..

انبهر (حمزة) بالرقم ، الذى يساوى يوميته كعامل محارة ، فى مائة يوم كاملة ، ومال نحوه يسأله :

« واتحصلت عليه إزاى ده ياد .. »

هزَّ (فتحى) كتفيه ، وهو يقول بنفس الزهو ، وظهره يلتصق بالمقعد فى عنتظة :

ـ « زى الناس .. »

كان جوابًا عامًا ، لا يعنى شيئًا بالتحديد ، وعلى الرغم من هذا فقد اكتفى به (حمزة) ، وتجاوز سؤاله كله ، عندما أضاف (فتحى) ، فى صوت قـوى ، يخالف تمامًا صوته الضعيف المستكين ، الذى التصق به ، بعد أسابيع طويلة من البطالة :

- « والليلة دى المشاريب على حسابى كمان .. »

كانت ليلة نادرة ، دفع فيها (فتحى) حساب المشروبات ، لثلاثة من أصدقائه ، بورقة من فئة العشرين جنيهًا ، وتناول بعض شطائر اللحوم ، وزجاجة من البيرة المثلجة ، قبل أن يستعد للانصراف ، فضحك صديقه (حمزة) ، هو يودعه ، قائلاً :

- « ما إنت يا لطشه ، يا ورثت ورث تقيل .. »

ولم يجب (فتحى) عبارته ، أو يعلق عليها ، وهو يتجه نحو البناية ، التى يقيم فى حجرة صغيرة على سطحها ، والتى تسد تلك الحارة الصغيرة بعد ناصية المقهى ..

كانت حجرته تعلو خمسة طوابق ، صعدها وهو يترنح ، من فرط الزهو والنشوة ، وما إن دخل حجرته الصغيرة ، حتى أغلق الباب خلفه ، وأسند ظهره إليه ، وتطلع إلى ذلك الموبايل الفاخر ، وذهنه يستعيد أحداث بداية الليلة :

كان يسير فى ذلك الشارع المقفر المظلم ، عندما لمح ذلك الشاب ..

شاب فى الخامسة عشرة من عمره على الأكثر ، يرتدى ثيابًا تشف عن الثراء والدعة ، ويمسك ذلك الموبايل الأنيق ..

كان من الواضح أنه قد ضل طريقه ، لسبب أو لآخر ؛ إذ لم يكن

من المنطقى أبدًا أن يتواجد شاب مثله ، فى منطقة كهذه ..

وبالنسبة له ، بدت هذه فرصة ، ما بعدها فرصة ..

وفى شراسة اكتسبها من حياته القاسية ، استل مطواته ، واندفع نحو ذلك الشاب ، وصرخ فى وجهه ، يأمره بإعطائه ذلك الموبايل ، وكل ما يحمله من نقود أيضًا ..

وكما توقع تمامًا ، أصيب الشاب بفزع رهيب ، وأعطاه الموبايل ، وعشرين جنيهًا كان يحملها ، وتضرع إليه أن يتركه لحاله بعدها ..

وكان من الممكن بالفعل أن يتركه (فتحى) ، بعد أن استولى على ساعته أيضًا ، إلا أن شيطانًا ما فى أعماقه دفعه إلى فكرة خسيسة مجنونة ، لم يفق منها إلا وهو يسحب مطواته من قلب ذلك الشاب المسكين ، الذى اتسعت عيناه عن آخرهما ، فى مزيج من الألم والرعب ، وحاول منع ذلك النهر الدموى ، الذى تفجّر من صدره ، وحملت عيناه نظرة اتهام ، لم تلبث أن تحولت إلى لمحة بغض وكراهية ، قبل أن يسقط عند قدمى (فتحى) جثة هامدة ..

وبأقصى سرعته ، انطلق (فتحى) يعدو مبتعدًا ، ويتنقّل من شارع إلى آخر ، حتى بدا له أنه قد ابتعد تمامًا عن مسرح جريمته ، وأن أحدًا لن يصل إليه ، فتوقف ، والتقط أنفاسه ، وذهب للقاء (حمزة) فى المقهى ..

وعلى فراشه الرث ، شبه المتهالك ، أمسك الموبايل ، وقلّبه بين يديه ، محاولاً تخمين سعره الحقيقى ، والمبلغ الذى سيحصل عليه ، عندما يذهب لبيعه فى سوق الحرامية ، يوم الجمعة القادم ..

ولأن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل ، فقد غلبه النوم ، وسقط الموبايل من يده على الفراش ، وراح فى سبات عميق ، و ....

وفجأة انطلق رنين الموبايل ..

انطلق على نحو ارتجفت معه أوصاله كلها ، ووثب لها جسده بأكمله ، واتسعت به عيناه ، وهو يحدق فيه فى ذعر ، قبل أن ينتبه إلى الموقف ، ويختطفه بحركة حادة ، محاولاً معرفة رقم المتصل ..

إنهم أهل ذلك الشاب حتمًا ، وقد أقلقتهم غيبته ، ويحاولون الاطمئنان عليه عبر الموبايل ..

ولكن الشاشة كانت خالية ، لا تحمل أية أرقام ، والرنين يتصل ..

ويتصل ..

ويتصل بلا انقطاع ..

وفى أعمق أعماقه ، تصاعد توتر لا محدود ، من ذلك الرنين المتصل ، فقلب الموبايل مرة أخرى بين يديه ، حتى عثر على زر إغلاقه ، فضغطه بكل قوته ، وعاد إلى نومه ..

لم يدر كم استغرق فى النوم هذه المرة ، ولكنه استيقظ على نفس النحو المذعور ، وعاد يحدق فى الموبايل ، المستقر إلى جواره على الفراش ، ورنينه يتردد بصوت تضاعف علوه ، مع صمت الليل ..

ولثوان ، حدق فيه بشىء من الذعر ، فهو يتذكر جيدًا أنه قد أغلقه تمامًا ..

لم يوقف رنينه فحسب ، ولكنه أغلقه ..

أو ربما خيل إليه هذا ..

لم تسعفه ذاكرته جيدًا ، فمال يتطلع مرة أخرى إلى الشاشة ، التى لم تحمل أية أرقام كالمرة السابقة ، ثم ضغط زر إغلاق الموبايل ، ليتوقف الرنين على الفور ..

وفى هذه المرة تساءل ، لماذا ترك الشريحة فى الموبايل ؟!

وجودها هو سبب ذلك الرنين المزعج ، الذى يثير رجفة عجيبة فى أوصاله ..

وفى عصبية ، فتح الموبايل ، والتقط منه الشريحة ، واتجه نحو النافذة الصغيرة ، المطلة على الشارع ، وألقاها بكل قوته ..

وعاد للنوم ..

ولكن فجأة انطلق رنين الهاتف مرة أخرى ..

انطلق بصوت أكثر اتصالاً ..

وأكثر ارتفاعًا ..

وهنا حدق فيه (فتحى) بمنتهى الرعب ..

لقد انتزع الشريحة ، وألقاها من نافذته ، فكيف يمكن أن ينطلق الرنين ..

وبأصابع مرتجفة ، التقط الموبايل ، وتطلع إلى شاشته ، التى

لم تحمل أية أرقام كالمعتاد ، ثم استجمع شجاعته ، وضغط زر الاتصال ، وهو يضع الموبايل على أذنه ..

ولوهلة ، لم يسمع أية أصوات ، ثم خيل إليه فجأة أنه يسمع صوتًا باهتًا مبحوحًا ، يأتى من بعيد ، بهمهمة غير مفهومة ..

صوت ذكره بشىء ما وأطلق قشعريرة باردة كالثلج فى أوصاله أيضًا ..

وبحركة حادة ، كمن لدغه عقرب ، ألقى (فتحى) الموبايل بعيدًا ، وتراجع فى فراشه ، محاولاً السيطرة على جسده ، الذى راح يرتجف كريشة فى مهب الريح ..

وفى أعمق أعماق عقله ، راح يسترجع كل ما سمعه من معلومات عن أجهزة الموبايل بكل أنواعها ..

نعم .. لقد سمعهم يتحدثون عن موبايل بروحين ..

موبايل يمكنك أن تضع فيه شريحتين ، برقمين منفصلين ..

هذا الموبايل من ذلك الطراز حتمًا ، وهو ألقى إحدى الشريحتين ، وظلت الثانية داخله ..

نعم ..

هذا ما حدث ..

الفكرة جعلته يقفز ليلتقط الموبايل ، ويعبث فيه مرة أخرى ؛ بحثًا عن تلك الشريحة الثانية ..

وبينما يفعل هذا ، انطلق رنين الموبايل بين أصابعه بغتة ، حتى إنه أطلق صرخة رعب ، وألقاه بعيدًا عنه ..

لم يدر ماذا حدث بالضبط ، ولا كيف حدث هذا ، ولكن الموبايل لم يكد يرتطم بالأرض ، حتى توقف فجأة عن الرنين ، وانبعث منه صوت ما ..

صوت لم يبد مسموعًا أو واضحًا من موضعه ؛ لذا فقد اقترب منه فى حذر ، وانحنى يلتقطه بأصابع مرتجفة ، محاولاً فهم ما يقوله ذلك الصوت ..

كان صوتًا عجيبًا ، يبدو وكأنه ينبعث من أعماق سحيقه ، ويردد كلمة ما ، اضطر (فتحى) إلى وضع الموبايل على أذنه ليسمعها ..

وسمعها ..

وانتفض جسده كله بمنتهى العنف ..

فذلك الصوت ، الذى يأتى من أعماق سحيقة ، كان يردد كلمة واحدة ..

« قاتل .. »

وبكل رعب الدنيا ، انتزع (فتحى) بطارية الموبايل ، وألقاها بكل قوته ، لترتطم بالجدار ، وترتد إلى منتصف الحجرة بعنف ..

ولكن جسده لم يتوقف عن الارتجاف ..

تلك الليلة لا تريد أن تمضى أبدًا ، على الرغم من أنه ، ولأول مرة فى حياته ، ينتظر شروق الشمس بفارغ الصبر ..

فحجرته بلا كهرباء ، وهو يعتمد دومًا على أضواء الشارع لإنارتها ؛ لأنه لا يملك ما يدفع به تكاليف استهلاك التيار الكهربائى ..

ومنذ سنوات ، اعتاد العيش فى الظلام ، وألفه ..

إلا فى هذه الليلة ..

وبجسد لم تتوقف ارتجافته ، عاد إلى الفراش ، وجذب الغطاء نصف الممزق عليه ، و ....

وانطلق رنين الموبايل ..

وهوى قلبه بين قدميه بمنتهى العنف ..

مستحيل أن يحدث هذا !!

مستحيل !

ذلك الموبايل الملعون بلا بطارية ..

وبلا شريحة ..

ولكن رنينه ينطلق ، ويدوى فى الحجرة ، وربما فى المنطقة كلها ..

وعلى الرغم من رعبه وهلعه ، وثب يختطف ذلك الموبايل من أرضية حجرته ، واندفع به نحو النافذة ، وألقاه بكل ما يملك من قوة ..

ومن موقعه ، رآه يهوى نحو الأرض ، ورنينه يخفت ..

ويخفت ..

ويخفت ..

وهنا فقط شعر (فتحى) بالارتياح ..

وبالتهالك أيضًا ..

ذلك الانفعال العنيف أرهقه ، وكاد يفقده صوابه ..

وعلى الرغم من رعبه وارتياعه ، سقط رأسه ثقيلاً على فراشه ، وسقط جفناه متثاقلين ، وانهار فى نوم بلا قرار ..

وانطلق رنين الموبايل مرة أخرى ..

وفى هذه المرة ، كاد قلبه يتوقف ، وهو يثب بكل رعب الدنيا ، ويحدق فى الموبايل ، المستقر إلى جواره مباشرة ، ورنينه يتصل فى إلحاح ..

لا .. لا يمكن أن يكون هذا حقيقة ..

إنه كابوس ..

كابوس راوده فى نومه ، بسبب ما فعله ..

لقد ألقى الموبايل من النافذة بنفسه ، ولا يمكن أن يعود إليه ، إلا لو كان هذا كابوسًا ..

نعم .. إنه كابوس ، والوسيلة الوحيدة لتجاوزه ، هى أن يواجهه ..

ومع تلك الفكرة الجديدة ، امتدت أصابعه المرتجفة تمسك الموبايل ، وتضغط زر الاتصال فيه ، ثم ارتفعت به إلى أذنه ..

وفى هذه المرة أيضًا .. سمع الكلمة نفسها ..

« قاتل .. »

وفى هذه المرة ، ميزها جيدًا ..

إنه صوت ذلك الشاب الذى قتله فى المساء ..

وصوته لا يأتى من أعماق سحيقة ..

بل من قبر ..

قبر فى أعمق أعماق الأرض ..

وانهار كيان (فتحى) كله ، وصرخ :

ـ « عايز منى إيه ؟! »

وهنا انطلقت صرخة هادرة من الموبايل :

ـ « قاتل .. »

وفى هذه المرة كانت الصرخة واضحة قوية ، وامتزجت بالصرخة الرهيبة ، التى أطلقها (فتحى) ، التى أيقظت جيرانه كلهم ..

وعندما صعد الجيران إلى حجرته ، كان المشهد بشعًا ، على الرغم من شروق الشمس ..

لقد كان (فتحى) ملقى أرضًا جثة هامدة ، والدماء تنزف من أذنيه بغزارة ، وأصابعه متشبثة بموبايل من طراز باهظ الثمن .. للغـاية ..

★ ★ ★

١ ـ الهـــــارب ..

بدا مشهد شروق الشمس فى الأفق مبهرًا خلابًا ، فى عينى (باسل) ، وهو ينطلق بسيارته الرياضية الصغيرة ، عبر الطريق الواسع ، الممتد إلى مدى بصره ، فى قلب الصحراء ، حتى إنه ابتسم فى ارتياح غامر ، مغمغمًا :

ـ سبحان الله (العلى القدير) .. إننى أشاهد شروق الشمس كثيرًا ، ولكن ما من شروق يشبه الآخر قط ، وكل يزداد روعة عن سابقه ..

كان يتجه فى تلك الساعة المبكرة ، إلى مطار صغير على مقربة من المدينة ، لطائرات التدريب التى اعتاد التحليق بها ، كل حين وآخر ، حتى لا يفقد مهارته ..

وكانت هذه واحدة من أفضل المتع التى يشعر بها فى حياته ..

ولقد اعتاد التحليق بطائرات التدريب هذه ، فى ساعة مبكرة من الصباح ، قبل أن يذهب إلى عمله فى الجريدة ، مرة واحدة أسبوعيًا على الأقل ..

وفى تمام السابعة ، كان يوقف سيارته الرياضية داخل المطار ، ويثب منها ، قائلاً لفنى الإصلاح :

ـ صباح الخير يا (رشدى) .. كيف حال طائرتى الصغيرة اليوم ؟!

أجابه (رشدى) بابتسامة هادئة ودود :

ـ فى خير حال يا سيد (باسل) .. لقد فحصتها بنفسى ، وأشرفت على ضبط محركاتها وتغيير كل الزيوت الحيوية ، وتزويدها بالوقود الكافى ..

بادله (باسل) ابتسامته ، قائلاً :

ـ عظيم .. أشكرك يا (رشدى) .. أشكرك كثيرًا ، ولم تمض دقائق عشر ، على هذه المحادثة ، حتى كان (باسل) يحلق بطائرته الصغيرة فوق الصحراء الشاسعة ، وهو يهتف فى سعادة وحماس :

ـ يا للروعة ! كم أعشق الطيران !

كان يشعر بارتياح غامر ، كلما حلق بطائرته فوق منطقة الصحراء ؛ فهو يعشق الاثنين ..

الطيـــران ..

والصحراء ..

وفى غمرة نشوته ، التقط جهاز اللاسلكى ، وقال بابتسامة كبيرة :

ـ إنك تستحق مكافأة اليوم يا (رشدى) ، فالطائرة بالفعل على ما يرام و ....

بتر عبارته بغتة وهو يحدّق فى المصباح الصغير الأحمر ، فى طرف جهاز اللاسلكى ، ثم تابع فى ضيق ، واضح :

- كلا .. إنك لا تستحق أية مكافآت يا (رشدى) ، فلقد راجعت كل شىء فى الطائرة فيما عدا جهاز الاتصال باللاسلكى ، فهو لا يعمل اليوم ..

لم يكن يشعر بالارتياح أبدًا ، عندما يقود الطائرة بدون جهاز اتصال لاسلكى ، على الرغم من أن كل شىء كان يسير على ما يرام ؛ لذا فقد دار بطائرته نصف دورة ، مزمعًا العودة إلى المطار ، و ....

وفجأة ، لمح ذلك المشهد ، فى قلب الصحراء .. كانت هناك سيارة صغيرة ، تنطلق بأقصى ما يسمح به محركها ، فوق رمال الصحراء ، وخلفها تنطلق سيارة (جيب) ضخمة قوية ، فى مشهد بدا له أشبه بوحش مفترس ، يطارد فريسة مسكينة ، لينقض عليها أو ينهشها نهشًا ..

وفى اهتمام شديد ، تابع (باسل) المشهد ، وهو يحلق بطائرته فى دوائر متصلة ، فوق الموقع ..

وأمام عينيه ، تجاوزت (الجيب) الضخمة تلك السيارة الصغيرة ، ثم انحرفت لتعترض طريقها فى حركة عنيفة ، حتى إن السيارة الصغيرة تفادت الارتطام بها بصعوبة ، قبل أن تتوقف ، ويقفز منها رجل نحيل ، انطلق يعدو مبتعدًا بأقصى سرعته ، وكأنما تطارده شياطين الدنيا كلها ، فوثب من الجيب ثلاثة رجال أقوياء ، يحملون مسدسات كبيرة ، وانطلقوا خلف النحيل فى شراسة واضحة ..

ولسبب ما ، شعر (باسل) أن هؤلاء الرجال الثلاثة إنما يسعون لهدف واحد ..

قتل النحيل ..

وبلا رحمة ..

ولم يضع (باسل) لحظة واحدة ..

كالمعتاد ..

لقد اتخذ قراره بسرعة مدهشة ووضعه فى لحظة واحدة موضع التنفيذ ..

لم يكن يحمل سلاحًا ، إلا أنه قرر التدخل ، وبأقصى سرعة ؛ لإنقاذ النحيل ، وحمايته من مطارديه ..

مهما كان الثمن ..

وانخفض (باسل) بطائرته ، وهو ينقض على الرجال الثلاثة ، الذين بدا عليهم التوتر ، وهتف أحدهم فى عصبية :

- من أين أتت تلك الطائرة ؟!

هتف به زميله :

- بل قل : ما الذى تستهدفه هذه الطائرة ؟!

لم يكد يتم عبارته ، حتى هتف زميلهما الثالث ، وهو يلقى نفسه أرضًا :

ـ انبطحا .. إنها تهاجمنا .. وعلى الرغم من دهشة رفيقيه وحيرتهما ، إلا أنهما أسرعا ينبطحان أرضًا ، فى محاولة لتفادى الطائرة ، التى انخفض بها (باسل) على نحو بالغ الخطورة ، حتى كادت ترتطم برءوسهم ، خاصة وقد أنزل إطارات الهبوط ، مما جعل أحد الرجال الثلاثة يهتف :

ـ هذا الطيار مجنون ، أو ....

قاطعه زميله فى حدة :

ـ أو أنه يسعى لإنقاذ (ميلو) .

انعقد حاجبا الثالث ، وهو ينهض بسرعة ، ويتابع ببصره حركة طائرة (باسل) التى دارت حولهما ، ثم اتجهت بسرعة نحو النحيل ، الذى توقف مذعورًا ، متصورًا أن الطائرة تهاجمه ، ورفع ذراعيه مستسلمًا فى يأس ، ولكن (باسل) هتف به ، وهو يتوقَّف على مسافة ثلاثة أمتار فحسب منه :

ـ أسرع يا رجل ، قبل أن يفيقوا من دهشتهم ، اتسعت عينا النحيل فى دهشة ، وهو يحدِّق فى وجه (باسل) ، الذى كرر ، مشيرًا له بيده فى انفعال :

ـ أسرع بالله عليك .

انتزع النحيل نفسه من دهشته ، وانطلق يعدو نحو الطائرة ، فى حين صاح أحد الرجال الثلاثة فى غضب :

ـ أنت على حق .. إنه يحاول إنقاذه .

لم تكد عبارته تكتمل ، حتى كان يعدو بأقصى سرعته نحو الطائرة ، وهو يطلق رصاصات مسدسه الآلى نحوها فى غزارة وغضب ..

وبلا أدنى تردد ، أو حتى تفكير ، انطلق زميلاه خلفه ، وراحا يمطران الطائرة برصاصاتهما أيضًا .. وبكل الذعر فى أعماقه ، وثب النحيل يتعلق بالطائرة ، فصاح (باسل) ، وهو ينطلق بها فوق الرمال :

ـ حاول أن تحشر نفسك فى الفراغ الصغير خلف مقعدى ، فسنقلع على الفور وليست لدينا ثانية واحدة لمنحك مجلسًا مريحًا .. كانت إطارات طائرته من الطراز العريض ، المجهزة للإقلاع والهبوط ، فوق الرمال الصحراوية ؛ لذا فقد أمكنه الانطلاق بالطائرة بسرعة مناسبة ، إلا أن القلق والتوتر كانا يعصفان بنفسه ، مع دوى الرصاصات العنيف من خلفه ، وصوت ارتطام بعضها بجسم الطائرة ..

أما الرجال الثلاثة فقد انتابهم غضب هادر ، عندما راحت الطائرة تبتعد وهتف أحدهم :

ـ سينجح فى الفرار منا بعد كل هذا .

أجابه أحد زميليه فى صرامة :

ـ ليس بعد .

ثم ألقى نفسه على الرمال ، وارتكن إليها بمرفقيه ، وهو يصوّب مسدسه بمنتهى الدقة إلى جزء خاص من الطائرة ..

خاص جدًا ..

وفى نفس اللحظة ، كان النحيل يهتف فى عصبية :

ـ هيا .. ماذا تنتظر أيها العربى ؟! أقلع يا رجل .. أقلع بأقصى سرعة بالله عليك ، قبل أن يلحقوا بنا .. أجابه (باسل) فى صرامة ، وهو يبذل قصارى جهده ، للسيطرة على الطائرة ، التى تنطلق فوق الرمال :

ـ رويدك يا رجل .. إننا فوق رمال الصحراء ، والإقلاع فى مثل هذه الظروف ليس سهلاً أو بسيطًا .. لا بد وأن نبلغ سرعة مناسبة حتى يمكن للهواء حمل أجنحة الطائرة ، والارتفاع بنا .. هتف النحيل فى ذعر واضح :

ـ لست أدرى شيئًا عن مصطلحاتك الفنية هذه ، ولكننى أعلم أنه لا بد وأن نبتعد عن هنا بأقصى سرعة ، فأنت لا تعرف هؤلاء الرجال ،

الذين أنقذتنى منهم .. إنهم وحوش .. وحوش آدمية ، لا تعرف الرحمة أو الشفقة ، ولو وقعنا فى أيديهم ، لن يتورّعوا لحظة عن تمزيقنا إربًا .. هل تفهم ؟!

انعقد حاجبا (باسل) ، وهو يجذب عجلة القيادة إليه فى رفق ، استعدادًا للإقلاع :

ـ اطمئن يا رجل .. سيسير كل شىء على ما يرام بإذن الله .

زادت سرعة الطائرة فوق الرمال ، وارتفعت مقدمتها بالفعل ، و ...

وفجأة ! انطلقت كل رصاصات الرجال ..

وأصابت هدفها ، على نحو أدهشه هو نفسه ..

وكان هذا الهدف هو الدفة ..

الدفة الخلفية لذيل الطائرة ، التى تحطمت بدوى عنيف ، ثم طار جزء منها على نحو مخيف اختل معه توازن الطائرة دفعة واحدة ، والرجل يثب واقفًا ، وهتف فى انفعال :

ـ لقد فعلتها .. أصبت الطائرة .. لقد فعلتها ..

كان (باسل) يبذل جهدًا خرافيًا فى تلك اللحظة ، محاولاً السيطرة على الطائرة ، التى ارتجت فى قوة ، مع تحطم الدفة ، فمالت مقدمتها

إلى الأمام ، ومال معها جناحها الأيسر نحو الرمال فى عنف ، ثم دارت حول نفسها ، وصرخ النحيل فى ذعر ، وأخفى وجهه بكفيه ، هاتفًا :

ـ يا إلهى ! لقد انتهينا .. انتهى أمرنا .. لم يعد هناك أمل ..

وكان على حق إلى حد كبير !

فقد توقفت الطائرة فى قلب الصحراء ، ولم تعد قادرة على الإقلاع ، ويندفع نحوها ثلاثة من الوحوش .

الوحوش الآدمية .

★ ★ ★

٢ ـ مطـــاردة ..

لثوان انعقد حاجبا (باسل) ، وهو يراقب الرجال الثلاثة ، الذين يعدون بأقصى سرعتهم نحو الطائرة ، وقد بدا لهم أن الفريسة قد وقعت فى قبضتهم ، فى حين هتف النحيل فى رعب هائل :

ـ لا فائدة .. لقد انتهينا .. لا فائدة .. ولكن (باسل) أجابه فى صرامة شديدة :

ـ لا تسبق الأحداث يا رجل ..

ثم دفع بدَّال الوقود فى قوة ، وهو يدور بالطائرة ، مبتعدًا عن الرجال الثلاثة ، فتوقَّف النحيل عن النحيب ، وسأله فى دهشة :

ـ ماذا ستفعل ؟!

أجابه فى حزم :

ـ ربما لم يعد باستطاعتنا الطيران ، ولكننا نستطيع الابتعاد بأقصى سرعة على الأقل ..

قالها ، وهو ينطلق بالطائرة فوق رمال الصحراء ، بأقصى سرعة ممكنة ، فهتف أحد الرجال الثلاثة فى غضب :

ـ ماذا يفعل هذا الأحمق ؟!

أجابه أحد زميليه فى صرامة :

ـ أيًا كان ما يفعله ، فمن الواضح أنه ليس أحمق أبدًا ..

وصمت لحظة ثم استطرد فى حزم :

ـ إلى (الجيب) .. هيا .. يبدو أننا سنواصل المطاردة ..

رآهم (باسل) عبر نافذة خلفية ، وهم يهرعون إلى السيارة (الجيب) القوية ، وأدرك أن المطاردة ستحتدم فى الدقائق التالية ، فزاد من سرعة الطائرة ، التى تنطلق فوق الرمال ، عاجزة عن الطيران ، وهو يسأل النحيل :

ـ من أنت يا رجل ؟! ولماذا يطاردك هؤلاء الرجال بهذا الإصرار ؟!

ازدرد النحيل لعابه فى صعوبة ، وقال ، وهو يتطلّع خلفه فى توتر :

ـ اسمى (ميلو) .. مدير حسابات واحدة من الشركات التى تنقب عن البترول هنا .. لقد كشفت بالمصادفة البحتة عملية احتيال كبرى ، تتمُّ فى أحد مواقع الشركة .. عملية يقوم بها رئيس العمال الإيطالى الجنسية ، بحيث تحصل بعض الشركات على خام بترولى جيد للغاية ، ثم تتم محاسبتها باعتباره أحد الخامات العادية .. والأرباح فى هذه الحالة تقدَّر بملايين الدولارات ؛ لذا فهم لن يسمحوا لى بالبقاء على قيد الحياة ، وكشف مؤامرتهم قط .

سأله (باسل) :

ـ أتعنى أن هؤلاء الثلاثة يعملون لحساب رئيس العمال الإيطالى هذا ؟!

ازدرد (ميلو) لعابه مرة أخرى بصعوبة أكثر ، وهو يجيب :

ـ هؤلاء الثلاثة هم رئيس العمال ومعاوناه .. إنهم ينفذون كل شىء بأنفسهم .. حتى التخلص ممن يعترضون سبيلهم .. ثم انهارت مشاعره ، فانفجر باكيًا بغتة ، وهو يقول :

ـ ومن الواضح أنهم قد ظفروا بى ، وتحقَّق لهم ما أرادوا ..

أجابه (باسل) فى حزم :

ـ ليس بعد يا رجل .. إنهم لم يظفروا بنا بعد .. هتف الرجل فى مرارة :

ـ وكيف الفكاك منهم ؟! إنهم سيطاردوننا بسيارة قوية للغاية ، مؤهلة تمامًا للسير فى الصحراء وفوق الرمال ، وها أنت ترى المشهد أمامك .. لا يوجد مكان واحد ، يمكننا الاختباء فيه منهم .. صدقنى أيها العربى .. لا أمل فى النجاة ..

أجابه (باسل) فى حزم أكبر :

ـ صدقنى أنت يا رجل .. هناك دائمًا أمل فى النجاة .. ما دمت تعتمد على الأقوى .

سأله (ميلو) فى توتر :

ـ الأقوى ! ومن هذا الأقوى ، الذى أعتمد عليه ؟!

بدا صوت (باسل) عجيبًا ، يجمع ما بين الحزم والقـوة ، والخشوع ، وهو يجيب :

ـ الله يا رجل .. الله (سبحانه وتعالى) .. إنه سندنا ومعيننا (عز وجل) ، وسنواجه كل القوى بتوفيقه ورعايته ..

ارتجف الرجل فى رهبة ، وانكمش فى مكانه ، متمتمًا :

ـ ومن أدراك أنه سيرعانا ؟

أجابه (باسل) فى صلابة :

ـ الله (سبحانه وتعالى) يرعى عباده الصالحين يا رجل .. اطمئن .

كان رئيس العمال ومعاوناه قد استقلوا سيارتهم الجيب القوية فى تلك الحظة ، وهو يقول لهما فى عصبية :

ـ عندما نبلغ الطائرة ، أطلقا عليها كل رصاصاتكما .. انسفاها نسفًا .. المهم ألا أسمع اسم (ميلو) هذا ثانية قط ..

أجابه أحد الرجلين فى حزم ، وهو ينطلق بالسيارة :

ـ اطمئن أيها الزعيم .. سنظفر بهما ..

كان (باسل) ينطلق فى تلك اللحظة بأقصى سرعة ، تسمح بها محركات طائرته ، فوق رمال الصحراء ، ولكن (الجيب) كانت تنهب الأرض نهبًا خلفها ، بحيث تناقصت المسافة بينهما فى سرعة مخيفة ، على نحو ضاعف من قلقه ، وجعله يدرك أنه لو سارت الأمور على هذا النحو ، فسيظفر به الرجال الثلاثة حتمًا ، فى حين هتف (ميلو) فى انهيار :

ـ ألم أقل لك أيها العربى لا أمل ؟!

صاح به (باسل) فى صرامة :

ـ اصمت يا رجل ..

صرخ (ميلو) :

ـ أصمت ! ولماذا أصمت أيها العربى المتحذلـق ؟! أيزعجك أن أطلق صرخة ألم ، عندما تخترق رصاصاتهم رأسى ، أم إنك تفضل أن ألقى مصرعى فى صمت ؟!

انعقد حاجبا (باسل) فى شدة ، وهو يقول :

ـ بل أفضل أن تبتلع لسانك ، وتترك لى مساحة للتفكير ..

كـانت (الجيب) تقـترب أكـثر وأكـثر ، ورئيس العمـال يهتـف داخلها :

- أطلقا النار .. انسفاها نسفًا .. ومع هتافه ، أطلق معاوناه النار نحو الطائرة ، فأخفى (ميلو) رأسه بذراعيه ، مع دوى الرصاصات ، وصوت ارتطامها بجسم الطائرة ، وراح يصرخ :

- لا أمل أيها العربى .. لا أمل ..

ازداد انعقاد حاجبى (باسل) ، وهو يغمغم فى توتر :

- ربما يا (ميلو) .. ربما لا أمل فى الفرار ..

ثم أدار عجلة القيادة فى عنف مباغت ، مستطردًا فى حزم صارم :

- ولكن ماذا عن المواجهة ؟!

دارت الطائرة حول نفسها بحركة حادة ، مال معها جناحها الأيسر على نحو مخيف ، وارتطم طرفه بالرمال بالفعل ، قبل أن تعتدل الطائرة ، وتنطلق نحو (الجيب) مباشرة ، فى خط مستقيم ..

وفى ارتياع شديد وبعينين اتسعتا عن آخرهما ، حتى كادتا تقفزان من محجريهما ذعرًا ورعبًا ، صرخ (ميلو) :

- ماذا ستفعل أيها المجنون ؟!

لم يجب (باسل) وتجاهل الصرخة تمامًا ، وهو يواصل اندفاعه نحو (الجيب) ، التى اتسعت عينا قائدها فى دهشة تمتزج بالتوتر ، وهو يهتف :

- إنه مجنون .. مجنون حتمًا ..

أما رئيس العمال ، فقد جف حلقه ، وهو يقول :

- لا .. لن يجرؤ .. لن يمكنه أن ...

ولم يحاول إتمام عبارته ، وإنما رفع مسدسه نحو الطائرة ، واعتصر زناده بسبَّابته بكل قوته ..

وانطلقت الرصاصات نحو الطائرة ..

وانهالت عليها كالمطر ..

وعلى الرغم من هذا ، لم يتوقَّف (باسل) قط ..

لقد واصل الانطلاق نحو (الجيب) ، وكأنما يصر على الارتطام بها بأى ثمن ، والرصاصات ترتطم بجسم الطائرة ، وتتطاير حول رأسه ..

وانكمشت المسافة بين السيارة والطائرة بسرعة مخيفة ..

وانكمشت ..

وانكمشت ..

وفى ذعر ، أدار قائد (الجيب) عجلة قيادتها ، هاتفًا :

- إنه مجنون ..

وفى اللحظات نفسها ، جذب (باسل) عجلة القيادة نحوه ، فارتفعت

الطائرة ، وتجاوزت السيارة بعدة أمتار ، قبل أن تعود للهبوط على الرمال ، وتواصل انطلاقها مبتعدة ، نحو الطريق الأسفلتى ، الذى يبدو من بعيد ..

وصرخ رئيس العمال فى ثورة :

ـ لا .. لا تسمحوا له بالفرار ..

وبكل الغضب والتوتر فى أعماق الرجال الثلاثة ، راحوا يطلقون رصاصاتهم خلف الطائرة ، و(ميلو) يهتف بعصبية بالغة :

ـ ماذا يحدث ؟! ماذا سيفعلون بنا ؟!

ومع آخر حروف عبارته ، ارتفعت قعقعة رهيبة ، ثم انهار ذيل الطائرة ، واشتعلت فيه النيران بغتة ..

وانعقد حاجبا (باسل) فى شدة ..

لقد أصيب خزان الوقود ..

وهذا يعنى أن الطائرة فى سبيلها للانفجار ..

وبعنف .

* * *

٣ ـ العربى ..

بسرعة مذهلة ، استرجع عقل (باسل) كل ما تعلمه عن طرق تأمين الطائرات ، ووسائل مقاومة الحرائق ، ودرس الموقف كله فى ثانية واحدة ..

لقد اشتعلت النيران فى ذيل الطائرة ، بالقرب من خزان وقودها ، ولو استمر هذا لعشرين ثانية أخرى ، ستنفجر الطائرة حتمًا ..

ولو قفز مع الرجل منها ، سيلحق بهما رئيس العمال ومعاونوه حتمًا ، ولن يختلف مصيرهما كثيرًا ، فكل وجوه الموت واحدة ..

إذن فمن المحتم أن يواصل الفرار ، وأن يطفئ النيران فى الوقت ذاته ..

وقبل مرور الثوانى العشرين .. وبمنتهى الحزم ، ودون أن يضيع ثانية واحدة ، اختطف (باسل) أسطوانة إطفاء الحريق ، وهتف بالنحيل :

ـ أمسك عجلة القيادة جيدًا ، وواصل الانطلاق فى خط مستقيم ..

اتسعت عينا الرجل فى ارتياع ، وهو يسأله :

ـ لماذا ؟! ماذا ستفعل ؟!

تحولّ ارتياعه إلى ذعر هائل ، عندما ترك (باسل) مقعد القيادة ، وأزاح غطاء الكابينة ، وراح يزحف فوق جسم الطائرة ، فى اتجاه الذيل المشتعل ، حاملاً أسطوانة الإطفاء ..

كان يحفظ توازنه بكل ما يملك من قوة ، وهو يتحرك بسرعة حتى بلغ الذيل المشتعل ، فى حين مال النحيل إلى الأمام ، حتى صنع جسده ما يشبه الزاوية القائمة ، ليقبض على عجلة القيادة بكل قوته ، محاولاً الحفاظ على توازن الطائرة ، وعلى توازنه الشخصى أيضا ، أمام حالة لم ير مثلها فى حياته قط ..

ومن بعيد ، رأى رئيس العمال ومعاوناه هذا المشهد العجيب فاتسعت عيونهم فى دهشة ، وانفغرت أفواههم فى بلاهة ، وغمغم أحد المعاونين ذاهلاً :

ـ مستحيل ! هذا الشاب مدهش للغاية ، التفت إليه رئيس العمال بحركة حادة ، وصاح غاضبًا :

ـ بل هو عربى غبى ..

ثم صاح فى الآخر :

ـ انطلق خلفه .. سنثبت لهذا العربى أن نيراننا ستناله حتمًا ، حتى ولو اختفى فى أعماق الأرض .

انطلقت (الجيب) مرة أخرى تطارد الطائرة ، فى نفس الوقت الذى بلغ فيه (باسل) الذيل المشتعل ، وأطلق المادة الرغوية من أسطوانة الإطفاء نحو النيران ، التى استجابت بسرعة ، وانطفأت على الفور ، فهتف فى حماس :

ـ أرأيت يا (ميلو) ؟! الله (سبحانه وتعالى) معنا ، و ....

وثبت الطائرة فى تلك اللحظة ، فوق رمال الصحراء ، على نحو مباغت ، فاختل توازن (باسل) وسقط ..

سقط عن ذيل الطائرة إلى الصحراء ، وارتطم بالرمال فى عنف ، وتدحرج فوقها بقوة ، فى حين واصلت الطائرة ابتعادها بسرعة كبيرة ..

وفى ظفر ، هتف رئيس العمال داخل (الجيب) :

ـ مرحى .. لقد سقط ذلك الطيّار المتحذلق .. سقط من الطائرة يا رفاق .. لقد ظفرنا به ، ولكن (باسل) وثب واقفًا على قدميه فى سرعة مدهشة ، وانطلق يعدو خلف الطائرة ..

وفى عصبية ، هتف قائد (الجيب) ، وهو يضغط دوّاسة وقودها ، محاولاً زيادة سرعتها ، التى بلغت حدّها الأقصى بالفعل :

ـ لن يمكنه اللحاق بها .. هذا الشاب مجنون .. لن يمكنه اللحاق بها قط ..

كان الرجل على حق تمامًا فى قوله هذا ، من الناحية النظرية ، فالعدو فوق الرمال ليس بالأمر السهل أو الهيّن أبدًا ، كما أن سرعة البشر ، مهما بلغت ، لن يمكنها قط اللحاق بطائرة تنطلق فوق الرمال ..

أو الفرار من (جيب) قوية ، بها ثلاثة مجرمين ، يسعون لقتل طريدهم بلا أدنى تردُّد ..

أو أدنى شفقة ..

ولكن (ميلو) المذعور شاهد ما حدث ..

صحيح أن كل ذرة فى كيانه كانت ترتجف خوفًا ، من هؤلاء المجرمين الثلاثة ، وذعرًا مما يمكن أن يفعلوه به ، إلا أن وجوده وحيدًا فى مواجهتهم ، كان يثير فى أعماقه ذعرًا أكبر ألف مرة ..

خاصة وأن الدقائق السابقة ، جعلته يدرك جيدًا أن (باسل) يمكنه مواجهة الموقف معهم .. وأنه الخطة الأولى ، فى طريق الأمل للخلاص منهم ؛ لذا ، فقد أدار (ميلو) عجلة الطائرة ، عائدًا لالتقاط (باسل) ..

وكان مشهدًا رهيبًا ، فى قلب الصحراء ..

(باسل) يعدو بكل قوته ، والطائرة تتجه نحوه من ناحية ، فى حين تنقضَ عليه (الجيب) بكل قوتها وشراستها ، من الناحية الأخرى ..

وفى هلع هتف (ميلو) :

ـ أسرع أيها العربى .. أسرع بالله عليك .. لا تسمح لهم باللحاق بك ..

وفى نفس الوقت ، صاح رئيس العمال :

ـ لا تدعا ذلك الشاب يهرب .. أوقفاه .. أوقفاه بأى ثمن ..

وأضيفت لقطة جديدة إلى المشهد ..

لقطة للرصاصات ، التى انهالت كالمطر ، على (باسل) والطائرة ، وشعر (باسل) بالرصاصات من حوله ، وسمع دويها ، وصوت ارتطامها بالرمال ، فزاد من سرعته ، ووثب يتعلّق بجناح الطائرة ، وفى مشهد آخر رهيب ..

ولجزء من الثانية خُيِّل للنحيل أن (باسل) لن يفلح فى هذا قط ، إلا أنه لم تكد تكتمل الثانية ، حتى وجد نفسه يصرخ فى انفعال جارف :

ـ رباه ! لقد فعلها .. ذلك الشاب العربى المدهش فعلها ، فلقد طار جسد (باسل) فى الهواء ، إثر وثبته المدهشة ، وهبط فوق الجناح الأيمن للطائرة ، فتشبَّث به بكل قوته .. ومع ذلك الثقل المباغت ، مال الجناح فى عنف ، وارتطم بالرمال فى قوة ، فتحطّم طرفه ، وطار فى الهواء ، مع عاصفة من الرمال ، فى نفس الوقت الذى قفز فيه (باسل) داخل كابينة القيادة ، وهو يلهث ، قائلاً :

ـ حمدًا لله .. لقد نجحت ، ولكنه لم يكد ينطق العبارة ، ويعود للتشبث بعجلة قيادة الطائرة ، حتى أدرك أن الموقف قد صار بالغ الخطورة إلى حد مخيف ..

فالطائرة ما زالت تنطلق فى الاتجاه العكسى ، نحو (الجيب) تمامًا ، والرصاصات ما زالت تنهال عليها كالمطر ، وقد فقدت ذيلها ، ونصف جناحها الأيمن ، و ....

وصاح (باسل) بكل قوته :

ـ اخفض رأسك يا رجل .

أطاعه (ميلو) بسرعة كبيرة ، مبعثها الخوف والذعر ، فى نفس اللحظة التى انحرف فيها هو بالطائرة إلى اليسار ، لينقض على (الجيب) مباشرة ، ويلتقيان وجهًا لوجه ..

أو بمعنى أدق ، مقدمة الجناح ..

وبكل الدهشة والذعر ، صرخ رئيس العمال :

ـ إنه مجنون .. مجنون ..

واتسعت عيناه فى هلع ، مع مرأى الجناح الأيسر الذى يندفع نحوهم بسرعة مذهلة ، وغاص بجسده ، مستطردًا :

ـ احترسا ... إنه ..

وقبل أن يتم عبارته ، كان جناح الطائرة قد ارتطم بواجهة كابينة قيادة (الجيب) ، وتحطم معها بدوى وعنف شديدين ، وهو يقتلع قمتها ، ويرتطم بأحد معاونى رئيس العمال ، فينتزعه من مكانه ويقتلعه

اقتلاعًا ، ليطيح به أربعة أمتار كاملة إلى الخلف ، وهو يطلق صرخة مدوية ، قبل أن يسقط على الرمال جثة هامدة ..

ودارت الطائرة حول نفسها ، من عنف الارتطام ، فاصطدم ذيلها بمقدمة (الجيب) ، التى توقفت بدورها ، وتصاعدت منها أبخرة كثيفة ..

ولثانية أو ثانيتين ، بدا المشهد كله ثابتًا جامدًا ، وكأنما انمحت منه كل علامات الحيوية والحياة ..

ثم أطل رئيس العمال برأسه من داخل (الجيب) التى فقدت قمتها ، وهو يحمل مسدسه ، صارخًا :

ـ لقد قتل (ألفريد) .. ذلك العربى قتل (ألفريد) .

أطلق صرخته مع رصاصاته ، التى دوت فى المكان ، وهى تخترق جسم الطائرة ..

أو ما تبقى منه ، لو شئنا الدقة ..

ولكن (باسل) خفض رأسه بدوره ، وهو يدير محركاتها مرة أخرى ، ويدير عجلة قيادتها ، ثم ينطلق بها مبتعدًا ، نحو الطريق الأسفلتى ، ومن خلفه (ميلو) يصرخ ، فى ألم مذعور :

ـ لقد أصابونى .. رصاصة اخترقت ساقى .

لم يكن من الممكن أن يتوقَّف (باسل) أمام صرخات النحيل ، فهو يعلم جيِّدًا أن التوقف فى تلك اللحظات يعنى الموت ..

والموت وحده ..

وبكل غضب الدنيا ، صرخ رئيس العمال فى معاونه المتبقى :

ـ الحقْ بهما .. لا تجعلهما يفلتان .

أجابه الرجل فى غضب مماثل ، وهو يصوب مسدسه إلى الطائرة :

ـ اطمئن أيها الزعيم .. لن يمكنهما الذهاب بعيدًا ..

وأطلق رصاصاته ..

وفى هذه المرة ، وكما حدث المرة السابقة ، أصابت رصاصاته كلها الهدف المنشود ..

وبمنتهى الدقة .

* * *

٤ ـ الأمل ..

من المؤكد أن معاون رئيس العمال هذا كان يجيد التصويب إلى حد كبير ، فقد أصابت رصاصاته دفة الطائرة وحطمتها ، فى المرة الأولى ، ثم نجحت فى إصابة هدفها فى المرة الثانية أيضًا ..

وكان الهدف فى تلك المرة أقوى تأثيرًا ..

كانت إطارات الطائرة العريضة ، التى تسمح لها بالسير على الرمال ..

لقد أصابت رصاصاته الإطار الأمامى ، والخلفى الأيسر ، فانفجرا فى قوة ، وفقدت الطائرة مع انفجارهما توازنها ، وإن واصلت اندفاعها فوق الرمال لبضعة أمتار ، قبل أن ينغرس القلب المعدنى للإطار الأمامى فى الرمال ، فتوقف عن الحركة تمامًا ..

وفى ظفر ، صرخ رئيس العمال :

ـ مرحى يا رجل .. لقد فعلتها ..

وألقى الخزانة الفارغة للمسدس فى الصحراء ، قبل أن يضع مكانها خزانة جديدة ، ممتلئة بالرصاصات ، ويشير بيده ، مستطردًا فى عصبية :

ـ هيا .. دعنا نذهب إليهما ، وننهى هذه المهمة :

وفى نفس اللحظة ، التى انطلقت فيها (الجيب) نحو الطـائرة ، كان (باسل) يعاون (ميلو) على الخروج منهـا ، وهذا الأخير يصرخ فى يأس مذعورًا ، وهو يمسك ساقه المصابة بيده :

ـ لا أمل .. لا أمل .. لقد انتهى أمرنا .. لا أمل .

صاح به (باسل) فى صرامة :

ـ قلت لك : لا تفقد الأمل أبدًا يا رجل .

صرخ فيه (ميلو) :

ـ كفى أيها العربى .. كف عن فلسفتك الحمقاء الخرقاء هذه .. إنها لم تعد تفيد .. لقد انتهى أمرنا ، وظفر بنا رئيس العمال .

انعقد حاجبا (باسل) فى شدة ، وهو يجذبه خارج الطائرة ، قائلاً فى حزم :

ـ من يدرى ؟! الله (سبحانه وتعالى) وحده يملك حياة عباده .

صرخ (ميلو) فى انبهار :

ـ فلسفة .. فلسفة .. لم يعد لديك سواها أيها العربى .

أجابه (باسل) فى صرامة :

ـ فليكن يا رجل .. لن يمكنك أن تفهم هذا أبدًا ، مـا دمت لا تمتلك الإيمان الكافى بالله (عز وجل) .. المهم الآن أن نبتعد عن الطـائرة

بقدر الإمكان ، فالوقود يسيل منها ، بعد إصابة الخزان ، وأية شرارة صغيرة سوف تؤدى إلى اشتعال النيران ، و ...

قاطعه (ميلو) فى حدة يائسة :

ـ وما الفارق أيها العربى ؟! تعددت الأسباب والموت واحد .. لقد انتهى أمرنا على أية حال .

انعقد حاجبا (باسل) ، وهو يستمع إلى عبارة (ميلو) ، وعيناه معلقتان بالسيارة (الجيب) ، التى اقتربت كثيرًا بالفعل ، وبدا له لحظة أن الرجل على حق ، وأن أمرهما قد انتهى ، و ...

وفجأة ، ودون سابق إنذار ، اشتعلت النيران فى مقدمة (الجيب) ، التى ضغط قائدها فراملها بأقصى قوته ، ووثب منها ، مع رئيس العمال ، وراحا يعدوان مبتعدين عنها ، والأخير يصرخ فى انفعال :

ـ ماذا حدث ؟! ماذا حدث ؟!

أجابه معاونه فى عصبية :

ـ إنه مبرد المياه .. لقد تحطم إثر ارتطامنا بذيل الطائرة على الأرجح ، فتزايدت حرارة المحرك ، و .....

صرخ رئيس العمال فى غضب هادر :

ـ لا أريد أية تبريرات .. دع التبريرات والتفسيرات لما بعد .. المهم أن نلحق بالطيار و(ميلو) .

بلغ صراخه مسامع (باسل) ، فانعقد حاجباه بشدة ، وأعاد عقله دراسة الموقف كله ، قبل أن يندفع نحو الطائرة ، ويلتقط من كابينتها مسدس إشارة صغير ، وهو يقول فى حزم :

ـ أرأيت يا سيد (ميلو) .. ها هو ذا الله (سبحانه وتعالى) ، يمنحنا فرصة أخرى للحياة !

اتسعت عينا (ميلو) ، وفغر فاه مشدوهًا ، قبل أن يقول فى مرارة يائسة :

ـ فرصة لك وحدك أيها العربى .. يمكنك أن تعدو هاربًا بأقصى سرعتك .. أما أنا ، وبساقى المصابة هذه ، فلن ...

قاطعه (باسل) فى حزم ، وهو يجذبه من ذراعه :

ـ اطمئن .. لن أتخلى عنك قط ..

وراح يعدو به ، بقدر استطاعتهما ، مبتعدين عن الطائرة ، فحدق فيه (ميلو) فى دهشة ، قبل أن يقول :

ـ ولكن لماذا ؟! لماذا تفعل كل هذا من أجلى ؟!

أجابه (باسل) فى حزم :

ـ لا يمكنك فهم أو استيعاب الشهامة العربية فى كلمات محدودة يا رجل ، والوقت لا يسعفنا لشرح مستفيض .

قال (ميلو) :

ـ ولكن كل هذا لن يفيد .. سيلحقان بنا حتمًا ، فهما أكثر قوة ، كما أنهما يحملان مسدسات حقيقية ، وليس مسدس إشارة بسيط كهذا .

استوقفه (باسل) ، قائلاً :

ـ من يدرى ؟! ربما يفعل مسدس الإشارة هذا الكثير .

ثم استدار يواجه الطائرة ، التى بلغها الرجلان ، وهما يعدوان خلفهما ، وصوَّب إليها مسدس الإشارة ..

وأطلقه ..

وانطلقت طلقة الإشارة المشتعلة الصغيرة نحو الطائرة ، فهتف رئيس العمال فى عصبية ساخرة :

ـ ما الذى يتصور ذلك العربى إنه يفعله ؟! هل يعتقد أنه يستطيع إيقافنا بهذا ؟!

ولكنه لم يكد يتم عبارته ، حتى أدرك أن (باسل) لم يكن يعبث أبدًا ..

لقد سقطت الطلقة المشتعلة إلى جوار الطائرة ، حيث يتسرب الوقود ، ولم تكد تلامسه ، حتى اشتعلت النيران بغتة ، فى كل المساحة التى انتشر فيها الوقود ، على الرغم من أن الرمال قد ابتلعت معظمه ..

وفوجئ رئيس العمال بالنيران مشتعلة فى سترته ، فى حين تحوَّل معاونه ، الذى كان واقفًا على قدميه ، إلى شعلة من اللهب ، وراح يصرخ ويعدو كالمجنون ..

وبكل غضبه ، صرخ المجرم فى ثورة :

ـ لن تفلت بهذا أيها العربى .. لن تفلت قط .

كانت صرخات معاونه قد توقفت ، بعد أن لقى حتفه وسط النيران ، ولكنه لم ينتبه إلى هذا ، وهو يعدو بكل غضبه وقوته نحو (باسل) ، ويطلق رصاصات مسدسه فى ثورة ساخطة ..

وأصابت إحدى الرصاصات (باسل) فى كتفه ، فى حين اخترقت ثانية فخذ (ميلو) ، الذى راح يصرخ ويولول على نحو مقزز ، هاتفًا :

ـ لا .. لا تقتلنى .. لا أريد أن أموت .. لا أريد أن أموت .

لحق بهما رئيس العمال فى تلك اللحظة ، ولهث فى عنف ، وهو يصرخ فى انفعال :

ـ بل ستموت يا (ميلو) .. ستلقى مصرعك ؛ لأنك تصوَّرت أنك تستطيع خداعنا ، والفوز بالغنيمة كلها وحدك .

هتف (باسل) فى دهشة :

ـ الفوز بالغنيمة ! إذن فهم لا يطاردونك لأنك كشفت أمرهم يا رجل !

أطلق رئيس العمال ضحكة عصبية ساخرة ، قبل أن يقول بنفس الانفعال اللاهث :

ـ كشف أمرنا ! أهذا ما أوهمك به أيها العربى ؟! ألهذا بذلت كل ما بذلت من أجله ؟! كنت تتصوَّر أنك تحمى بريئًا .. أليس كذلك ؟! كلا أيها العبقرى .. (ميلو) هو الرأس المدبر لكل ما نفعله .. جعلنا نخدع الشركة لعام كامل ، ثم استولى على الغنيمة كلها ، وحوّلها لحسابه فى (سويسرا) ، وأراد الفرار منا ، ولكننا كشفنا أمره ، وقررنا قتله ، جزاء ما فعله بنا ..

واشتعلت عيناه بالغضب ، وهو يتابع :

ـ الفارق الوحيد هو أنك ستصحبه إلى الجحيم أيها العربى .. بل ستسبقه إليه ، فقد قررت قتلك أولاً .

أجابه (باسل) فى صلابة :

ـ الجحيم لأمثالكم فحسب أيها المجرمون .

صوَّب الرجل مسدسه إلى رأس (باسل) ، قائلاً :

ـ عبارة أنيقة أيها العربى .. أعدك أن أنقشها على قبرك .. وداعًا أيها المتحذلق .

وانطلقت الرصاصات فى قلب الصحراء ..

ولكنها لم تنطلق نحو (باسل) ، وإنما انطلقت نحو رئيس العمال ، الذى تراجع مذعورًا ، وحدَّق فى رجال الشرطة الذين يعدون نحوه ، هاتفًا :

ـ لا .. هذا مستحيل ! مستحيل !

أما (باسل) ، فقد لمح بين رجال الشرطة فتى الإصلاح (رشدى) الذى هرع نحوه ، هاتفًا :

ـ أستاذ (باسل) .. حمدًا لله .. لقد وصلنا فى الوقت المناسب .. لقد كشفت تلف جهاز اللاسلكى ، عندما تأخرت فى العودة بطائرتك إلى المطار ، وخشيت أن يكون قد أصابك مكروه ، فأبلغت الشرطة ، وخرجنا للبحث عنك ، ومن حسن حظنا أننا قد وصلنا فى الوقت المناسب .

قالها ، وهو يصافح (باسل) فى سعادة وحرارة ، فى حين تطلّع هذا الأخير مبهورًا إلى رجال الشرطة ، الذين أحاطوا برئيس العمال و(ميلو) ، ثم التفت إلى (رشدى) ، قائلاً :

ـ هذا يثبت إنه لا ينبغى أن نفقد الأمل فى الله (سبحانه وتعالى) يا رجل .. لا ينبغى أن نفقده أبدًا .. مهما كانت الظروف .

وعندما انطلقت بهم سيارات الشرطة ، عائدة إلى المدينة ، كان (باسل) يفكر فى طائرة جديدة ، و ....

وأمل جديد ..

★ ★ ★

[تمــت]

إهـــداء



إليك

أنا

كوكتيل روايات مصرية للجيب
٢٠٠٠

حبيبى

دراسة

٦ـ النفس وما تهوى



٦ـ النفس وما تهوى ..

ترى أيّة صفة بالتحديد ، يمكن أن تدفعك إلى الوقوع فى حب شخص ما ؟!

أهى قوته ..

أم جماله ..

أم طيبته ..

أم روحه المرحة ؟

أم ..

أم ..

الواقع أنه لو أجريت استفتاءً عامًا بين المحبين ، لما أمكنك أن تحصر جوابًا واضحًا فى هذا الشأن ..

لأنه فى هذه النقطة بالذات ، يختلف كل مخلوق عن الآخر اختلافًا بينًا ، لا يرجع إلى طبيعته وشخصيته فحسب ، ولكنه يرتبط بجيناته أيضًا ، وبحياته ومنشئه على وجه عام ..

وربما كان لهذا العامل الأخير التأثير الأعظم ، فى الغالبية العظمى من حالات الحب ..

فالطب النفسى يقول : إن الإنسان يحب فى الطرف الآخر أمرًا افتقده فى حياته ، ويسعى إليه طيلة عمره ..

الشخص الذى حرم من الحنان فى طفولته ، أو عانى عذابًا أو قسوة ، قد يقع فى الحب ، إذا ما شعر بحنان الطرف الآخر ، أو دفء مشاعره ..

بل ويجد نفسه مدفوعًا بقوة ، نحو أية لمسة حانية ، أو همسة رقيقة ..

لهذا قد تجد رجلاً غاية فى الوسامة ، غارقًا حتى أذنيه فى حب امرأة ، يرى الكل أنها تفتقر إلى كل مقومات الجمال أو الإثارة ، بل ويبدون دهشتهم الشديدة من شدة عشقه لها ، إلا أنه فى الواقع منجذب إلى حنانها ، وما يمنحه إياه من شعور بالأمان والاستقرار ..

والعكس أكثر شيوعًا ، وهو أن تجد فتاة رقيقة جميلة ، تعشق رجلاً خشن المظهر ، أو يكبرها فى العمر ؛ لأنها وجدت لديه الحنان الذى تبحث عنه منذ طفولتها ..

والابنة التى نشأت فى كنف أب صارم متزمت ، قد تعشق فى شبابها شابًا مرحًا منطلقًا ..

وهكذا ..

فمشكلة الحب الرئيسية ، هى أنه يكمن دومًا فى جزء خفى عميق من كينوناتنا .. جزء نجهل كل شىء عنه ..

وحوله ..

جزء يثب من مكمنه بغتة ، فى لحظة نجهلها ، ليسيطر على كل ذاتنا ، دون أن نملك له ردًا أو دفاعًا ..

وقد لا ندرك حقيقة ذلك الجزء الخفى أبدًا ، حتى بعد أن نحب ، ونعشق ونتزوج ، وننجب أيضًا ..

والواقع أن هذا لا يهم ..

ليس من الضرورى أن نعرف ماهية الحب ..

ولا لماذا أحببنا ..

المهم أن نحب ..

وألا نضيع هذا الحب ، مهما كان الثمن ..

المشكلة أننا نخشى بشدة حالة الوقوع فى الحب ، عندما نشعر بها فجأة ..

فالناس أعداء ما يجهلون ..

وما يعجزون عن فهمه أيضًا ..

ففى لحظة ، يكونون أحرارًا ..

وفى اللحظة التالية يجدون أنفسهم أسرى الحب ..

هذا لا يعنى أن الحب يحدث فى لحظة ، أو من النظرة الأولــى ، كما تحب روايات الرومانسية أن تقنعنا ..

إنما الواقع أننا ننتبه إليه فجأة ..

ففى البداية يكون هناك انجذاب ..

واهتمام ..

ومتابعة ..

و ......

وفجأة ! يأتى عامل ما ، ليفجر الحقيقة داخلنا ، دون تمهيد ..

حقيقة أننا نحب ..

وذلك العامل قد يكون غياب المحب ..

أو مرضه ..

أو عودته ..

أو حتى لمحة عن احتمال وقوعه فى حب شخص آخر ..

والفتيات أكثر من يدركن هذه الحقيقة ..

حقيقة العامل الخفى للحب ..

فعندما تريد الواحدة منهن اختبـار عواطف شخص ما نحوهـا ، تجدها تختفى من حياته فجأة ..

أو تفتعل معه مشكلة وهمية ..

أو تروى له مأساة مفتعلة ..

المهم أن تفجِّر داخله عاملاً ما ..

عاملاً تجهله ..

ويجهله ..

وعادة ما ينجح هذا الأسلوب تمامًا ..

ولكن ليس بالضرورة أن يسفر عما تنشده الفتاة ..

فقد يدرك الشاب طبيعة مشاعره نحوها ..

أو انعدامها ..

أو هو لن يدرك انعدامها ..

ولكنها هى ستدركها ..

وسيتحطم حبها ..

وقلبها ..

وتتصور أن عمرها قد انتهى ..

وأنها لن تحب مرة أخرى ..

و ....

ولكن الزمن سيمر ..

ويندمل الجرح ..

ويشفى القلب ..

ويتفتح ..

ويأتى حب جديد ..

واختبار جديد ..

وما تهواه المرأة فى الرجل ، يختلف تمامًا عما يهواه الرجل فى المرأة ؛ بسبب اختلاف نوعيتهما ، ومنظور كل منهما للحياة ..

وللحب ..

واختلاف المنظور هذا ، هو الذى يسبب كل مشكلات الحب ، والزواج ، والارتباط بين الجنسين ..

ففى آخر الأبحاث العلمية ، والتى ترفض الجميعات النسائية الاعتراف بها فى تعنت مضحك ، أثبتت الجينات أن الرجل كائن متعدد ، والأنثى كائن منفرد ..

وهذا يعنى أن قلب الرجل يسمح له بالوقوع فى أكثر من حب ، فى آن واحد ، فى حين أن المرأة لا يمكن أن تقع إلا فى حب شخص واحد ، فى الوقت الواحد ..

وهذه النتيجة تبدو لى علمية ومنطقية ؛ باعتبار أن الذكور فى كل الكائنات قادرة على التزاوج مع أكثر من أنثى ، فى حين أن الأنثى لا يمكن أن تتزاوج إلا مع ذكر واحد ..

والرجل مؤهل للزواج بمثنى وثلاث ورباع (على الرغم من إصرار البعض على نفى هذا) ، فى حين أن الأنثى غير مؤهلة لهذا !!

المهم أن هذا الاختلاف الجوهرى يدفع المرأة دومًا لاستنكار تصرفات الرجل ، ويدفعه هو لإخفاء تلك التصرفات عنها ..

ومن ناحية أخرى ، فالمرأة تثق فى حقيقة تعدد مشاعر الرجل ؛ بدليل أنها تخشى نظراته لأخرى ، وحديثه مع صديقة ..

أو زميلة ..

أو رفيقـة حفل ..

وقديمًا كانت النساء تدرك هذا أيضًا ، ولكنهن كن يتعاملن مـع الموقف أو يتغاضين عنه ..

والحياة تسير ..

ثم تطورَت الدنيا ، وحصلت المرأة على حريتها ..

ولم تعد تتغاضى ..

أو تتنازل ..

أو تتجاوز ..

وبدأ الحديث عن الشخصية ..

والكرامة ..

وعزة النفس ..

وبدأ القتال ..

والصراع ..

وتعدَّدت حالات الانفصال ..

والطلاق ..

ولم يتغير الرجل ..

كل ما حدث هو أنه قد تعلم كيف يخفى انفعالاته أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ولأن مشاعر المرأة أكثر رقيًا من مشاعر الرجل ..

وأنها ترغب أكثر فى الأمان والاستقرار ..

فقد عاد الأمر يتراجع ..

ويتراجع ..

ويتراجع ..

وعادت النساء تتغاضى ..

وتتجاهل ..

وتتنازل ..

و .....

ويبقى الحب ، هو الصمام ..

صمام الأمان ..

الوحيد ..

★ ★ ★



١ ـ معلومات ..

امتدت الظلال داكنة مخيفة ، عبر الوادى الأزرق الكبير ، مع هبوط قرص الشمس ، الذى اكتسب لونًا أحمر زاهيًا ، خلف الجبال العالية ، التى تفصل الوادى عن المدينة الكبيرة ، ذات القبة الزجاجية الذهبية السميكة ، التى يحيا تحتها المتحورون ، الذين أكسبتهم الحرب النووية الطاحنة ، فى منتصف القرن الحادى والعشرين ، صفات وسمات وحشية رهيبة ، منحتهم تفوقًا جسديًا ملحوظًا ، على سكان الوادى الأزرق ، الذين احتفظوا ببشريتهم ومشاعرهم الآدمية الراقية ، على الرغم من ضعفهم ..

ومع الغروب ، انعكست أشعة الشمس على القبة ، ذات البريق الذهبى ، فضاعفت من تألقها ، على نحو جعلها تبدو أشبه بشمس ثانية ، تنبع من الأرض ..

وفى ذلك اليوم بالتحديد ، الذى بدأت فيه قصتنا هذه ، شعر سكان الوادى الأزرق بقلق وخوف مبهمين ؛ عندما لاحظوا أن تألق القبة الزجاجية قد زاد عن المألوف بمرتين أو ثلاث على الأقل ..

ثم راح تألقها يتزايد ..

ويتزايد ..

ويتزايد ..

ولأنهم فقدوا كل ذرة من الثقة ، تجاه المتحورين ، وأيقنوا من أن نواياهم ليست جيدة ، ولا يمكن أن تكون كذلك ، بأى حال من الأحوال ، فقد ارتجفت قلوبهم بين صدورهم ، مع هذا التطور الجديد ، وآثروا الكمون فى كهوفهم الجبلية ؛ خشية أن يكون هذا مقدمة لأمر رهيب ، يضمر فيه المتحورون لهم الشر ..

كل الشر ..

أما فى المدينة الكبيرة ، وتحت القبة الزجاجية الذهبية ، فقد كان قائد الأمن يقول لزعيم المتحورين ، فى حذر واضح :

ـ لقد نفذنا أوامرك بالضبط أيها الزعيم .. الطاقة الجديدة ستضىء القبة ، وكل المنطقة المحيطة بالمدينة ، على نحو لا يسمح بتسلُّل أى مخلوق إليها .

وصمت لحظة فى تردُّد ، قبل أن يضيف فى حذر أكثر :

ـ حتى ذلك الفارس .

مطَّ زعيم المتحورين شفتيه ، وانطلقت من حلقه زمجرة محدودة ، قبل أن يقول ، بصوته الخشن الغليظ :

ـ هذا بالنسبة للخارج .

سرت ارتجافة باردة ، فى جسد قائد الأمن ، واعتدل فى وقفة عسكرية قوية ، لم تخف توتره ، وهو يرهف سمعه للزعيم ، الذى مال نحوه ، مضيفًا بلهجة وحشية مخيفة :

ـ فماذا عن الداخل ؟!

كان قائد الأمن ينتظر هذا السؤال ويتوقَّعه ؛ لذا فقد أجاب فى سرعة وتوتر :

ـ لقد بذلنا كل جهدنا أيها الزعيم .

صرخ الزعيم فى وجهه ، فى غضب وحشى هادر :

ـ ليس كافيًا .

اندفع قائد الأمن ، يجيب فى توتر :

ـ لقد استخدمنا كل التكنولوجيا المتاحة لدينا ، وفحصنا كل شبر فى المدينة ، دون أن نعثر على ذلك النفق المزعوم .

صرخ الزعيم ، فى غضب هادر مستنكر :

ـ المزعوم !

انتفض جسد قائد الأمن ، وقال بصوت ، لم يستطع كتمان ارتجافته :

ـ أوامرك أيها الزعيم .

لم يكن لدى الزعيم ما يمكنه إضافته ، فى هذا الصراع ، الذى يستفز كل ذرة من كيانه الوحشى ؛ لذا فقد اعتدل ، ومطَّ شفتيه ، وعقد حاجبيه الكثين فى شدة ، وشعر بمخالبه وأنيابه تبرز ،

دون وعى منه ، فبذل جهدًا عنيفًا لمنعهما ، وهو يتحرَّك فى قاعة عرشه الواسعة ، التى تم إصلاحها مؤخرًا ، بعد قتاله العنيف فيها ، مع الفارس السابق والحالى(*) ، قبل أن يتوقَّف فجأة ، قائلاً :

ـ إنه يتفوق علينا .

تنحنح قائد أمنه فى توتر ، وغمغم :

ـ ليس إلى هذا الحد أيها الزعيم ، فـ ...

قاطعه الزعيم ، فى صرامة شديدة :

ـ كونه يعلم أين يجدنا ، فى حين نجهل نحن أين نجده ، يعنى أنه يتفوق علينا .

تنحنح قائد الأمن مرة أخرى ، دون أن يجيب ، فى حين عاود الزعيم سيره ، وتابع وكأنه يحدث نفسه :

ـ حتى من الناحية التكنولوجية ، من الواضح أنه يبدو أكثر تفوقًا ، على الرغم من أنه رجل واحد .. من الواضح أنه يستفيد كثيرًا من ميراث العالم القديم .. وبالذات فى مجال الخداع البصرى ، والـ ....

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الكتاب الأربعين ، من سلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠) ، تحت عنوان (المتحورون) .

بتر عبارته دفعة واحدة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وبدا وكأنه يشحذ اهتمامه وانتباهه كليهما فى نقطة واحدة ، حتى إن قائد أمنه قد لاذ بالصمت التام ، وهو يتطلع إليه مبهوتًا فى قلق ، وواثقًا من أنه سيخرج بعد قليل بفكرة جديدة ..

عجيبة ..

ومخيفة ..

ومن الواضح أنه يفهم زعيمه جيدًا ؛ ففجأة !

التفت إليه الزعيم ، متسائلاً فى حدة :

ـ أين تسجيلات المراقبة ؟!

ارتجف قائد الأمن ، دون سبب واضح ، وهو يقول :

ـ أية تسجيلات ؟!

زمجر الزعيم ، قائلاً فى شراسة :

ـ تسجيلات آلات المراقبة ، التى سجلت هجوم ذلك الفارس ، على مقر الزعامة .

هتف قائد الأمن فى توتر :

ـ فورًا أيها الزعيم .

واندفع لتنفيذ الأمر ، فى حين اعتدل الزعيم ، والتقى حاجباه الكثان على نحو مخيف ، وهو يقول لنفسه :

ـ خطأ .. كل ما نفعله منذ البداية خطأ .

ففى أعماقه ، كانت تتكون خطة جديدة ..

خطة جديدة تمامًا ..

***

ربت الفارس الشاب ، على عنق جواد معلمه الراحل ، فى حنان مشفق ، ومال على أذنه ، يحدثه وكأنهما صديقان قديمان :

ـ ماذا أصابك يا صديقى ؟! لماذا امتنعت عن تناول الطعام ، منذ رحل المعلم ؟! ألم تر كيف أصابك الهزال إلى حد مقلق ؟! إننى أتمزق حزنًا على رحيله مثلك ، ولكن دعنا نستعيد كلماته .. الحياة لا بد وأن تستمر .

أطلق الجواد صهيلاً ضعيفًا ، فربت عليه الفارس الشاب مرة أخرى ، وهمس :

ـ صدقنى .. ما تفعله كان كفيلاً بخذلانه ، لو أنه على قيد الحياة ؛ فلم يكن يرضى بالتخاذل والانهزام أبدًا .

مال الجواد بعنقه ، وخُيِّل للفارس الشاب (أمل) أن عينيه حملتا حزن ومرارة الدنيا كلها ، وكأنما يرغب فى البكاء على سيده الراحل ، فكتم مشاعره فى صعوبة ، وتمتم :

ـ لا بد أن نحيا يا صديقى .. وأن نقاوم .. ونقاتل .. صدقنى .. هذا ما كان سيخبرك به بنفسه ، لو ظل على قيد الحياة .

أومأ الجـواد برأسـه ، وكأنما فهم الأمر واستوعبه ، إلا أنه لـم يلبث أن أشـاح بوجهه عن طعامـه ، فتنهَّـد الفـارس الشـاب ، وقـال :

ـ فليكن يا صديقى .. إنه قرارك .

قالها ، وانتقل إلى حيث تراصت عدة شاشـات مراقبـة ، وراح يطالعها كلها فى اهتمام ، قبل أن يقول محدثًا لنفسه :

ـ المتحورون يسعون لأمر ما .. هجوم وحشى ، أو لعبة بحث وانتقام .. يبدو أن المرحلة القادمة ستشهد صراعًا عنيفًا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى توتر :

ـ أول صراع أخوضه بمفردى .

دار بصره ، ليتوقف عند قبر أستاذه ومعلمه ، قبل أن يتابع فى حزن :

ـ وسأخوضه من أجلك .

خُيِّل إليه أن كلمات أستاذه تتردد عندئذ فى ذهنه :

ـ لا تقاتل إلا من أجل الحق والعدل .. الحق والعدل وحدهما .

وهنا شد قامته فى قوة ، وغمغم ، وكأنمـا يجيب مـا تـردَّد فى ذهنه :

ـ بالتأكيد .

كان يدرك أن أمامه عشرات ، بل مئات المعلومات ، التى ينبغى أن يستوعبها جيدًا ، من أجل المرحلة القادمة ..

معلومات عن المدينـة الكبيرة ، والمتحورين ، وسبل القتـال ، وتكنولوجيا الرصد ، والتتبع ، و ....

توقفت أفكاره دفعة واحدة ، عندما لمح جواد المعلم وهو يقبـل على طعامه ، لأول مرة منذ رحيل سيده ، فابتسم متمتمًا :

ـ نعم .. الحياة لا بد وأن تستمر .

اتسعت ابتسامته ، وهو يسترجع حديثه مع الجواد ، والذى بـدا وكأنه قد استوعبه على نحو ما ، و ....

وفجأة ! توقفت كل أفكار الفارس الشاب ، وتجمَّدت فى ذهنـه ، واستدار بصره بحركة حـادة ، إلى حيث يقف ذلك المهر المجنَّـح ، الذى منحه إياه معلمه ..

وقفز التساؤل دفعة واحدة ، إلى كل خلية فى جسده !

كيف جاء ذلك المهر ؟!

كيف نشأ ؟!

الحياة تنشأ فى كل الكائنات العليا ، من ذكر وأنثى ، وهو لم ير فى حياته كلها سوى جواد واحد مجنح !!

لم يدر كيف لم تخطر الفكرة فى ذهنه من قبل ، ولكنها دفعته دفعًا إلى خزانة الملفات والمعلومات ، التى تحتل واحدة من حجرات الوكر ، وراح يبحث فيها فى لهفة عن ملف الجواد ، حتى التقط الأسطوانة المدمجة الصغيرة ، التى تحوى كل تاريخه وبياناته ، وهو يغمغم :

ـ أظن أنه من الضرورى أن أعرف الكثير عنك أولاً يا صديقى .

أسرع إلى جهاز الكمبيوتر الصغير ، ودس الأسطوانة ، التى لا يتجاوز حجمها حجم عملة معدنية عادية ، فى تجويف خاص به ، وانطلقت أصابعه تضغط أزراره فى لهفة ، حتى راحت البيانات تتراص أمامه على الشاشة ..

ومع تتابع المعلومات ، اتسعت عينا (أمل) عن آخرهما ..

فما عرفه ، وما يراه أمامه ، كان أمرًا يفوق كل تصوراته !!

بل كل إدراكه !!

على الإطلاق !

★★★

لاذ زعيم المتحورين بالصمت التام ، لأكثر من ساعة كاملة ، وهو يجلس على عرشه الذهبى الضخم كتمثال من الرخام ، يتابع مشاهد هجوم الفارس على قصره مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وبعد كل هذا الوقت ، الذى لم يجرؤ خلاله قائد أمنه ، على أن ينبس بحرف واحد ، اعتدل الزعيم ، وضغط أزرار شاشة العرض الجديدة ، لتكبير المشهد أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وفى اهتمام وتركيز بالغين ، مال نحو الشاشة ، يفحصها بدقة متناهية ، قبل أن يتمتم فى غضب :

ـ لم تكن صورة هولوجرامية .

غمغم قائد الأمن ، بمنتهى الحذر :

ـ لم تكن ماذا ؟!

استدار إليه الزعيم ، وإن بدا وكأنه يتحدث إلى نفسه ، دون أن يشعر بوجوده على الإطلاق ، وهو يتابع فى حدة :

ـ وأنا الذى تصورت فى البداية ، أنه مجرد خداع بصرى .

أدار عينيه بعد العبارة ، إلى قائد أمنه ، فشد هذا الأخير قامته بحركة غريزية ، وهو يهتف :

ـ أيها الزعيم .

وهنا ، أشار إليه الزعيم فى شراسة ، قائلاً :

ـ كانا فارسين ، وليس فارسًا واحدًا .

اتسعت عينا قائد الأمن ، وخفق قلبه فى عنف ، وهو يهتف :

ـ فارسان !

فمنذ البداية ، كان يشعر بثقل رهيب ، يجثم على صدره ؛ لأنه مضطر لمواجهة فارس كهذا فما بالك بفارسين ؟!

أما الزعيم ، فقد بدا وكأن غضبه قد بلغ ذروته ، وهو مسند عرشه الضخم بقبضته ، صائحًا :

ـ كنت أعلم أننا نخطئ منذ البداية .

سيطر قائد أمنه على أعصابه بالكاد ، واستجمع شجاعته ليقول :

ـ ولكن هذا لم يبد واضحًا أبدًا ، فى كل مواجهاتنا السابقة معه أيها الزعيم .

كان قوله حقيقيًا ومنطقيًا تمامًا ؛ لذا فقد انعقد حاجبا الزعيم الكثان بشدة ، وبدا غاضبًا متجهمًا بعض الوقت ، قبل أن تلين أساريره بغتة ، وهو يقول :

ـ هذا يعنى أننى قد أرديت أحدهما على الأقل .

لم يدر قائد الأمن ، من أين أتى الزعيم بفكرته هذه ، إلا أنه تمتم فى سرعة :

ـ بالتأكيد أيها الزعيم .. بالتأكيد .

شرد الزعيم ببصره لحظات ، ثم هب واقفًا فجأة ، وهبط فى درجات السلم القصيرة ، إلى أرضية القاعة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ هل تعلم فيم أخطأنا يا قائد الأمن ؟

تردد قائد الأمن لحظة ، وحار فى البحث عن الجواب ، وقبل حتى أن تكتمل حيرته ، تابع الزعيم ، وكأنه لم يكن ينتظر جوابه :

ـ إننا كنا نحاربه بالوسائل التكنولوجية الحديثة ، التى يتفوق فيها .. كنا ، دون أن ندرى ، نمنحه الفرصة لخداعنا ، وهزيمتنا ، والسخرية منا .

تساءل قائد الأمن ، فى حيرة حذر :

ـ كيف نحاربه إذن أيها الزعيم ؟

التفت إليه الزعيم ، وتألّقت عيناه على نحو مخيف ، وهو يجيب :

ـ تمامًا كما كانوا يحاربون فى (روما) القديمة .. فى الماضى .

ولم يفهمه أبدًا ..

★ ★ ★

نصف ساعة كاملة مضت ، والفارس الشاب (أمل) يراجع ملف ذلك الجواد المجنَّح ، والانبهار يملأ نفسه ، ويسيطر على جوارحه ، ويهيمن على كيانه كله .. فعلى عكس ما تصورَّ منذ البداية ، لم يكن جواد المعلم مجرَّد حيوان متحور ، من تلك التى تسللت آثار الحرب النووية الطاحنة إلى جيناتها ، وأبدلتها ، وصنعت منها كائنات جديدة مختلفة ..

لقد كان نتاج تجربة علمية جبارة ..

تجربة نمت بذورها الأولى قبيل الحرب النووية ببضع سنوات ، وتطوَّرت إلى حد ما مع بدايتها ، ثم لم تلبث أن انهارت ، مع انهيار الحضارة كلها من حولها ..

تجربة فى هندسة الجينات ..

أو هندسة الوراثة ..

وفى زمنها ، أطلق على التجربة اسم (بيجاسوس) ، وهو ذلك الجواد المجنح الأسطورى ، الذى نبت من دماء (ميدوسا) ، بعد أن قطع (برسيوس) رأسها ، الذى تنبت منه الأفاعى ، فى الميثولوجيا الإغريقية القديمة(*) ..

فمع تطور علم العبث بالجينات ، فى الربع الأول من القرن الحادى والعشرين ، سعى فريق من العلماء إلى إعادة إنتاج ذلك الحيوان الأسطورى المبهر ، عن طريق مزج جينات جواد ، بجينات نسر عملاق ، مع لمحةَ من جينات آدمية ..

نعم .. آدمية ..

إنك لم تخطئ قراءةَ الكلمة ..

ومع التكنولوجيا شديدة التطوّر آنذاك ، نجح ما كان يتصوّره العلماء قديمًا من المستحيلات ، وامتزجت جينات الحيوان والطير والبشر ..

واكتمل العبث ..

وخرجت نطفة أول جواد مجنح إلى الوجود ..

ثم كان ما كان ..

وتوقف كل شىء ..

(*) راجع أسطورة (ميدوسا) ، فى الميثولوجيا اليونانية أو الإغريقية القديمة ..

وبوسيلة ما ، لم تسجلها ملفات المعلم ، وصلت تلك النطفة المخصبة إليه ..

وبقيت ..

ونمت ..

وأصبحت الأسطورة حقيقة ، مع أقل القليل من الأخطاء والتشوهات ..

وتلاحقت أنفاس (أمل) ، وهو يتابع ما رواه المعلم بنفسه ، حول نجاح التجربة الأولى نسبيًا ، وقيامه بتطويرها ، فى مرحلتها الثانية ، مع استخدام جيناته هو الشخصية ، فى محل الجينات البشرية ..

وجاء ذلك الجواد ..

الجواد ، الذى يقف على قيد أمتار قليلة منه ، والذى تدخل فى تكوينه جينات المعلم نفسه ..

لهذا كان التفاهم والتفوق بينهما تمامًا ..

ولهذا يستطيع أن يفهمه ..

ويستوعبه ..

ويتفاعل معه ، على النحو الذى رآه وعهده !!

وأخيرًا .. وبعد أن انتهى من الملف كله ، التقط (أمل) نفسًا عميقًا ، وأغلق عينيه ، وهو يغمغم :

ـ رباه ! ذلك المهر إذن هو الجيل الثالث .

واستدار يتطلّع إلى المهر القوى ، الذى أهداه إليه معلمه ، مضيفًا :

ـ الجيل الذى يحوى جيناتى أنا .

كانت الفكرة ، على غرابتها ، تبهره ، وتحبس أنفاسه ، وتدفع فى عروقه مزيجًا عجيبًا ، من التوتر والحماس والانفعال ..

فما قرأه الآن ، يتجاوز كل ما آمن به منذ طفولته ، وما لقنه إياه والداه فى حداثته ، وكرراه حتى آخر مرة رآهما فيه ، على قيد الحياة ..

ولكنه العلم ..

العلم الذى لا يعرف أية حواجز ..

ولا أية حدود ..

وفى خطوات مترددة قلقة ، اتجه نحو الجواد والمهر ، فى مقرهما الفسيح ، ووقف ينقل بصره بينهما ، قبل أن يزدرد لعابه فى صعوبة ، ويقول فى توتر :

ـ لو أنكما تفهمان حديثى ، أومئا برأسيكما .

وعلى الرغم من أنه كان يتوقع هذا إلى حد ما ، فقد ارتجفت كل ذرة فى كيانه ، مع إيماءة الجواد والمهر ، وتراجع خطوتين

إلى الخلف بحركة حادة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وخفق قلبه بمنتهى الانفعال ، ثم راحت نفسه تهدأ تدريجيًا ، حتى ابتسم فى النهاية ، متمتمًا :

ـ ولكن هذا عظيم بحق .. ترى كيف يمكننى الاستفادة به إلى أقصى حد ، كما كان ينصحنى أستاذى دومًا ؟!

لم تكن الأفكار قد ترتبت حتى فى ذهنه عندما شعر بتلك الهزة العجيبة ، التى شملت المكمن كله ، وكادت تفقده توازنه فى عنف ..

ومع صهيل الجواد والمهر ، استعاد هو توازنه ، وهتف ، وهويعدو نحو شاشات الرصد العديدة :

ـ أهجوم هو أم ...

بتر تساؤله دفعة واحدة ، عندما وقع بصره على تلك المشاهدة ، التى شملت عددًا من شاشات الرصد ..

فعلى نطاق واسع ، لا مثيل له ، كانت قوات المتحورين تشن هجومًا شرسًا وحشيًا ، على جبال الوادى الأزرق .. على البشر ..

وكان هجومًا كاسحًا ، إلى أقصى حد ممكن ..

المقاتلات تقصف الجبال والكهوف ..

والمدرعات تحاصر الوادى ..

وقاذفات اللهب تنطلق داخل الكهوف المنخفضة ..

وآلاف من جنود المتحورين ، ينتشرون فى كل مكان ..

كان هجومًا أشبه بمحاولة للتصفية العرقية الشاملة ، ذكر الفارس (أمل) بما أصاب والديه ، فانتفض جسده ، هاتفًا :

ـ يا للأوغاد .

لم يكن من الممكن أبدًا أن يقف ساكنًا ، وهذا الدمار الشامل يحيق بكل ما حوله ؛ لذا فقد تحرك فى سرعة ، وضغط أزرار تشغيل كل الأجهزة ، وبرامج الأمن والدفاع ، التى يمكن أن تعاونه ، قبل أن يعدو نحو حجرة الملابس ، هاتفًا بالجواد الكبير :

ـ يبدو أن لحظة تعاوننا الفعلية قد حانت يا صديقى ..

صهل الجواد فى قوة ، وانفرد جناحاه فى تحفز حماسى ، ولم تمض دقائق خمس ، حتى كان الفارس الشاب يثب على متنه ، وهو يهتف به :

ـ فلننطلق يا صديقى ..

وهنا ، انطلق الجواد بفارسه الجديد ، دون أن يدرى أحدهما أنهما يندفعان نحو ما يدفعهما إليه زعيم المتحورين .. بالضبط .

* * *

- « هل تعتقد أنه سيسقط فى الفخ ، أيها الزعيم ؟! »

ألقى قائد الأمن السؤال ، فى تردد وتوتر واضحين ، أمام زعيم المتحورين ، الذى تراجع فى عرشه الضخم ، والتقط نفسًا عميقًا ، وأطلت من عينيه نظرة واثقة وحشية ، وهو يقول :

- لن يمكنه مقاومة هذا .

لم تكن العبارة مشبعة ، إلا أن قائد الأمن لاذ بالصمت ، ولم يحاول الاستزادة أو الاستفهام ، فى حين تابع الزعيم ، وصوته يحمل جذلاً وحشيًا عجيبًا :

- إنه مصاب بوهم نفسى ، يقنعه دومًا بأن الهدف من حياته هو حماية الضعفاء والحمقى ، والزود عنهم بأى ثمن ، وعندما تهاجم البشر ، فى الوادى الأزرق ، بكل هذا العنف ، ستثور الدماء الحارة فى عروقه ، وتتفجَّر كل مشاعره ، وينطلق لمواجهة كل شىء ..

هتف قائد الأمن فى حماس :

- وعندئذ ..

استوقفه الزعيم بإشارة صارمة من يده ؛ ليقول هو :

- وعندئذ سنفاجئه بما لن يتوقعه .. على الإطلاق ..

قالها ، ثم انفجر يضحك بمنتهى القوة ..

ومنتهى الظفر ..

ومنتهى الشماتة ..

ومنتهى .. منتهى الوحشية ..

* * *

أى متابع لما حدث هناك ، فى الوادى الأزرق ، سيدرك فورًا ، ودون ذرة واحدة من الشك ، أنه أمام وحوش ، لا يشتركون مع البشر إلا فى بعض المظاهر الخارجية فحسب ..

فبلا أدنى رحمة أو شفقة ، راح جنود المتحورين يقتحمون الكهوف ، التى قبع فيها البشر ، ساكنين مستكينين ، ويطلقون فيها قاذفات اللهب ، التى حولتها إلى قطع من الجحيم ، تنطلق منها صرخات المعذبين ، دون تفرقة بين رجال ، ونساء ، وأطفال ، وشيوخ ..

ومع الموقف المأساوى الرهيب ، انطلقت ضحكات الوحوش عالية ، مجلجلة ، جذلة ، وكأن ما يحدث يملأ قلوبهم بهجة وظفرًا ، ويطلق فى عروقهم نشوة ما بعدها نشوة ..

وفى زهو أشبه بالجنون ، صرخ قائد فريق الهجوم فى رجاله :

- احرقوهم .. اسحقوهم سحقًا .. لا أريد أن يبقى منهم جرذ واحد على قيد الحياة .

ومع صرخته ، استعد جنوده لضربة ثانية ..

وانكمش البشر ..

وانهاروا ..

و .....

وفجأة ، دوت تلك الفرقعة فى سماء المعركة ..

أو بمعنى أدق : فى سماء المذبحة ..

فرقعة قوية ..

عنيفة ..

وساطعة ..

فمع الفرقعة ، انطلق فى المنطقة كلها ضوء مبهر ، أغشى أبصار المتحورين لثوان ، بلغتِ ما يقرب من نصف دقيقة كاملة ، قبل أن يبرز من وسط الضوء فارسنا الشاب ..

وينقض ..

وبمنتهى العنف ..

كانت انقضاضته مباغتة ، مبهرة قوية ، حتى إنها ألقت الرعب والفزع ، فى قلوب جنود المتحورين ، فتشتتوا فى المنطقة ، وأصابهم

ارتباك شديد ، وهم يحاولون استعادة قدرتهم على الرؤية ، وأسلحتهم تطلق طلقاتها فى كل مكان حولهم ، دون تحديد أو تمييز ..

ولأنه تدرَّب جيدًا ، على استغلال عامل المفاجأة ، إلى أقصى حد ممكن ، تجاوز (أمـل) كل الإصابات ، واندفع على متن الجواد المجنح ، يطلق أشعة مسدسه على الجنود ..

كان يتمنى لو ينسف رءوسهم ، ويمزق أوصالهم ، ويشعل فيهم النيران نفسها ، التى أشعلوها فى الأبرياء المساكين ، لولا أن تردَّد فى ذهنه صوت معلمه ، وهو يقول فى حزم :

ـ من السهل أن يترك الإنسان نفسه للغضب والانفعال ، وأن ينتقم من خصمه بكل الوحشية والثورة ، التى ولدتْها أفعال الخصم فى عروقه ، ولكن من الصعب جدًا ، والعظيم جدًا ، أن يصر المرء ، مع كل غضبه ، على أن يلتزم بما ينبغى أن يفعله .. هذا هو الجهاد الحقيقى .. جهاد النفس .

ومع تردد قول المعلم فى ذهنه ، انطلقت أشعته نحو الأيدى ، والأذرع ، والسيقان ، بحيث أسقط جنود المتحورين ، وأبعدهم عن ساحة المعركة ، دون أن يزهق منهم روحًا واحدة ..

كان يتحرَّك بسرعة مدهشة ، وبراعة منقطعة النظير ، حتى إنه كاد يسيطر تمامًا على الموقف ، فى الدقائق الأولى للقتال ، و ....

ـ « الآن أيها الزعيم .. »

نطقها قائد الأمـن ، فى توتر شديد ، وهو يتابع ما يحدث فى الوادى الأزرق ، على شاشة الرصد الجديدة الكبيرة فى قاعة الزعيم ، الذى بدا شديد الاهتمام والتركيز ، وهو يقول :

ـ كلا .. ليس الآن .

هزَّ قائد الأمن رأسه فى قوة ، وقال فى عصبية ، من موقع خبرته ، كرجل عسكرى قديم :

ـ ولكن الانتظار يكلفنا الكثير .. إنه مقاتل واحد ، ولكنه كاد يسيطر على الموقف تقريبًا .

زمجر الزعيم ، فى وحشية شديدة ، وهو يكرِّر :

ـ ليس الآن .

انعقد حاجبا قائد الأمن فى شدة ، ولاذ بصمت متوتـر عصبى ، فى حين واصل الزعيم مراقبته للموقف ، بمنتهى الترقب والتحفز ..

كان الفارس الشاب ينخفض بالجواد المجنح ، إلى مستوى رءوس جنـود المتحورين ، متفاديًا طلقاتهم المرتفعة ، ثم يطلق فى سماء المعركة قذيفتين جديدتَين ..

وفى هذه المرة ، كان الانفجار أكثر سطوعًا ..

الضوء غمر الوادى الأزرق كله ، كما لو أن الشمس قد أشـرقت من جديد ..

ثم انطلق الفرسان ..

عشرات الصور الهولوجرامية المجسمة ، للفارس وجـواده ، انطلقت فى كل مكان من الوادى ، تهاجم المتحورين فى كل الاتجاهات ، حتى بات من العسير جدًّا ، مع دقتها ووضوحها ، أن يحدد المرء أيها مجرد صورة ، وأيها هو الفارس الشاب الحقيقى ..

وبكل توتر الدنيا ، هتف قائد الأمن :

ـ أيها الزعيم .. لقد سيطر على الأمر بالفعل .

كان الزعيم النووى منفعلاً بدوره ، إلا أنه بدا قويًا متماسكًا ، وهـو يميل ليضغط زرًّا فى ركن الشاشة ، قائلاً :

ـ ليس بعد .

مع ضغطة الزر ، تحولَت الشاشة كلها إلى لون أحمر هادئ ، وبـدا عليها جنود جيشه الوحشى ، فى لون أزرق داكن ، فى حين بدا فارس واحد ، من المئات الذين يحلقون فى سماء المعركـة ، بلـون أحمـر واضح ..

أما كل الصور الهولوجرامية المجسمة الأخرى ، فقـد اختفت عـن الشاشة تمامًا ..

وفى انبهار تام ، غمغم قائد الأمن :

ـ آه .. إنه رصد حرارى .. أليس كذلك ؟!

تجاهل الزعيم سؤاله تمامًا ، وهو يشير إلى الصورة الحمراء على الشاشة ، قائلا فى انفعال وحشى :

ـ ها هو ذا .

ثم ضغط عدة أزرار أخرى مضيفًا :

ـ والآن ، حان دورنا ؛ لنباغته نحن هذه المرة .

مع ضغطاته الجديدة ، انتقلت تلك الصورة الحرارية ، إلى خوذات جنوده ، فى الوادى الأزرق ، مع صوته الغليظ الشرس ، وهو يقول :

ـ تذكروا ما أخبرتكم به منذ البداية .. أريد الجواد سليمًا ، بأى ثمن .. هل تفهمون ؟! بأى ثمن .

سرى التوتر فى جسد قائد الأمن ، وهو يقول :

ـ أيها الزعيم .. هذا الأمر بالتحديد ، هو الذى ....

قاطعه الزعيم بزمجرة وحشية :

ـ اصمت .

ثم ضغط زر الاتصال برجاله مرة أخرى ، هاتفًا :

ـ الآن .

انعقد حاجبا قائد الأمن فى شدة ، عندما شاهد جنوده ، على شاشة الرصد ، وهم يتفرقون بسرعة ، وكأنهم يفرون من ساحة المعركة ، فهتف فى هلع :

ـ ما الذى يفعله هؤلاء التعساء ؟!

صرخ الزعيم ، وهو يطلق زمجرة وحشية أخرى :

ـ قلت اصمت .

أطاع قائد الأمن الأمر ، وابتلع لسانه فى صمت ، وترك وجهه يحتقن فى شدة ، وهو يشعر بخزى غاضب فى أعماقه ؛ لفرار رجاله من الساحة على هذا النحو ، و ...

وفجأة ! ظهرت تلك الحوامات ، على ارتفاع كبير ..

عشر حوامات ، صنعت بأجسامها المعدنية الضخمة دائرة هائلة وهمية ، تحيط بالوادى كله ..

وانحبست أنفاس قائد الأمن ، وهو يتساءل عن هذا التكنيك الجديد ، الذى تتبعه الحوامات ..

وقبل أن تستقر أفكاره ، انطلقت تلك الخيوط المعدنية من الحوامات العشرة ..

انطلقت بتكنيك جديد مدهش ، لتصنع مع تداخلها شبكة معدنية هائلة قوية ، التصقت ببعضها بقوة رهيبة ..

ثم هوت ..

ومن موقعه ، رأى فارسنا الشاب تلك الشبكة الهائلة تهوى فوقه ، وأدرك ما ستفعله ، فصاح مستحثًا جواده المجنح :

ـ انطلق يا صديقى .. انطلق .

وفرد الجواد جناحيه عن آخرهما ، بكل قوته ، ولكن الشبكة المعدنية القوية كانت هائلة ..

هائلة أكثر مما ينبغى ..

لذا ، فقد هوت فوق الفارس والجواد ..

وجذبتهما معًا إلى أرض الوادى ..

وكان هذا يعنى أن الفارس وجواده المجنح قد سقطا فى الفخ ..

فخ المتحورين ..

الرهيب .

* * *

٢ ـ قبضة العدو ..

بكل لهفة وحماس الدنيا ، قفز زعيم المتحورين من عرشه الضخم ، ولوَّح بقبضته فى الهواء ، صارخًا :

ـ لقد سقط أخيرًا .

كانت الشاشة تنقل مشهد الفارس الشاب ، وجواده المجنح ، وهما يسقطان على أرض الوادى الأزرق ، تحيط بهما تلك الشبكة المعدنية الهائلة ، على نحو يستحيل الإفلات منه ، بأى حال من الأحوال ..

وفى انبهار تام ، راح قائد الأمن يلهث انفعالاً ، وهو يهتف :

ـ أخيرًا أيها الزعيم .. أخيرًا .

ضغط الزعيم زر الاتصال برجاله ، فى حماس وحشى ، وهو يهتف :

ـ لا تقتربوا منه ، ولا تحاولوا الإمساك به ، مهما بدا هذا ممكنًا أو مغريًا .. أحيطوا به فحسب ، وأطلقوا عليه أسطوانات الغاز ، التى زودتكم بها .. ومن مسافة آمنة ..

ارتفع حاجبا قائد الأمن ، وهو يتمتم :

ـ أسطوانات غاز ؟! إنك لم ..

استدار إليه الزعيم ، بنظرة غاضبة وحشية ، فتوقفت الكلمات

فى حلقه ، وتراجع فى شىء من الذعر ، فعاد الزعيم ببصره وأفكاره إلى زر الاتصال ، وهو يهتف :

ـ أكرر .. لا تحاولوا الاحتكاك به مباشرة .. أبدًا .. هذا أمر ..

لم يلتقط الفارس الشاب هذه الأوامر ، التى تم بثها على موجة جديدة تمامًا ، ذات تردُّد خاص جدًا ، ولكنه كان يشعر بشىء من الذعر ، لم يشعر بمثله قط ، منذ طارده المتحورون فى صباه ؛ فلأول مرة ، يبدو له إنه قد سقط فى قبضة أعدائه ..

وفى أول مواجهة منفردة له ..

وكمحاولة يائسة ، راح يضرب تلك الشبكة المعدنية بذراعيه ، ويطلق على بعض أجزائها أشعته الليزرية ، فى حين راح جواده يضرب بقوائمه ، ويطلق صهيله الغاضب والمذعور ..

ولدقيقة أو يزيد ، لم يحاول أحد المتحورين الاقتراب منه قط ، بل اكتفوا بمراقبته ومتابعته ، من مسافة آمنة ، وفقًا لأوامر زعيمهم ..

وفى الوقت ذاته ، ومع هول الموقف ، وعلى الرغم من خسائرهم الفادحة ، تسلل بشر الوادى الأزرق إلى مداخل كهوفهم ، يطالعون فى يأس مرير ، سقوط فارسهم ، الذى كان يمثل لهم الأمل الوحيد ، بعد الله (سبحانه وتعالى) ، فى مواجهة وحوش المدينة الكبيرة ومقاومتهم ..

وبعد تلك الدقيقة ، وبعد أن أيقن المتحورون أنه لا فكاك للفارس ، من الشبكة المعدنية الرهيبة ، استعادوا شجاعتهم ، وحمل بعضهم أسطوانات الغاز ، التى زودهم بها الزعيم سرًّا ، وصوبوا فوهاتها نحو الفارس ، من مسافة آمنة ..

ثم أطلقوا الغاز ..

ودفعة واحدة ، فوجئ الفارس الشاب بغاز ثقيل ، نفاذ الرائحة ، يحيط به من كل جانب ..

وفى لحظة واحدة ، استعاد كل ما لقنه أياه معلمه وكأنما يحيا لحظاته الأخيرة ، والغاز ينتشر ..

وينتشر ..

وينتشر ..

ثم سقط الجواد أولاً ..

توقفت مقاومته دفعة واحدة ، وتراخى جسده تمامًا ..

وبعدها بثوان قليلة ، تبعه فارسه ..

وعلى الرغم من توقف حركتهما ، واصل المتحورون ضخ الغاز أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

حتى نفدت الأسطوانات تمامًا ..

وعندئذ .. وعندئذ فقط ، توقفوا مضطرين ، وإن ظلوا بعيدين عن الفارس والجواد ، حتى غمغم الزعيم فى مقره بعصبية :

ـ ماذا ينتظرون ؟!

تمتم قائد أمنه :

ـ إنهم يخشونه .. ما زالوا يخشونه !

التفت إليه الزعيم فى غضب ، والتهبت عيناه على نحو مخيف ، جعل الرجل يستدرك فى خوف :

ـ هذا ما يبدو لى .

وبكل الغضب والثورة ، عاد الزعيم يضغط زر الاتصال ، صارخًا :

ـ ماذا تنتظرون ؟!

صرخته انتزعتهم من ذعرهم وجمودهم ، فاندفعوا يتعاونون لرفع تلك الشبكة الهائلة السميكة ، والزعيم يتابعهم بمنتهى اللهفة ، وهو يتمتم فى انفعال ، لم يعهده فيه قائد أمنه قط :

ـ هيا .. هيا ..

كان يتابع حركتهم بمنتهى الدقة والاهتمام ، حتى أزاحوا الشبكة المعدنية عن جسدى الفارس وجواده تمامًا ، فغمغم قائد أمنه فى حماس :

ـ ها هو ذا فى قبضتنا .. أخيرًا .

لم تكد عبارته تكتمل ، حتى انتفض الفارس الشاب فجأة ، وهو يهتف :

ـ مفاجأة .. أليس كذلك ؟!

ومع انتفاضته ، بدا وكأن المشهد كله قد انتفض ..

بل المشاهد كلها ..

جنود المتحورين ..

وبشر الوادى الأزرق ..

وقائد الأمن ..

وحتى الزعيم نفسه ..

الكل انتفض ، من فرط المفاجأة ، واتسعت عيونهم عن آخرها ، فيما عدا زعيم المتحورين ، الذى انعقد حاجباه فى غضب هادر ، وهو يطلق زمجرة وحشية رهيبة ..

ومع زمجرته ، هب الجواد أيضًا ، واقفًا على قوائمه ، فى نشاط عجيب ..

وقبل حتى أن يكتمل نهوضه ، كان الفارس الشاب يثب على متنه ..

وكانت أجنحته تنفرد بأقصى اتساعها ..

وفى لحظة واحدة ، كان يحلق فى السماء ، أمام العيون الذاهلة والمذعورة ..

وبكل ذهول وغضب الدنيا ، هتف قائد الأمن :

ـ مستحيل ! لقد خدعنا جميعًا .. مستحيل !

كتم زعيمه غضبه فى صعوبة ، وهو يقول فى وحشية :

ـ لست أدرى كيف فعلها ، ولكن هذه ليست نهاية المطاف .

وقسا صوته على نحو رهيب ، وهو يضيف :

ـ ما زالت هناك خطة احتياطية .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان الفارس الشاب ينطلق على متن جواده المجنح ، فى سماء الوادى الأزرق ، وذهنه يستعيد هذا الموقف الرهيب كله ..

مصفاة الغاز الأنيقة الصغيرة ، المعدّلة إليكترونيًّا ، وعبقرية الجواد

المجنح ، وتدريبه المتقن ، كلها ساعدت على تجاوز الأزمة ..

ففور شعوره بالغاز ، أخرج من حزامه مصفاتين غازيتين إلكترونيتين دقيقتين ، تم ابتكارهما وتطويرهما ، خلال الحرب النووية الشاملة ، ودسها فى فتحتى أنفه بسرعة(*) ..

كانت مهمتهما استخلاص الأكسجين وثانى أكسيد الكربون فقط ، من أية غازات يستنشقها ، ولفترة طويلة من الزمن ..

ومن الواضح أنهما قد قاما بعملهما خير قيام ..

أما الجواد ، فقد درَّبه معلمه ، مستغلاً الجزء البشرى منه ، على كتمان أنفاسه لفترات طويلة جدًا ، عند شعوره بوجود غاز غريب من حوله ، كما أن جيناته المطوَّرة تساعده على تحديد أية غازات غير طبيعية فى الهواء ، حتى ولو بلغت نسبتها واحد إلى كل عشرة آلاف ..

العبقرية جاءت فى افتعال حالة الغيبوبة ، التى أقنعت جنود المتحورين برفع تلك الشبكة الثقيلة عنها ، والتى كان من المستحيل أن ينجحا فى رفعها وحدهما ، من موقعهما فيها ..

ولقد استوعب عندئذ الموقف كله ..

فالأمر هو خدعة كبيرة منذ البداية ..

(*) الاختراع حقيقى وموجود بالفعل ، منذ أواخر القرن العشرين ولكن لم يتم تطويره إلى هذا الحد بعد .

خدعة وحشية ، تعتمد على افتعال إبادة بشر الوادى الأزرق ، بكل هذا العنف وكل هذه القسوة ؛ لجذبه إلى ساحة القتال ، وإيقاعه فى هذا الفخ الرهيب ..

السؤال الآن هو ما الذى سيفعله هؤلاء المتوحشون ، بعد أن فشلت خطتهم ؟!

هل سيواصلون عملية الإبادة الوحشية ، أم يكتفون بمطاردته ، باعتباره الهدف الرئيسى والأساسى للعملية كلها ؟!

وثب السؤال إلى ذهنه ، وهو يرتفع بجواده المجنح ..

ويرتفع ..

ويرتفع ..

ولكن الحوامات العشر بقيت ثابتة فى مكانها ، تصنع تلك الدائرة الوهمية الواسعة ، التى تحيط بالوادى كله ..

وبكل التحفز ، استعد الفارس الشاب لمواجهة أية شبكة أخرى ، قد تطلقها الحوامات ، على غرار الشبكة الأولى ..

وفى ذهنه ، رسم المسار الجديد لانطلاقته ؛ حتى يمكنه أن يتجاوز سقوط أية شبكة أخرى ، و ....

ولكن الحوامات العشر أطلقت مفاجأتها الأخيرة بغتة ..

وكانت مفاجأة قوية بحق ..

ومختلفة تمامًا ..

ففى لحظة واحدة ، وبتوجيه إليكترونى رقمى دقيق ، أطلقت كلها شحنة كهربية محدودة ، نحو الفارس والجواد ..

وبسرعة انتقال الشحنة الكهربية فى الهواء ، شعر الفارس وجواده المجنح بالصدمة ..

صدمة مباغتة وبالغة العنف ، ارتج لها جسداهما فى قوة ، وتجمدت بها أطرافهما ، على نحو استحال معه أن يخفق الجناحان الكبيران ..

لذا فقد هويا ..

هوى الفارس الشاب ، والجواد المجنح ، كحجرين صلبين ، من ارتفاع كبير ، نحو وسادة هائلة ، فردها جنود المتحورين ، فى قلب الوادى الأزرق ، تنفيذًا للخطة الاحتياطية ، التى أمر بها الزعيم الوحشى ..

هويا فى قبضة عدو لا يرحم ..

أبدًا .

* * *

هبط الضباب فى الوادى الأزرق كله ، وبدا أكثف كثيرًا من المعتاد ، وهو ينتشر ..

وينتشر ..

وينتشر ..

وفى توتر شديد ، تلفَّت الفارس الشاب حوله ، وقد انعدمت الرؤية تمامًا ..

فلأول مرة يضل طريقه ..

لم يعد يعرف إلى أين يذهب ..

كل شىء بدا مختلفًا ..

متغيرًا ..

عجيبًا ..

حتى الشمس ، اختفت خلف ذلك الضباب الكثيف ..

الوادى فقد معالمه ..

المكمن لم يعد فى مكانه ..

كل شىء اختلف ..

اختلف كثيرًا ..

وعلى متن جواده النبيل ، تحركَ الشاب بحثًا عن أى مكان يمكنه أن يحتمى فيه ، عندما يبدأ الهجوم ..

ومن بعيد ، تصاعدت أصوات آلات القتال الضخمة ، التى خرجت من المدينة الكبيرة ، متجهة نحو الوادى مباشرة ..

المتحورون بدءوا القتال ..

وانطلقوا ..

وستبدأ المعركة حتمًا ..

وهو لم يستعد ..

لم يستعد بعد ..

وبسرعة تتجاوز حدود المنطق والعقل ، راحت الأصوات المخيفة تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

وتضاعف توتر الشاب أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وكان عليه أن يواجه الموقف الرهيب ..

إنه يقف وحده ، فى الوادى الأزرق كله ..

الضباب يحيط به من كل جانب ..

والمتحورون قادمون ..

بكل قوتهم ..

وشراستهم ..

ووحشيتهم ..

ولأن القتال أصبح محتومًا ، امتدت يده ، لتلتقط بندقيته الإشعاعية ، من ذلك الغمد الدائم ، فى سرج جواده ولكن الغمد كان خاليًا ..

ويا لها من مفاجأة !

إنه أعزل أيضًا ..

أعزل فى مواجهة آليات قتالية رهيبة ..

أعزل تمامًا ..

وبكل توتره وقلقه وخوفه ، لكز جواده القوى ، ليستحثه على فرد جناحيه ، والانطلاق بعيدًا عن الوادى كله ..

ولكن الجواد لم يستجب ..

جناحاه لم يبرزا ..

بل ولم يكن لموضعهما أثر ..

واتسعت عينا الشاب فى ارتياع ..

فالآليات صارت قيد خطوات ..

ولا سبيل للقتال ..

أو حتى الفرار ..

أو ...

« استيقظ .. »

انتزعته الكلمة ، التى نطقها أحدهم ، بصوت خشن جاف ، فى ذلك الكابوس الرهيب ، الذى سيطر على كيانه كله ، ففتح عينيه فى بطء ، وشعر بصداع رهيب يكتنف رأسه ، وبضباب كثيف ينقشع عن مخه ، قبل أن ينتبه فجأة إلى إنه يفيق من غيبوبة عميقة ..

غيبوبة لم يسقط فى مثلها من قبل قط ..

وبسرعة ، أدرك موقفه ..

كان حبيسًا فى زنزانة رطبة صغيرة ، تشبه زنازين القرون الوسطى ، كما وصفها له أستاذه الفارس العظيم ..

وكان ذراعاه مقيدين إلى جدارها ، بأغلال معدنية سميكة ..

وأمامه مباشرة ، كان يقف أحد المتحورين ، يرمقه بنظرة عجيبة ، تجمع بين الظفر والوحشية والغضب ..

نظرة جعلته يدرك مصيره المحتوم ، وخاصة عندما قال ذلك المتحوّر ، فى صوت غليظ ولهجة قاسية :

ـ أخيرًا وقعت فى قبضتنا .

استعاد ذهنه فى تلك اللحظة ، تعاليم أستاذه ..

« لا تضعف أبدًا أمام عدوك .. »

« الشجاعة تمنحك قوة ، فى لحظات الضعف ، والخوف يهزمك بضعف ، فى لحظات القوة .. »

« ما دام الموت آت لا ريب ، فلتمت مرفوع الرأس .. »

استعاد كل العبارات فى ثانية واحدة ، فرفع رأسه فى اعتداد ، فى مواجهة ذلك المتحوّر ، وقال فى صلابة :

ـ مؤقتًا .

احتقن وجه ذلك المتحوّر ، وانطلقت من حلقه صرخة غضب ، بدت أشبه بمزيج غريب ، من خوار الثور وفحيح الأفعى ، قبل أن يقول فى شراسة :

ـ يا لك من متحذلق .. إنها ليست لعبة أيها الدمية .. لقد دخلت وكر الأفاعى ، ولا أحد يخرج منه حيًا أبدًا .

أجابه الشاب فى سرعة ، ودون أن يفقد ثباته :

ـ ولكنكم تبقون على حياتى فيه .. أليس كذلك ؟!

فى هذه المرة ، انطلق من حلق المتحوّر فحيح شرس ، برز معه لسانه الطويل ، المشقوق من طرفه ، والشبيه بألسنة الثعابين ، ووثب نحو وجه الشاب ، الذى مال برأسه كله جانبًا ، متفاديًا إياه ، قبل أن يرتدّ إلى حلق المتحوّر ، الذى قال :

ـ لولا أن الزعيم أمرنا بالإبقاء عليك ، لمزقت أوصالك ، والتهمت كبدك على الإفطار .

الزعيم أمر بهذا !!

الزعيم يريده على قيد الحياة !

هذا ما استوعبه من العبارة كلها ..

أو ما يهمه استيعابه ..

والسؤال هو لماذا ؟!

لماذا يريده الزعيم على قيد الحياة ، بعدما وقع فى قبضته ؟!

لمــاذا ؟!

لمــاذا ؟!

تطلّع إلى عينى ذلك المتحوّر مباشرة ، ولاحظ أنها تختلف إلى حد ما عن عيون البشر العاديين ، وأنها تبدو أشبه بعيون الثعابين ، إذا ما نظرت إليها عن قرب ، مما يتفق مع اللسان المشقوق ، والبشرة الشاحبة المبرقشة ..

التحورات الجينية ، التى صنعتها به الإشعاعات النووية ، والتلوثات البيولوجية ، جعلت جيناته إذن أقرب إلى الثعابين ، منها إلى بنى البشر ..

أستاذه كان على حق إذن ..

هؤلاء القوم اشبه بالحيوانات والوحوش ..

ليس فى تصرفاتهم وحدها ، ولكن فى تركيباتهم وتكويناتها أيضًا ..

« فيم تفكر ؟! »

قاطعه المتحوّر فى شراسة وحشية ، قبل أن يتابع :

ـ تفكيرك هذا لاطائل من ورائه ، فلا توجد وسيلة واحدة للفرار من هنا .. ستبقى حتى يقتلك الجوع والعطش ، وحتى ترى بعينيك ، ما سنفعله بجوادك العجيب .

لم يكد يأتى على ذكر الجواد ، حتى تحفزّت كل خلية فى جسد الشاب ، وانتبهت كل حواسه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لو مسستم شعرة واحدة من الجواد ، فسوف ....

قاطعه المتحوّر بضحكة ساخرة وحشية ، قبل أن يقول :

ـ لو ماذا ؟! تتحدث كما لو أننا نحن المقيدون إلى الجدار يا هذا ؟! إننا نسيطر على الموقف تمامًا ، وسنفعل كل مايحلو للزعيم بجوادك .. سنمزقه إربًا ، إذا ما اقتضى الأمر ، ولن يمكنك أن توقفنا لحظة واحدة ..

انعقد حاجبا الشاب فى غضب هادر ، دون أن يتفوّه بحرف واحد ، فابتسم المتحوّر فى سخرية شامتة ، وكأنما راق له هذا ، ومال نحوه ، مضيفًا :

ـ الزعيم يريد أن يعرف كل شىء عنه ، حتى لو اقتضى الأمر تشريحه ، لفحص كل جزء منه .

قال الشاب ، وهو يدفع أكبر قدر من السخرية إلى كلماته :

ـ خلية واحدة منه ، يمكنها أن تمنحكم كل ماتريدون من معلومات .. هذا لو أنكم متفوقون بحق .

بدا الغضب على وجه المتحوّر ، وهو يقول :

ـ ألا تعترف بتفوقنا ، بعد كل ما فعلناه بك ؟!

مطّ الشاب شفتيه ، وقال فى لا مبالاة :

ـ إننى ما زلت على قيد الحياة ، والمعركة لم تنته بعد .

لم يكد يتم عبارته ، حتى اشتعلت عينا المتحورّ الثعبانيتان بلهيب الغضب ، وقال :

ـ وإلى متى ستظل على قيد الحياة أيها المتحذلق ؟!

أجابه الشاب فى صلابة :

ـ لا أحد يمكنه أن يجيب هذا السؤال .

صرخ المتحورّ :

ـ خطأ .

ثم انتزع من حزامه صاعقًا كهربيًا ، وهو يضيف :

ـ أنا أستطيع إجابة السؤال .

انعقد حاجبا الشاب ، وضغط أسنانه فى قوة ، والمتحورّ يتجه نحوه بصاعقه الكهربى ، متابعًا بكل وحشية الدنيا :

ـ فستنتهى إجابة السؤال .

قالها ، ودفع صاعقه الكهربى نحو عنق الفارس الشاب ..

وانطلقت صرخة فى الزنزانة الرطبة الصغيرة ..

صرخة رهيبة ..

جـدًا .

* * *

تألّقت عينا زعيم المتحورين ، فى ظفر وحشى مخيف ، وهو يتطلع إلى ذلك الجواد الأصيل ، الذى احتوى جناحيه فى شقين خفيين فى جانبيه ، ووقف يضرب الأرض بحافريه فى توتّر شديد ..

كان يبدو غاضبًا ، من وقوعه فى الأسر ، كما لو أنه يدرك تمامًا مايحدث من حوله ، ويرفض وجوده فى ذلك المكان ..

وبكل ظفره ، قال الزعيم :

ـ أخيرًا .

حاول قائد أمنه أن يبتسم ، وهو يقول :

ـ هذا ما كنت تحلم به أيها الزعيم .

أشار الزعيم بيده ، وهو يقول فى شراسة ، لم يكن لها مايبررّها :

ـ هذا جزء مما كنت أحلم به .

وتألّقت عيناه مرة أخرى ، وهو يضيف :

ـ فلابد وأن يخضع لى هذا الجواد أولاً .

بدأ القلق يتسلّل إلى قلب قائد الأمن ، وهو يقول فى حذر :

ـ هذا أمر يحسمه الخبراء أيها الزعيم .

هزّ الزعيم رأسه ـ نفيًا ـ فى بطء ، وهو يقول :

ـ كلا .. هذا أمر أحسمه أنا .

سقط قلب قائد الأمن بين قدميه ، وتصور أن اللحظة التالية ستحمل غضب الزعيم وثورته ، إلا أنه فوجئ به يعقد كفيه خلف ظهره ، ويقول فى اهتمام ، وهو يبتعد عن قفص الجواد :

ـ لقد طلبت إعداد قاعة خاصة ، منذ بعض الوقت ، ومن قبل حتى أن توقع بالفارس وجواده .. قاعة يمكننى بواسطتها إخضاع ذلك الحيوان المدهش .

تساءل قائد الأمن ، فى لهفة حقيقية :

ـ وكيف هذا ؟

ابتسم الزعيم فى غموض ، وهو يقول :

ـ سترى بنفسك .

وتألّقت عيناه ، وهو يضيف :

ـ ويمكنك اعتباره درسًا عمليًا ، فى كيفية السيطرة والتوجيه .

سرى الخوف والقلق مرة أخرى ، فى جسد قائد الأمن ، ولكنه حاول أن يخفى هذا فى أعمق أعماقه ، وهو يغمغم :

ـ بالطبع أيها الزعيم .. بالطبع .

أدار الزعيم عينيه الوحشيتين إليه ، وكأنما استشف من لهجته

ما يدور فى أعماقه ، وابتسم ابتسامة مخيفة ، انتفض لها جسد قائد الأمن ، قبل أن يقول بلهجة آمرة :

ـ سأنتظر الجواد فى القاعة الخاصة .. وعندئذ سترى .

وخفق قلب قائد الأمن ، وهو يغمغم مكررًا :

ـ بالطبع أيها الزعيم .

وفى أعمق أعماقه ، دار تساؤل ، لم يجرؤ على الإفصاح عنه قط ..

تُرى هل يمكن بالفعل إخضاع ذلك الجواد المدهش ؟!

هل ؟!

* * *

لم تكن هناك وسيلة منطقية واحدة ، لمنع ذلك المتحوّر الوحشى ، من القضاء على الفارس الشاب ، فى تلك الزنزانة الرطبة الصغيرة ، فى قاعة مقر الزعامة ، فى قلب المدينة الكبيرة ..

فالشاب كان مقيدًا إلى الجدار ، بأغلال معدنية قوية ، والمتحوّر كان حرًّا ، غاضبًا ، ثائرًا ، يحمل فى يده صاعقًا كهربيًا قاتلاً ، ينقض به على عنقه ..

كل ما كان يحتاجه الأمر هو لحظة واحدة ، يضرب بها الصاعق عنق الشاب ، ويطلق فى رأسه وجسده تيارًا كهربيًا عنيفًا ، و ...

وينتهى كل شىء ..

ولكن فجأة ، وبينما ينقض المتحوِّر الوحشى بصاعقه ، انفرجت شفتا الشاب ، وبرز من بينهما سلاح ليزرى دقيق ، كان يخفيه فى ذلك الفراغ ، بين اللثة والأسنان ..

وبضغطة من أسنانه ، أطلق السلاح طلقة ليزرية ..

طلقة أصابت ذلك المتحوِّر ، بين عينيه تمامًا ..

وبكل ألم وذعر الدنيا ، صرخ المتحوِّر ، وهو يتراجع فى عنف ، والصاعق الكهربى يسقط من يده ..

ودون أن يضيع لحظة واحدة ، أدار الشاب رأسه جانبًا ، ورفع وجهه ، ليصوِّب سلاحه الليزرى الدقيق إلى الأغلال ، التى تربط معصمه الأيسر إلى الجدار ..

ومرة أخرى ، ضغطه بأسنانه ..

وبينما يترنح المتحوِّر ، محاولاً استعادة توازنه ، كان الفارس الشاب يتحرَّر من أغلاله ، ويستعد لمواجهته ..

وبكل غضب وألم الدنيا ، انحنى المتحوِّر ، محاولاً استعادة صاعقة الكهربى ، وهو يصرخ :

ـ لن تفلت بهذا أبدًا ، أيها الـ ....

قبل أن يتم عبارته ، وثب الفارس الشاب فى رشاقة ، وركله فى فكه ، ثم فى أنفه ..

وارتدَّ المتحوِّر فى عنف ، مرتطمًا بالجدار ، وسالت دماء أرجوانية اللون من أنفه ، إلا أنه وثب مستعيدًا توازنه فى سرعة ، وهو يزمجر ، قائلاً فى غضب :

ـ تريد القتال إذن .

لم يكد يتم عبارته ، حتى اكتست عيناه بلون الدم ، واستطالت حدقتاهما ، وبدتا كعيون الثعابين بالفعل ، وبرزت فى وجهه حراشيف مخيفة ، تجمع بين اللونين ، الأسود والبنى ، ثم فتح فكه ، فبرزت داخله أنياب رهيبة ، وهو يطلق فحيحًا مخيفًا ، ولسانه المشقوق يتراقص ويمتد بينهما ..

وتحفَّزت حواس الفارس الشاب ، وهو يتراجع فى حذر ، متطلعًا إلى خصمه الرهيب ، داخل الزنزانة المغلقة ..

كان يستعيد كل ما تعلَّمه ..

وكل ما لقنه إياه أستاذه ..

والعجيب أنه ، فى اللحظة نفسها ، كان جنود الزعيم ينقلون الجواد ، إلى تلك القاعة الخاصة ، إلا أنه تحفَّز فجأة فى توتر ، ثم أطلق صهيلاً عصبيًا طويلاً ، كما لو أنه شعر بما يدور تحته مباشرة ..

ففى الثانية ذاتها ، وثب المتحوّر الثعبانى نحو الفارس ، بكل غضبه وقوته ..

كانت وثبة قوية مركزة ، بأنياب حادة طويلة ، وحشية ..

ولكن الشاب تحرّك بسرعة مدهشة ..

تحرّك ، وهو يخرج ذلك السلاح الليزرى الدقيق من بين أسنانه ، ويصوّبه إلى خصمه ..

ثم يطلقه ..

وأصابت الأشعة الدقيقة المركّزة عنق المتحوّر ..

واخترقته ..

ولكنها لم تقتله ..

وبكل غضب ووحشية الدنيا ، استدار إليه المتحوّر ..

وفى هذه المرة ، بدا فحيحه أشبه بفحيح ألف أفعى ..

بل ألف ألف أفعى ..

وأطلق الشاب أشعة سلاحه الدقيق مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ثم ارتطم به ذلك المتحوّر ..

وأسقطه ..

وسقط فوقه ..

وبرزت أنيابه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وبدا فحيحه ، من هذه المسافة القصيرة أعنف ..

وأخطـر ..

وأشرس ..

ولكن عبارة أخرى وثبت إلى رأس الشاب ، من تعاليم أستاذه ..

« القتل أمر بغيض ، إلا للدفاع الحتمى عن النفس .. »

لذا ، ودون إضاعة جزء من الثانية ، ضغط الشاب سلاحه الدقيق مرة رابعة ..

وأخيرة ..

كان خصمه الوحشى يفتح فكيه عن آخرهما ، ويهم بغرز أنيابه السامة فى عنقه ، عندما انطلقت أشعته ، لتخترق حلقه مباشرة ..

وعلى الرغم من دقة خيط الأشعة ، انتفض جسد المتحور وارتد بعنف شديد ، ليسقط فى نهاية الزنزانة الضيقة .

واتسعت عيناه عن آخرهما ، وفيض من الدماء الأرجوانية يسيل من بين شفتيه ، فى غزارة مخيفة ..

ولثوان ، ظلّ الشاب ساكنًا ، يتطلّع إلى جثة المتحوّر ، وشعور عجيب يسرى فى أعماقه ، ويجثم على صدره بقوة ..

لقد كان أستاذه على حق تمامًا ..

لقد قتل دفاعًا عن نفسه وحياته ..

ولكن الأمر كله بغيض ..

بغيض إلى أقصى حد ..

فمهما سمع وتعلم ، لا يمكنه أن يدرك هذا الشعور ، الذى يملأ كيانه ، فى هذه اللحظة ..

فانتزاع الروح ، من جسد كائن آخر ، أمر رهيب ..

رهيب إلى أقصى حد ..

ولكن المعركة لم تنته بعد ..

بل بدأت ..

وفى حسم ، نهض الفارس الشاب ، محاولاً نسيان ما حدث ، وهو يلتفت إلى باب زنزانته الضيقة ..

كان يتوقّع أن يجده مفتوحًا ، ما داموا قيدوه إلى الجدار بإحكام ، إلا أنه فوجئ به مغلقًا ، برتاج إليكترونى قوى ، لا يتناسب قط مع شكل الزنزانة ورطوبتها ..

وبكل ما درسه وتعلّمه ، وتدرب عليه طويلاً ، فحص الشاب رتاج الزنزانة ، وحدّد نقطة ضعفه ، ثم صوّب إليها سلاحه الليزرى الدقيق ، وهو يتساءل فى قلق ..

تُرى هل تبقت فيه طاقة كافية ، لنسف نقطة الضعف ، وفتح باب الزنزانة السميك ..

لم تكن هناك سوى وسيلة واحدة لمعرفة هذا ، مع صغر السلاح ودقّته ؛ لذا فقد ضغطه بكل قوته ..

وانطلق خيط الأشعة الليزرية الدقيق ..

وأصاب الرتاج ..

ثم خبا فجأة ..

وانعقد حاجبا الفارس الشاب بشدة ..

لقد نفدت طاقة السلاح ، ولم تعد هناك وسيلة للخروج من الزنزانة الرطبة الضيقة ..

أية وسيلة ..

* * *

٣ـ الأسـيـر..

على عكس ما توقَّعه زعيم المتحورين، وقف الجواد الأبيض الأصيل صامتًا ساكنًا، فوق تلك الحافة الصغيرة، داخل القاعة الخاصة، متطلعًا إلى السماء والجبال أمامه، دون أن يتحرك من مكانه خطوة واحدة..

وفى توتر ملحوظ، غمغم الزعيم، وهو يراقب المشهد، من حجرة جانبية، على شاشات رصد متعددة:

ـ لماذا يقف ساكنًا هكذا ؟! السماء أمامه كبيرة فسيحة، فلماذا لا يحلق هاربًا ؟!

أراد قائد أمنه أن يجيب تساؤله، إلا أنه لم يجد جوابًا واضحًا، فتمتم فى خفوت، وكأنما يخشى الإفصاح عن رأيه:

ـ الجواد ذكى.

زمجر الزعيم زمجرة شرسة، ارتجف لها جسد قائد الأمن، قبل أن يقول فى غلظة عصبية:

ـ مهما بلغ ذكاؤه، ينبغى أن نتفوق عليه.

وصمت لحظة، ثم أضاف فى حدة:

ـ إنه مجرد جواد.

فى هذه المرة، آثر قائد أمنه الصمت، وانكمش فى موقعه، دون أن ينبس ببنت شفة، فى حين ضغط الزعيم زر الاتصال بحجرة التحكم، وهو يقول بلهجة آمرة، صارمة، وحشية:

ـ فلننتقل إلى الخطة (ب).

لم يكد يلقى أوامره، حتى اشتعلت النيران فجأة، خلف الجواد مباشرة..

وهنا فقط، أطلق الجواد صهيلاً قويًا، بدا غاضبًا، أكثر منه مذعورًا، وتراجع نحو الحافة..

ولكن النيران تقدمت نحوه أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

ولم تعد الحافة تكفى لتراجعه..

وبكل انفعاله، ضم الزعيم قبضته، وهو يقول:

ـ هيا.. افرد جناحيك وانطلق.. هيا.

خُيِّل إليه أن الجواد قد سمع عبارته، عندما رآه يرفع عينيه إلى الشاشة، ثم يطلق صهيلاً عصبيًا..

وبانفعال أكثر، صرخ الزعيم:

ـ هيـا..

قبل حتى أن تكتمل صرخته، فرد الجواد جناحيه الكبيرين..

وانطلق..

لحظتها ، خيِّل لقائد الأمن أن الزعيم قد لهث ، من فرط الانفعال ، وأن عينيه قد أضاءتا بشدة ، وهو يتابع المشهد المهيب على شاشته ..

أما الجواد نفسه ، فقد بدا أشبه بأسطورة حية ، وهو يضرب الهواء بجناحيه القويين ، مبتعدًا عن الحافة ، ومنطلقًا نحو ما بدا أشبه بالسماء والجبال ..

وتألَّقت عينا زعيم المتحورين ..

وتألَّقت ..

وتألَّقت ..

ولكن فجأة ، دار الجواد القوى حول نفسه ، وضرب الهواء مرة أخرى بجناحيه ، كما لو أنه يتفادى الاصطدام بشىء ما ..

وبكل دهشته ، هتف قائد الأمن :

ـ لقد أدرك الخدعة .

انعقد حاجبا الزعيم بمنتهى الشدة ، وهو يغمغم :

ـ مستحيل !

فالمساحة التى يحلق فيها الجواد المجنح ، لم تكن سماءً مفتوحة ، كما يوحى مظهرها للعين المجرَّدة ، وإنما كانت قاعة هائلة واسعة ، لها قبة رقمية كبيرة ، تعكس صورة هولوجرامية شديدة الإتقان ، للسماء والنجوم ، على نحو يجعلها أشبه بالواقع الحى ..

وبكل المقاييس ، كانت تلك القاعة الرقمية قادرة ، على خداع عينى أشد الرجال إبصارًا ..

ولكن العجيب أنها لم تخدع ذلك الجواد ..

لم تخدعه أبدًا ..

ولأن هذا يتجاوز أى منطق علمى سليم ، فقد كرَّر الزعيم ، وهو ينهض من عرشه الضخم الفخم :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن يكون قد أدرك هذا .

غمغم قائد أمنه ، فى توتر بالغ :

ـ ولكنه فعلها .

استدار إليه الزعيم صارخًا :

ـ مستحيل !

ثم ضغط زر الاتصالات ، بكل غضبه وثورته ، قائلاً :

ـ أوقفوه .

مع أوامره ، انطلق سهم مخدر قوى ، من فجوة خفية ، فى أرضية القاعة ، التى لم تحو حافة حقيقية ، نحو الجواد مباشرة ..

وبمناورة مذهلة ، تفادى الجواد ذلك السهم ، الذى استهدف عنقه ، ومال جانبًا ، وارتفع جناحاه القويان ، و ...

وانغرس السهم المخدر ، فى جناحه الأيسر ..

ألم محدود سرى فى الجناح ..

وخدر شديد سرى ، فى الجسد كله ..

ولأوّل مرة ، منذ مولده ، شعر الجواد القوى أنه ليس باستطاعته الخفقان بجناحيه ..

ولأوّل مرة ، ذاق طعم الخدر ..

والدوار ..

والضعف ..

جناحاه تخاذلا ..

وتباطأ ..

وتهاويا ..

ولأن الحافة الوهمية ما زالت مشتعلة ، بدا له أنه لا يوجد مهبط واضح ، سوى تلك الفجوة الرهيبة ، التى تطل عليها الحافة ..

ولأنه ليس أمامه بديل آخر ، هبط الجواد نحو تلك الفجوة المخادعة ..

وهبط ..

وهبط ..

وقبل أن يكمل هبوطه ، كما بدا لعينيه ، ارتطم فجأة بأرضية القاعة الرقمية ..

ثم هوى ..

هوى فاقد الوعى والشعور ، وتراجع جناحاه الكبيران ، نحو الشقين الخفيين فى جانبيه ..

ولكنهما لم يختفيا حتى آخرهما ..

فقد غاب وعيه ..

تمامًا ..

ولثوان ، ران صمت رهيب ، حيث يجلس زعيم المتحورين ، الذى قطع ذلك الصمت ، قائلاً :

- لن يمكننا ترويضه بهذه الوسيلة .

لاذ قائد أمنه بالصمت التام ، خشية أن يستفزه فى هذا الموقف ، واكتفى بالتطلّع إليه ، عندما تراجع فى بطء ، وعقد حاجبيه فى شدة ، قبل أن يكمل ، فى صرامة وحشية :

- سنلجأ إذن إلى المحاولة الأخيرة .. المحاولة التى إما أن تنجح فى ترويضه وإخضاعه ، أو يكون فيها مصرعه .. نهائيًا ..

وأيضًا لم ينطق قائد أمنه بكلمة ..

أية كلمة ..

* * *

لقد جردوه من كل أسلحته ..

هذا ما جال بخاطر الفارس الشاب ، وهو يقف داخل تلك الزنزانة الضيقة ، بعد أن عجز سلاحه عن إخضاع رتاجها الإلكترونى ، وإخراجه منها ..

كان يدرك أن سلاحه الليزرى الاحتياطى ، قد أدى كل ما يمكنه ، ولكن هذا يعنى أنه لم تعد لديه وسيلة متطوّرة واحدة ، للخروج من زنزانته هذه ..

اللهم إلا إذا ..

انتبه بغتة إلى أن خصمه المتحوّر أيضًا ، كان داخل الزنزانة ..

وهذا يعنى أن لديه وسيلة للدخول ..

وللخروج ..

وبسرعة ، راح يفتش ثياب المتحوّر الصريع ؛ بحثًا عن وسيلة سيطرة ، على الرتاج الإلكترونى ..

أية وسيلة ..

ولكن ، باستثناء أسلحته ، لم يكن المتحوّر يحمل شيئًا !!

وهذا بدوره يعنى أنه كان يعتمد على نظام آخر للخروج ..

نظام ، ربما يتناسب تمامًا ، مع طبيعة الزنزانة ورطوبتها ..

نظام بدائى ..

للغاية ..

لذا ، فقد عاد الفارس الشاب إلى الباب ، ودقه بقبضته فى قوة ، ثم كمن ينتظر ..

ولثوان ، لم يشعر بأية استجابة ، ثم لم يلبث أن سمع وقع أقدام ثقيلة تقترب ، فالتصق بالجدار البعيد عن الرؤية ، حتى فتح بعضهم تلك الكوة الصغيرة ، أعلى باب الزنزانة ، وهو يقول ، بصوت أجش غليظ :

- هل أنهيت مهمتك ؟!

استعاد الشاب تلك الدروس والتدريبات المكثفة ، التى تلقاها من أستاذه ، حول لهجة المتحورين ولغتهم ، وأسلوب تقليد الأصوات ، وقال بخشونة شبيهة بخصمه الصريع :

- أجل .

لم يكد يتم قوله ، حتى صدر أزيز خافت ، ثم انفتح باب الزنزانة ، مع ذلك الصوت الغليظ ، وهو يقول :

- اخرج بسرعة إذن ؛ فلم أكمل طعامى بعد ، و ....

كان ذلك المتحوّر الآخر يدلف إلى الزنزانة ، وهو ينطق عبارته ،

إلا أنه لم يلبث أن بترها دفعة واحدة ، وهو يحدّق فى زميله الصريع ، قبل أن يسحب سلاحه الليزرى فى سرعة ، هاتفًا :

ـ اللعنـــة .

ومع هتافه ، انقض عليه الشاب ..

انقضّ بكل قوته ، وفتوته ، و .....

وبقوة تفوق أى تصور ، دفعه ذلك المتحورّ بعيدًا ، ليضرب جسده فى الجدار الرطب بمنتهى العنف ، قبل أن يسقط أرضًا ..

وعندما اعتدل الفارس الشاب فى سرعة ، محاولاً استعادة توازنه ، فوجئ بفوهة سلاح ليزرى ، مصوّبة إلى وجهه مباشرة ، وبصوت غليظ غاضب ، يصرخ فيه :

ـ إنك تستحق القتل ، لفعلتك هذه ..

ثم انطلقت الأشعة القاتلة ..

نحوه مباشرة .

★ ★ ★

فجـأة ، انتفض الجـواد القـوى ، داخـل القفص الضيق ، الـذى وضعوه فيه ، ثم هبّ واقفًا ، وأطلق صهيلاً عصبيًا ..

كان يستعيد وعيه ، بعد فترة قصيرة من غيبوبة عميقة ، تسبب

فيها ذلك العقار ، الذى يحويه السهم المخدر ، الذى أصاب جناحه ..

وعلى الرغم من أن الجرعة ، التى يحويها ذلك السهم ، كانت كافية لقتل رجـل بالغ قوى ، إلا أنها أفقدته الوعى لعشر دقائق فحسـب ، كانت كافية لنقله إلى ذلك القفص ، وتوصيل عنقه وجبهته وأطرافـه ، بتلك الأسلاك الإلكترونية الدقيقة ..

وفى عصبية ، نفض الجواد رأسه ، وحاول أن يحرر أطرافه ، إلا أن زعيم المتحورين ، الذى يجلس لمراقبته ، أمام القفص مباشرة ، هزّ رأسه فى بطء ، قائلاً فى صرامة :

ـ لن يمكنك هذا أبدًا .. إنها أسلاك خاصة ، لا يمكن تمزيقها ، إلا بسلاح محدود .

أدار الجواد عينيه إليه فـى حدة ، علـى نحـو يوحـى باستيعابه الموقف كله ، فتابع فى وحشية متوترة :

ـ لا يوجد مخرج واحد من هنا .. إما أن تخضع لى ، أو لا تخضع لأى شخص آخر .

مع نهاية قوله ، انتفض جسم الجواد فى عنـف ، مـع الصاعقة التى أصابته ، عبر تلك الأسلاك الدقيقة ، وانطلـق منـه صهيل ألم قوى ، جعل الزعيم الوحشى يبتسم فى تلذّذ ، قائلاً :

ـ أظنها أولّ مرة يحدث فيها هذا ، فى التاريخ كله .. أن يعذّب أحد جوادًا ، لضمان خضوعه واستجابته .

مرة أخرى ، مع نهاية عبارته ، انتفض جسم الجواد ، وانطلق صهيله القوى ، لنصف دقيقة كاملة ، قبل أن ينهار رأسه ، فى ألم رهيب ، أطلق معه الزعيم ضحكة مخيفة ، وهو يقول :

ـ الصاعقة ستتضاعف قوتها فى كل مرة ، حتى تبلغ حدًّا قاتلاً ، فإما أن تخضع ، أو تموت .

كان محقًّا تمامًا فى قوله هذا ، فالصاعقة التالية كانت من العنف ، حتى إن الجواد لم يستطع إطلاق صهيله ، وإنما سقط على ركبتيه الأماميتين ، ثم حاول النهوض فى صعوبة ..

وانطلقت ضحكات الزعيم الوحشية أقوى ..

وأقوى ..

وأقوى ..

وفى تلذُّذ عجيب قال :

ـ فى المرة القادمة ، ستذوب خلايا مخك ، من فرط الألم ، وسينهار كيانك كله .. ولأننى رجل عطوف مشفق ، فسأمنحك مهلة معقولة ؛ لإبداء الخضوع والاستسلام ، قبل ، أن أطلق الصاعقة ، فى جسمك ، من أقصاه إلى أقصاه .

وتراجع فى عرشه ، الذى يتنقل معه أينما ذهب ، قبل أن يتابع :

ـ بعد دقائق قليلة ، سيصلنى تقريره ، من مختبرى الخاص ، محددًا

كل صفاتك الجينية ، ومؤكدًا أو نافيًا احتمالات استنساخ جواد مشابه ، ينشأ فى حظائرى ، ويدين لى بالوجود ، والطاعة ، والولاء .

نفخ الجواد الهواء من منخاريه ، وضرب الأرض بحوافره ، وخفض رأسه قليلاً ، فتألَّقت عينا الزعيم ، وقد بدا له هذا خضوعًا واضحًا ، وقال فى صرامة ظافرة :

ـ عظيم .

ثم أشار بيده ، فى غطرسة شديدة ، قائلاً :

ـ اركع .

أدار الجواد عينيه إليه فى برود ، كما لو أنه لا يفهم الأمر ، فانعقد حاجبا الزعيم فى غضب ، وكرَّر فى حدة :

ـ اركع أو تموت .

ضرب الجواد الأرض بحوافره مرة أخرى ، وأشاح بوجهه فى لامبالاة ، كما سيفعل أى جواد عادى ..

ولأنه يدرك طبيعته المتميزة ، هتف الزعيم فى حدة :

ـ لا تتظاهر بعجزك عن استيعابى .. أنا أعلم أنك تفهم كل حرف أنطق به .. كل ما فى الأمر ، هو أنك تتظاهر بالغباء فحسب .

وعاد حاجباه ينعقدان ، على نحو مخيف ، وهو يتابع :

ـ لقد أخبرتك أنه لا فكاك من هذا .. ستخضع حتمًا ، أو تموت شر ميتة .

مع الشق الأخير من تهديده ، دلف قائد أمنه إلى المكان ، وهو يحمل مظروفًا صغيرًا ، وقال فى توتر ملحوظ :

ـ نتائج الفحص الجينى للجواد .. رأيت أنه من الضرورى أن تطالعها الآن .

التقط منه الزعيم ذلك المظروف ، وفضه فى سرعة ولهفة ، والتهم محتوياته فى لمح البصر ، قبل أن ينعقد حاجباه فى شدة ، مع هتافه :

ـ مستحيل !

وافقه قائد الأمن ، بإيماءة من رأسه ، وهو يقول فى توتر :

ـ الخبراء أجروا الفحص ثلاث مرات ، قبل أن يضعوا تقريرهم الرسمى .

تألقت عينا الزعيم فى وحشية شديدة ، وبرزت أنيابه دون أن يدرى ، وهو يرفع عينيه مرة أخرى إلى الجواد ، قائلاً :

ـ جينات بشرية ! من كان يتوقع هذا ؟!

ثم تراجع فى عرشه الضخم ، متابعًا :

ـ هذا يجعل الأمر أكثر إمتاعًا بحق .

قالها ، وأشار بيده ..

وانطلقت الصاعقة الجديدة ..

وفى هذه المرة ، بلغ صهيل الجواد حدًا مخيفًا ..

حد الموت ..

* * *

من الواضح أن ذلك المتحوِّر الآخر كان بارعًا فى إطلاق سلاحه ، إلى حد مدهش ..

فلقد أطلق أشعته ، نحو صدر الفارس الشاب مباشرة ..

وأمام عينيه ، أصابت الأشعة هدفها ..

وارتطمت بصدر الشاب ..

ثم ارتدّت ..

وبمنتهى العنف ..

وفى دهشة غاضبة ، هتف المتحوِّر :

ـ أى عبث شيطانى هذا ؟!

ومع هتافه ، وثب الشاب ..

وثب وثبة قوية ، تجاوز بها مساحة الزنزانة كلها ، لينقض

على المتحوِّر انقضاضة عنيفة ..

قـويـة ..

باسلة ..

وبضربة مباشرة قوية ، أطاح الشاب بسلاح المتحوِّر ، الذى أطلق زمجرة وحشية غاضبة ، وقبض على عنق الشاب ، ثم رفعه عن الأرض ، كما لو أنه مجرَّد دمية صغيرة ، وهو يصرخ :

- أتتصوَّر نفسك ندًّا لى .

شعر الشاب بآلام رهيبة فى عنقه ، وبالهواء يحتبس عن صدره ، وذلك المتحوِّر ، الذى يفوق الثور قوة ، يتابع بكل وحشيته وغضبه :

- سأعلق رأسك على باب حجرتى .

هوى الشاب على عنقه بلكمة كالقنبلة ، قائلاً :

- ينبغى أن تحصل عليه أوَّلاً .

أصابت لكمته حنجرة المتحوِّر مباشرة ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، وأراد أن يطلق سبابًا غاضبًا ساخرًا ، إلا أن كل ما خرج من حنجرته لم يتجاوز حشرجة خشنة ، و .....

وهوى الفارس الشاب بلكمة أخرى ، أكثر عنفًا وقوة ..

واتسعت عينا المتحوِّر أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وبدت حشرجته عجيبة ..

مكتومة ..

قـاتـلـة ..

وعندما استعد الشاب ، ليهوى على حنجرته بلكمة ثالثة ، تراخت قبضةُ المتحوِّر على عنقه ، فسقط الشاب أرضًا ..

وسقط المتحوِّر خلفه ..

وفى مرارة خانقة ، على الرغم من فوزه فى معركته ، نهض الشاب ، وغمغم :

- رباه ! ما الذى جعلونى أفعله ؟! ما الذى فعلوه فى العالم كله ؟!

كان يحنقه أن اضطر إلى اللجوء لكل هذا العنف ، حتى يخرج من مأزقه ..

وكان هذا يشعره بالألم ..

والأسى ..

والحزن ..

والمرارة ..

إلا أنه لم يوقفه ..

ففى سرعة ، ألقى كل هذا خلف ظهره ، ووثب خارج الزنزانة ، وأسرع يعبر الممر الطويل ، الممتد أمامها ، وهو يبحث عن مخرج ..

كان الممر فرعًا من شبكة ممرات شديدة التعقيد ، أشبه بالمتاهات ، التى يلهو بها الصغار ، فى مجلاتهم المصورة ..

متاهة متشابكة ..

متداخلة ..

ومعقدة ..

ولدقائق عشر ، تحرك عبر المتاهة ، فى كل الاتجاهات ، دون أن يجد مخرجًا ..

أى مخرج ..

لذا ، فقد توقف ، وغمغم :

- عجبًا ! من الممكن أن يقضى المرء عمره كله هنا ، دون أن يجد منفذًا له ، أو ....

قبل أن يتم عبارته ، بلغ مسامعه صهيل جواده ..

وانتفض جسده فى عنف ..

فالصهيل الرهيب ، الذى سمعه داخل تلك المتاهة ، كان يوحى بأن جواده المجنح القوى يلفظ آخر أنفاسه ..

وبمنتهى القسوة .

★ ★ ★

« الجواد يلفظ أنفاسه الأخيرة .. »

نطق قائد أمن زعيم المتحورين العبارة فى قلق ، وهو يتطلع إلى الجواد الذى بدا متهالكًا على نحو مخيف ، إلا أن الزعيم أطلق زمجرة وحشية عنيفة ، قائلاً :

- إما أن يخضع أو يموت .

غمغم قائد الأمن فى عصبية :

- بعد كل ما فعلناه للإيقاع به .

مطَّ الزعيم شفتيه ، قائلاً فى شراسة :

- لم نعد بحاجة إليه فعليًا .. العلماء أكدوا قدرتهم على استنساخ مثله ، بجزء قليل من خلاياه .

انتبه رأس الجواد ، فى هذه اللحظة ، على نحو واضح ، فزمجر الزعيم مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ إنه يفهمنا .

ثم ضغط زر جهازه مرة أخرى ..

وانطلق صهيل الجواد المجنح المسكين ..

انطلق حاملاً رنة عذاب ..

عذاب بلا حدود ..

وداخل تلك المتاهة الرهيبة ، انتفض جسد الفارس الشاب ، وهو يهتف :

ـ يا للأوغاد ! يا للوحوش !!

كان ضائعًا وسط تلك المتاهة ، لا يدرى طريقه فيها ، وصهيل جواده المعذب يصم أذنيه ، آتيًا من مكان ما ..

مكان قريب ..

قريب جدًا ..

« لا تكن أبدًا عبدًا للتكنولوجيا .. »

استعاد ذهنه عبارة معلمه ، فى تلك اللحظات الحرجة ، وتذكّر نصيحته الأساسية الدائمة ..

« احرص دومًا على أن تتدرب حواسك على التعامل مع الطبيعة وحدها .. دون أجهزة ، أو تكنولوجيا .. فمن يدرى .. ربما يكون فى هذا خلاصك ذات يوم .. »

وبكل الحزم فى أعماقه ، غمغم الفارس الشاب (أمل) :

ـ نعم .. هذا اليوم المنشود يا معلمى .

ومع صهيل الجواد التالى ، أرهف سمعه ..

وأنصت بأذنيه ..

بل بكيانه كله ..

ثم أغمض عينيه ..

وانطلق ..

انطلق عبر المتاهة ، مسترشدًا بصهيل الجواد وحده ..

وكما كان يحدث ، خلال التدريبات العديدة ، التى أخضعه لها أستاذه الفارس ، شعر وكأن الصوت يرسم أمامه خريطة خاصة جدًا ..

خريطة تراها أذناه ، وتقوده عبر دروب خفية ، لا يدركها سواه ..

ثم أخيرًا توقف ..

وفتح عينيه ..

ورفعهما إلى أعلى ..

وانطلق الصهيل مرة جديدة ..

ورهيبة ..

وفى هذه المرة كان صهيل جواد يحتضر ..

بالفعل ..

وكان يأتى من فوقه مباشرة ..

جواده هناك إذن ..

فى مكان ما ، يعلوه مباشرة ..

وهو يتعذَّب ..

ويحتَضر ..

وهو لن يقف هنا ساكنًا ..

أيًا كان الثمن ..

لقد جرَّده المتحورون من كل أسلحته التكنولوجية ، ولكنهم أهملوا أهم أسلحته على الاطلاق ..

عقله ..

وبكل ما يملك من قوة وإرادة ، أغلق (أمل) عينيه ، ودفع عضلاته كلها للاسترخاء ، ثم أطلق لعقله العنان ..

وبكل طاقته ..

كان هذا أهم وأخطر ما تعلمه ، على يد فارسه وأستاذه ومعلمه ..

إطلاق طاقة العقل ..

لم يكن تدريبًا وموهبة فحسب ..

بل كان أيضًا جزءًا من تكنولوجيا المستقبل ..

تكنولوجيا الاتصالات ..

العقلية ..

فعبر جهاز خاص ، مزروع فى عقله ، وعقل الجواد ، تم اتصال خاص ودقيق ..

خاص جدًا ..

ودقيق جدًا ..

وبحركة حادة ، وعلى الرغم من تهالكه الشديد ، أطلق الجواد صهيلاً ..

ونهض واقفًا ..

ومع نهضته المفاجئة ، شهق قائد الأمن ، وهتف :

ـ ولكن كيف ؟!

قاطعه الزعيم بإشارة صارمة من يده ، وقد انعقد حاجباه الكثـان فى شدة ، وعيناه ترصدان ذلك التغير المباغت ، فى مسار الجواد .

فلسبب ما ، راح يطلق صهيلاً متكررًا قصيرًا ، ويضرب الأرض بحوافره فى قوة ، متطلعًا إلى بقعة بعينها أسفله ..

وفى توتر ، غمغم زعيم المتحورين :

– هناك شىء ما .

راح الجواد يدور حول نفسه ، ويضرب الأرض بقوائمه فى عصبية ، ويطلق ذلك الصهيل المتقطع ، فقال قائد الأمن فى عصبية :

– أية طاقة تلك ، التى تفجَّرت فى هذا الجواد .. لقد كان يحتضـر منذ لحظات قليلة !!

كرَّر الزعيم فى شراسة :

– هناك شىء ما .

صمت بضع لحظات بعدهـا ، وهو يراقب الجواد المتوتر ، ثم استدار بحركة حادة ، وضغط أزرار جهازه الخاص ..

وبسرعة ، راح الجهاز يرسم منحنيات سريعة على شاشته ..

منحنيات راحت تتسارع ..

وتتسارع ..

وتتسارع ..

ومع تسارعها ، راحت ترسم خريطة دقيقة ..

خريطةً لمتاهة الممرات ، تحت قاعة الاستجواب الخاصة ..

وتزايدت عصبية الجواد ..

تزايد وهو يدور حول نفسه أسرع ..

وصهيله المتقطع يعلو ..

ويعلو ..

ويعلو ..

وفى المتاهة السفلى ، بدأ جسد الفارس الشاب يرتجف ..

ويرتجف ..

ويرتجف ..

ثم بدأت الدماء تسيل من فتحتى أنفه ..

كان من الواضح أن ذلك الاتصال العقلى الرهيب يستنزف قواه ، ويجهد خلايا مخه ، وأوردته الدماغية ..

إلى أقصى حد ..

وبكل غضب الدنيا ، فى قاعة الاستجواب ، صرخ زعيم المتحورين ، مشيرًا إلى الأرضية :

ـ إنه يتلقى إشارة ما ، من أسفل .

هتف قائد أمنه منزعجًا :

ـ إشارة ما ؟!

ولم يكن هتافه قد اكتمل ، عندما انهار جزء من أرضية القاعة بغتة ..

انهار مع القفص ، الذى وضعوا داخله الجواد المجنَّح ..

ومع انهياره ، أطلق زعيم المتحورين صرخة ..

صرخة غاضبة ، وحشية ، شرسة ، ثائرة ..

صرخة لم يطلق مثلها ، منذ زمن طويل ..

أما الفارس الشاب ، فقد تراجع فى سرعة ، قبيل سقوط أرضية القاعة بلحظة واحدة ، وشاهد القفص يسقط من أعلى ، ويرتطم بالأرض ، ويتحطَّم ، ويخرج منه جواده ..

ودون أن يضيع لحظة واحدة ، وثب على متن جواده ، هاتفًا :

ـ نجحنا يا صديقى .

أطلق الجواد صهيلاً آخر ، يحمل حماسه وفرحته ، ثم وثب ..

وثب ليعبر الفجوة مرة أخرى إلى أعلى ، ثم يفرد جناحيه ، وينطلق مع فارسه الشاب ..

ومع انطلاقتهما ، صرخ زعيم المتحورين صرخة أخرى ..

صرخة بدت أكثر شراسة ووحشية ، وهو يهتف :

ـ أوقفه .. أوقفه بأى ثمن ..

سحب قائد الأمن مسدسه الإشعاعى بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ أمرك أيها الزعيم .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، أسرع الزعيم يضغط زرًا آخر فى جهازه ..

زر أطلق قبة معدنية رقيقة ، لتغطى القاعة كلها ..

قبة غير قابلة للاختراق ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

٤- صـــــهيل ..

فجـاة ، ودون مقدمات ، أطلق ذلك المهر المجنّح صهيلاً قويًا ، داخل المنطقة الخاصة به ، فى مكمن الفارس ..

فبوسيلة ما ، وصلته رسالة قوية ..

رسالة وثبت إلى أعمق أعماقه بغتة ، لتنقل لـه صورة واضحـة ، لما يحدث هناك فى داخل المدينة الكبيرة ..

ومع الصورة ، ارتسمت خريطة ..

ومهمة ..

مهمة تم زرعها فى عقله مسبقًا ..

مهمة خاصة جدًا ..

وفى نفس اللحظة ، التى استقبل فيها المهر الرسالة ، كان الفـارس الشاب يندفع بجواده ، نحـو نـافذة كبيرة فى القاعة ، فى سباق مع الزمن ، لبلوغها قبل أن تنسدل عليهـا تلك القبـة المعدنيـة ، المقاومـة للاختراق ..

وعلى الرغم من إجهاده وتهالكه ، خفق الجواد بجناحيه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

والقبة المعدنية القوية تنسدل ..

وتنسدل ..

وتنسدل ..

وأطلق قائد الأمن أشعة مسدسه ..

ومال الجواد المجنّح فى مهارة ..

وتجاوزته الأشعة المدمرة ..

وأصابت إطار النافذة الكبيرة ..

وكان مشهدًا مبهرًا ، تفجّر كل غضب زعيم المتحورين ..

وبمنتهى العنف ..

فمع تفجُّر الإطار ، بأشعة مسدس قـائد الأمـن ، انهـارت النـافذة كلها ، فى حين ضـم الجـواد المبهر جناحيـه ، ليقلـل مـن حجمـه ، وهو ينطلق بفارسه عبرها ..

وامتزج كل شىء ..

بريق الأشعة ..

الإطار المنهار ..

والزجاج المتناثر ..

والجواد ..

وفارسه ..

وصرخةَ الزعيم ..

لقد أطلق صرخة هائلة ..

غاضبة ..

ثائرة ..

شرسةً ..

وحشيةً ..

أطلقها قبل أن يثب إلى جهازه ، وهو يهتف :

ـ أيها الغبى .. أيها الغبى ..

ومع ضغطته ، انطلقت صفارة إنذار قوية ، فى المدينة الكبيرة كلها ، وراحت قبتها السميكة تتألق أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وأدرك الفارس الشاب ، بكل ما تعلمه من أستاذه ، ما الذى يعنيه هذا بالضبط ..

فالقبة السميكة لم تعد مجردُ قبة ..

بل غلاف من طاقة هائلة ، لا يمكن عبوره ، إلا بثمن باهظ للغاية ..

غلاف سيفجِّر حتمًا كل ما يلمسه ..

ومن يلمسه ..

وهذا يعنى أنه قد أفلت بجواده من سجن صغير ، إلى سجن كبير ..

سجن المدينة الرهيبة ..

كلها ..

وعبر جهاز اتصال قوى ، صرخ زعيم المتحورين ، فى كل أنحاء المدينة :

ـ امنعوهما .. امنعوهما من الفرار بأى ثمن .. حياتهما لم تعد تعنى أحدًا .. انسفوهما .

ومع صرخته ، تأهبت كل قوات الأمن ، فى المدينة الكبيرة ..

وانطلقت ..

انطلقت نحو هدف واحد ..

وفارس واحد ..

فارس المستقبل ..

أما فى قاعة الاستجواب ، فقد استدار الزعيم إلى قائد أمنه ، قائلاً بكل شراسة الدنيا :

ـ أنت فعلتها .. أنت ساعدتهما على الفرار .

تراجع قائد الأمن ، وهو يقول فى عصبية :

ـ لقد .. لقد حاولت إيقافهما .

صرخ به الزعيم ، فى شراسة أكثر ، وأنيابه ومخالبه تبرزان ، على نحو مخيف :

ـ وفشلت .. هل تعرف عقوبة الفشل هنا ؟

انتفض جسد قائد الأمن ، ورفع فوهة مسدسه الإشعاعى نحو زعيمه ، فى حركة دفاعية غريزية ، وهو يقول :

ـ لا .. لن أكون لقمة سائغة كسلفى .

زمجر الزعيم زمجرة وحشية ، وهو يقول :

ـ وكيف سيمكنك منعى أيها المتحذلق ؟!

تراجع قائد الأمن أكثر ، وهو يقول فى عصبية :

ـ لقد .. لقد قمت بتلغيم القبة ، وكل مداخل ومخارج المدينة ، وحتى عرشك أيها الزعيم ، وكل تلك الألغام ترتبط بمنظم خاص فى قلبى ، ولو توقف هذا القلب ، ستنهار المدينة كلها .

توقف الزعيم ، وأطلق زمجرة أكثر وحشية ، وهو يقول :

ـ أنت خائن إذن !

صاح قائد الأمن ..

ـ لست خائنًا ، ولكننى حذر .. لقد خدمتك ، وكنت سأخدمك مدى حياتى ، بكل الوفاء والإخلاص ، ولكن إذا ما قررت التخلص منى ، فلابد وأن يكون الثمن فادحًا .

زمجر الزعيم ، بكل وحشية الدنيا ، هاتفًا :

ـ هكذا خطت .

حاول قائد الأمن أن يتماسك ، وهو يقول :

ـ وهكذا نفذت .

حدق الزعيم فى وجهه بضع لحظات ، قبل أن يطلق ضحكة قوية مجلجلة .. ضحكة وحشية ، رددت صداها جدران قلعته كلها ..

ضحكة امتزجت بأزير خيوط وحزم الأشعة ، التى انطلقت فى سماء مدينته الكبيرة ، فى محاولة لاصطياد الفارس الشاب وجواده المجنح ..

كانت كل الفرق تحاول اصطيادهما ، ولكن الجواد المجنح ، كان يستنفد كل ما تبقى له من طاقة وقوة ، ليناور ..

ويحاور ..

ويدور ..

ويتفادى ..

وعلى متنه ، هتف فارسه الشاب :

ـ لا فائدة .. لن يمكننا اختراق قبة الطاقة هذه ، ولقد سدوا كل الأنفاق ، التى تقود إلى هنا .. سنقع فى قبضتهم حتمًا يا صديقى .. لا فائدة ..

« لا تيأس أبدًا من رحمة الخالق (عز وجل) ، ولا تستسلم لخصومنا قط ، فالموت أشرف من الوقوع فى أسرهم .. »

ترددت العبارة هذه المرة فى ذهن الجواد ، وليس فى ذهن الفارس ..

ومع ترددها ، انطلقت فى عروقه فورة خاصة ..

وبرزت فكرة ..

بل هو قرار ..

قرار حاسم للغاية ..

قرار ينتظر اتصالاً عقليًا محدودًا .

اتصالاً واحدًا ..

واضحًا ..

ومباشرًا ..

وفى تلك اللحظة ، التى ينتظر فيها القرار ، كان الزعيم يواجه قائد أمنه ، وهو يضغط أزرار جهاز اتصاله الخاص ، قائلاً :

ـ أهذه خريطة ألغامك ؟

اتسعت عينا قائد الأمن ، فى دهشة وارتياع ، وهو يحدّق فى خريطة دقيقة للغاية لمواقع الألغام ، التى زرعها فى القبة ، وفى مداخل ومخارج المدينة الكبيرة ، فى حين أطلق الزعيم ضحكة وحشية أخرى ، وقال :

ـ لقد كشفت أمرها ، فور زرعك لها ، وتم انتزاعها كلها من مكامنها ، وإبطال مفعولها ، ولكننى تركتك تتصوَّر أنها موجودة ، حتى لا أفقد لذة اللعبة .

اتسعت عينا قائد الأمن ، حتى ذروة اتساعهما ، وتملكه يأس بلا حدود ، جعله يطلق أشعة مسدسه نحو زعيمه مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

أطلقها وهو يدرك أن جسده النووى لن يتأثر بها مطلقًا ، قبل أن تسقط ذراعه إلى جواره ، ويسقط هو على ركبتيه ، قائلاً فى انهيار :

ـ الرحمة .

ورمقه الزعيم بابتسامة ساخرة ظافرة ، قبل أن يقول فى وحشية :

ـ فيما بعد .. سننظر فى أمرك فيما بعد .

ثم عاد إلى جهازه ، وضغط أزراره فى سرعة ، لترتسم على شاشته دائرة ، يتقاطع قطراها الرأسى والأفقى ، عند نقطة واحدة ، حركها فى سرعة ومهارة ، لتستقر على الجواد المجنح وفارسه ، وهو يقول :

ـ طاقة القبة لا تحمى فحسب .. إنها تنطلق حيث أشاء أيضًا .

وأعقب قوله بضغطة زر جديدة ..

ضغطة ستطلق كل طاقة القبة نحو هدف واحد ..

الهدف البشرى الوحيد ، فى المدينة الكبيرة ..

كلها .

★ ★ ★

لم يكن هناك مفر من سقوط فارس المستقبل هذه المرة ..

فالطاقة التى تنبعث من القبة السميكة ، المحيطة بالمدينة الكبيرة ، كانت تمنع اختراقها ، بأى حال من الأحوال ..

وقوات المتحورين كلها كانت تهاجمه ..

وزعيمها يهم بإطلاق كل طاقة القبة نحوه ..

حتى سكان الجبال من البشر ، فى الوادى الأزرق ، أدركوا أن الموقف يختلف تمامًا ، عن كل ما عهدوه من قبل ..

فعلى نحو غير مسبوق ، تألَّقت قبة المدينة الكبيرة ..

وتألَّقت ..

وتألَّقت ..

حتى صارت أشبه بشمس أخرى ، حجبت مرحلة الغروب ، وصنعت امتدادًا نهاريًا صناعيًا ..

وفى خوف شديد ، لاذ البشر بكهوفهم ..

وسراديبهم ..

ورعبهم ..

وانتظروا حدوث كارثة ..

كارثة رهيبة ، على كل المستويات ..

وهذا بالضبط ما شعر به الفارس الشاب ..

وما أدركه جواده المجنَّح ..

ولكن العجيب أن ذلك الجواد المدهش ، قد انحرف فجأة بزاوية حادة للغاية ، دون سابق إنذار ، وكأنما استشعرت غريزته خطرًا ما ..

وفى نفس لحظة انحرافه ، هوت حزمة الطاقة الرهيبة ..

هوت لتضرب أحد مبانى المدينة مباشرة ، بعد أن تجاوزت الجواد ..

وأمام أعين الجميع ، تبخَّر المبنى تمامًا ..

وصرخ زعيم المتحورين .

صرخ فى غضب هادر ؛ لأنه ، ولأول مرة ، أخطأ هدفه ..

وبسرعة ، حاول أن يعيد التصويب نحو الفارس وجواده ، لولا أن نبهته شاشته الراصدة إلى أمر عجيب ..

فقد أوقف انسدال القبة المعدنية العازلة ، مع مغادرة الفارس ..

وعبر النافذة المحطمة ، كانت قاعته مكشوفة للجميع ..

وكان الفارس وجواده يتجهان نحوها مباشرة ..

وخلفهما كانت قواته ، التى تواصل إطلاق النيران نحوهما ..

وتواصل ..

وتواصل ..

ومع براعة المناورات ، التى يقوم بها الفارس والجواد ، كانت حزم الأشعة القاتلة تتجاوزهما ، وتواصل طريقها ، لترتطم بالجدار الخارجى للقاعة ، وبأرضيتها ، عبر النافذة المحطمة ، والنوافذ الأخرى ..

وبكل غضبه وثورته ، صرخ الزعيم الوحشى :

ـ أوقفوا إطلاق النار أيها الأغبياء .

أوقفت قواته إطلاق النيران على الفور ، فى نفس الوقت الذى عجز هو فيه عن إعادة التصويب بطاقة القبة ؛ خشية أن تفلت الطاقة ، فتبخره وقصره المنيع ، وتمحوهما من الوجود ..

ولم يفهم لماذا يعود الفارس وجواده إلى قاعته ..

لم يفهم أبدًا ..

لذا فقد انعقد حاجباه ..

وزمجر ..

وهبَّ واقفًا فى تحد وحشى غاضب ..

وعبر الفارس وجواده النافذة المحطمة ، واستقرا على أرضية القاعة الكبيرة الباردة ، وتراجع قائد الأمن ، فى توتر بلا حدود ..

أما الزعيم الوحشى ، فقد زمجر فى قوة ، هاتفًا :

ـ عدتما إلى قبركما ..

صهل الجواد ، وضرب أرضية القاعة بحافريه الأماميين ، وفارسه يقول فى حزم صارم :

ـ أستاذى علمنى أنه عندما تضيق الدائرة ، يصبح الهجوم هو خير وسيلة للدفاع .

زمجر الزعيم مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ أستاذك .. هه .. أتعنى ذلك الفارس الأحمق ، الذى لقى مصرعه فى قاعة العرش ؟!

تفجَّر غضب هائل فى أعماق الشاب ..

غضب كاد يدفعه إلى هجوم أحمق عصبى ، لولا أن استعاد كلمات أستاذه ..

« إياك والغضب .. إنه يعمى بصرك وبصيرتك ، ويجعلك فريسة سهلة لأى خصم فى مواجهتك .. إياك » .

وصهل الجواد مرة أخرى ..

صهل وهو يرمق ببصره ذلك الجهاز الدفاعى ، إلى جوار الزعيم ..

وعبر ذلك الاتصال العقلى الفائق بينهما ، أدرك الشاب ما عليه أن يفعله ..

وفى حركة رشيقة مرنة ، وثب عن متن جواده ، وهو يهتف :

ـ تظن نفسك قويًا يا هذا ؟!

ابتسم الزعيم ابتسامة وحشية ، وهو يقول :

ـ إننى قوى بالفعل .

شدَّ الشاب قامته ، وتحرَّك إلى اليسار فى حذر ، قائلاً :

ـ دعنا نختبر هذا .

ارتسمت ابتسامة ساخرة وحشية ، على شفتى الزعيم ، وهو يبرز أنيابه ومخالبه ، قائلاً :

ـ فليكن أيها البشرى .. أنت أردت هذا .

كانت عيناه تشعان ببريق جهنمى مخيف ، وهو يتابع حركة الشاب فى استهتار ، و .....

وفجأة ، وما إن ابتعدت عيناه ، حتى فرد الجواد جناحيه ، وأطلق صهيلاً قويًا ..

ثم انقض ..

لم ينقض على الزعيم ..

أو حتى على قائد أمنه ..

بل انقضّ على جهاز التحكُم الشامل ..

مباشرة ..

وبمنتهى العنف ..

وانتبه قائد أمن الزعيم ..

وصرخ ..

ورفع مسدسه الإشعاعى مرة أخرى ..

ومع صرخته انتبه الزعيم ..

وأدرك الخدعة ..

واستدار يحاول حماية جهازه ، بمنتهى الوحشية والشراسة ..

وأطلق قائد أمنه أشعته ..

وتداخلت كل المشاهد على نحو رهيب ..

وتفجَّرت الدماء ..

ولكن الجواد الأصيل انقض ..

ورفع قائمتيه ..

وهوى بحافريه الأماميين القويين على الجهاز ..

هوى ..

وهوى ..

وهوى ..

وتحطَّم جهاز التحكُم الشامل بعنف ، وتطايرت أجزاؤه فى كل مكان ، وامتزج تطايرها بصرخة هادرة ، أطلقها زعيم المتحورين ..

صرخة حملت كل غضبه ..

ومقته ..

وثورته ..

ووحشيته ..

وبوثبة جبارة ، هبط إلى جوار الجواد ، وأمسك معرفته بكل قوته ، صارخًا كأنما ألف وحش :

ـ أنت تستحق هذا .

وبقوة هائلة رهيبة ، رفع الجواد عاليا ، ثم ألقى به نحو الجدار ..

وطار جسد الجواد عبر القاعة ..

ومعه طار جسد (أمل) ؛ لينقض على قائد الأمن ، ويلكمه لكمة كالقنبلة فى فكه ، ثم ثانية ساحقة فى معدته ، قبل أن ينتزع مسدسه الإشعاعى بحركة قوية بارعة ..

وارتطم جسد الجواد بالجدار ..

وأطلق صهيلاً آخر ..

وسقط ..

ومع سقوطه ، كان قائد الأمن ينقض على (أمل) ، بكل وحشية الدنيا ، صارخًا كالمجنون :

ـ لن تهزمنى أيها البشرى .

كان الفارس الشاب يدرك أن قائد الأمن سيفوقه قوة بكثير ..

وأن أية مواجهة قتالية مباشرة بينهما ، ستعنى هزيمته حتمًا ..

وخاصة مع حالة الإجهاد الشديد ، التى يشعر بها ..

لذا فقد كان مضطرًا لاستخدام الوسيلة الوحيدة ، التى تبقى على حياته ..

الوسيلة التى يبغضها كل البغض ..

وفى حسم وحزم ، رفع فوهة مسدس الأشعة ..

وأطلقه ..

كان ذلك المتحورّ الضخم ينقض عليه بكل قوته ، عندما ارتطمت الأشعة القوية بصدره ، فاقتلعته من قفزته ، ودفعته فى الاتجاه العكسى ، ليطير عبر القاعة ، وهو يطلق صرخة هائلة ، قبل أن يسقط جثة هامدة ..

وبكل وحشية الدنيا ، استدار الزعيم يواجه الفارس الشاب ..

وعلى نحو مدهش ، راح جسده يتضخم ..

ويتضخم ..

حتى بدا عملاقًا ، متألقًا ، رهيبًا ، وتردد صوته مخيفًا فى القاعة ، وهو يقول :

ـ والآن ، فلتذق ما ذاقه أستاذك .

وبدا من الواضح أنه لم يعد هناك مخرج هذه المرة ..

أى مخرج ..

* * *

٥ ـ ختـــام ..

من المؤكد أن كل حسابات الدنيا ستتفق ، على أن الأمل فى نجاة الفارس الشاب ، من ذلك الموقف الرهيب ، منعدم تمامًا ..

فقد فقد كل أسلحته ..

وكل حيله التكنولوجية ..

وجواده مصاب ..

محطم الضلوع ..

والدماء تنزف من عنقه ..

والزعيم الضخم أصبح عملاقًا متألقًا ..

وتضاعفت وحشيته ألف مرة .

وفى توتر بالغ ، راح الشاب يتحرك فى حذر ، والزعيم يتابعه فى استهتار ، قائلاً :

ـ لا يوجد مفر .. لن تجد مخرجًا واحدًا من هنا ..

كان من الواضح أنه لا يبالى بمناورة الشاب ، حتى إنه لا يتعجّل القضاء عليه ، وإنما يستمتع بالعبث به ، كما يفعل القط بالفأر ..

هذا لو أن القط والفئران ما زالت على حالها القديم ، فى ذلك الزمن العسير الرهيب .

لذا ، فبمنتهى الاستمتاع ، راح يحاصر الفارس الشاب ..

ويحاصره ..

ويحاصره ..

ويدفعه نحو الركن الذى اختاره له تمامًا ..

وفجأة ! انتفض الجواد المجنَّح ..

انتفض ، واستعاد وعيه وانتباهه ..

وإدراكه لما يحدث حوله ..

الجزء الجينى البشرى منه ، أمكنه أن يفهم ويستوعب ذلك الموقف الشائك الدقيق ..

ولكن المؤسف أنه كان أضعف من أن يقاتل ..

أو يواجه ذلك الزعيم الوحشى ..

وبأية صورة من الصور ..

ومن المستحيل ، فى الوقت ذاته ، أن يتخلّى عن الفارس الشاب ..

الفارس الذى أوصاه به سيِّده السابق ..

وكما تدرب طويلاً ، استعاد الجواد كل ما مر به ..

ثم اتخذ قراره ..

أصعب وأدق قرار ، فى حياته كلها ..

وبكل ما تبقى له من قوة نهض الجواد الأصيل ..

كانت الآلام تنتشر ، فى جسده كله ، إلا أنه أبى أن يستسلم ..

فقد كانت لديه مهمة ، لا بد وأن ينجزها ..

مهمة حاسمة ..

حازمة ..

وأخيرًا ..

وبإرادة تفوق إرادة البشر ، خفق الجواد بجناحيه ..

وانطلق ..

لم ينطلق نحو الزعيم الوحشى ..

أو حتى نحو فارسه ..

بل انطلق خارجًا ..

انطلق على نحو أدهش الفارس ..

والزعيم ..

وكل القوات فى الخارج ..

ولأنهم قد تلقوا أمرًا صارمًا ، بعدم إطلاق النار ، لم يدر جنود المتحورين ماذا يفعلون !!

وعلى أى أمر ، ينبغى أن يقدموا ..

لذا فقد تجمدوا تمامًا ، واكتفوا بمراقبة الجواد ، الذى راح يرتفع ..

ويرتفع ..

ويرتفع ..

نحو القبة المشحونة بالطاقة مباشرة ..

وفى توتر وحشى ، عقد الزعيم حاجبيه الكثين ، وأبرز أنيابه ومخالبه ، وهو يطلق زمجرة رهيبة ، وعقله يبحث عن تفسير ..

أى تفسير ..

أما الفارس الشاب ، فقد أدرك ما يحدث ..

ربما أدركه ؛ لأنه يفهم الجواد جيدًا ..

أو لأنه هناك تكنولوجيا شديدة التطور ، تربط بين عقليهما ..

أو ربما للسببين معًا ..

المهم أنه قد فهم ..

واستوعب ..

وصرخ :

ـ لا .. لا تفعلها ..

ومع صرخته ، أدرك الزعيم ما يراه ..

واشتعلت عيناه بالغضب ..

كل غضب الدنيا ..

وبكل الانفعال الوحشى ، الذى تفجر فى أعماقه ، صرخ الزعيم :

ـ أوقفوه .. أوقفوه بأى ثمن .

ولكن صرخته ضاعت فى فراغ القاعة ..

وفى غياب أجهزة الاتصال ..

أما الجواد ، فقد وصل انطلاقته وارتفاعه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وعندما اقترب تمامًا من القبة ، أطلق صهيلاً قويًا ..

صهيل اختلف عن كل صهيل سابق ..

صهيل حاسم ..

حازم ..

وأخير ..

صهيل ارتطم بعده بالقبة المشحونة بالطاقة الهائلة ..

وبكل قوته ..

ودوى انفجار رهيب ..

شىء ما فى جسده ، تفاعل مع كل طاقة القبة ، وصنع انفجارًا هائلاً مخيفًا ..

انفجار لم يدو داخل المدينة الكبيرة وحدها ، وإنما تردَّد صداه فى الوادى الأزرق نفسه ..

ومع دويه ، تهاوت القبة كلها ..

وتمزق هو تمامًا ..

ومع سقوط القبة ، تهاوت مركبات قوات المتحورين ، وصرخ زعيمهم بكل غضب وثورة الدنيا ، وسادت موجة رعب هائلة بين السكان المتحورين ..

ووسط كل هذا ، برز المهر المجنَّح ..

جاء تلبية لنداء عقلى شامل ، أطلقه الجواد الأوَّل ..

الجواد السابق ..

الراحل ..

ووسط الهرج والمرج ، اندفع نحو نافذة القاعة المحطمة ..

وعلى الرغم من حزنه ومرارته ، على مصرع الجواد الكبير الأصيل ، استوعب الفارس الشاب الموقف كله ، وأدرك أنها فرصته الأخيرة ، فاندفع بأقصى سرعته نحو النافذة المحطمة ..

ووثب منها بكل قوته ..

كانت ترتفع عشرين مترًا عن سطح الأرض ، ولكنه لم يتردَّد لحظة واحدة ، مما جعل الزعيم يعدو محاولاً اللحاق به ، وهو يصرخ :

- أوقفوه .. أوقفوه .

ولكن الموقف كان سريعًا ، متناسقًا ، مدروسًا ، وسط حالة هائلة من الفوضى ، منعت اتخاذ أى إجراء عاجل ، أو إطلاق أية استجابة سريعة قوية ..

فالمهر المدرَّب انخفض فى براعة ، وترك فارسه يسقط ممتطيًا إياه بدقة مدهشة ، قبل أن يضرب الفراغ بجناحيه ، ويرتفع مرة أخرى فى سرعة ، وطاقة الزعيم الرهيبة تنطلق نحوه ..

وتنطلق ..

وتنطلق ..

دون أن تنجح فى إصابته مرة واحدة ..

ومن جعبة المهر ، التقط الفارس الشاب سلاحًا صغيرًا ، وهو يقول فى حزم :

- لقد قتلوا جيلك الأوَّل ، ولا يمكن أن ننصرف ، دون أن نترك لهم ما يذكرهم بهذا .

قالها ، وأطلق سلاحه نحو النافذة المحطمة تمامًا ..

ودوى انفجار آخر ، فى المدينة الكبيرة ..

انفجار تهاوت معه أرضية القاعة ، التى يقف وسطها الزعيم ..

تهاوت لتضرب الطابق أسفلها ..

وراح المبنى كله ينهار ..

وبسرعة رهيبة ..

وعلى الرغم من أن هذا لم يحطمه ، راح الزعيم يصرخ ، بكل غضبه وثورته ، قائلاً :

ـ لن تفلت منى أبدًا .. ربما تربح جولة ، ولكنك لن تربح المباراة .. هل تفهم ؟! لن تربحها أبدًا .

ولم يسمع الفارس صرخته هذه ، وهو يبتعد عن المدينة الكبيرة .

ويبتعد ..

ويبتعد ..

ففى أعمق أعماقه ، وعلى الرغم من فوزه فى هذا الصراع ، كان يشعر بمرارة بلا حدود ..

مرارة ولَّدها إحساسه بأن كل مواجهة مع أولئك الوحوش ، لا بد وأن تنتهى بخسارة فادحة ، مهما بلغ انتصارها ..

فمرة خسر أستاذه ..

ومرة فقد جواده ..

ومن يدرى ، ما الذى يمكن أن يفقده ، فى المواجهة التالية ..

المواجهة التى تعد أسوأ ما فى ذلك الزمن ..

وتواصلت تلك الفكرة فى رأسه ، مع ما يشعر به من مرارة وحزن ، وهو يبتعد عن المدينة الكبيرة ، التى تعالى منها وهج النيران ، وأجنحة مهره تخفق ..

وتخفق ..

وتخفق ..

عبر سماء الوادى الأزرق ..

وعبر الزمن ..

أصعب زمن ..

على الإطلاق .

* * *

تمت بحمد الله

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب
كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

صفحة

الثمن فى مصر ٤٠٠ ق
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٤ - ٦٨٢٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١١٩٧
فاكس : ٦٨٢٧٠٠٢

مطابع